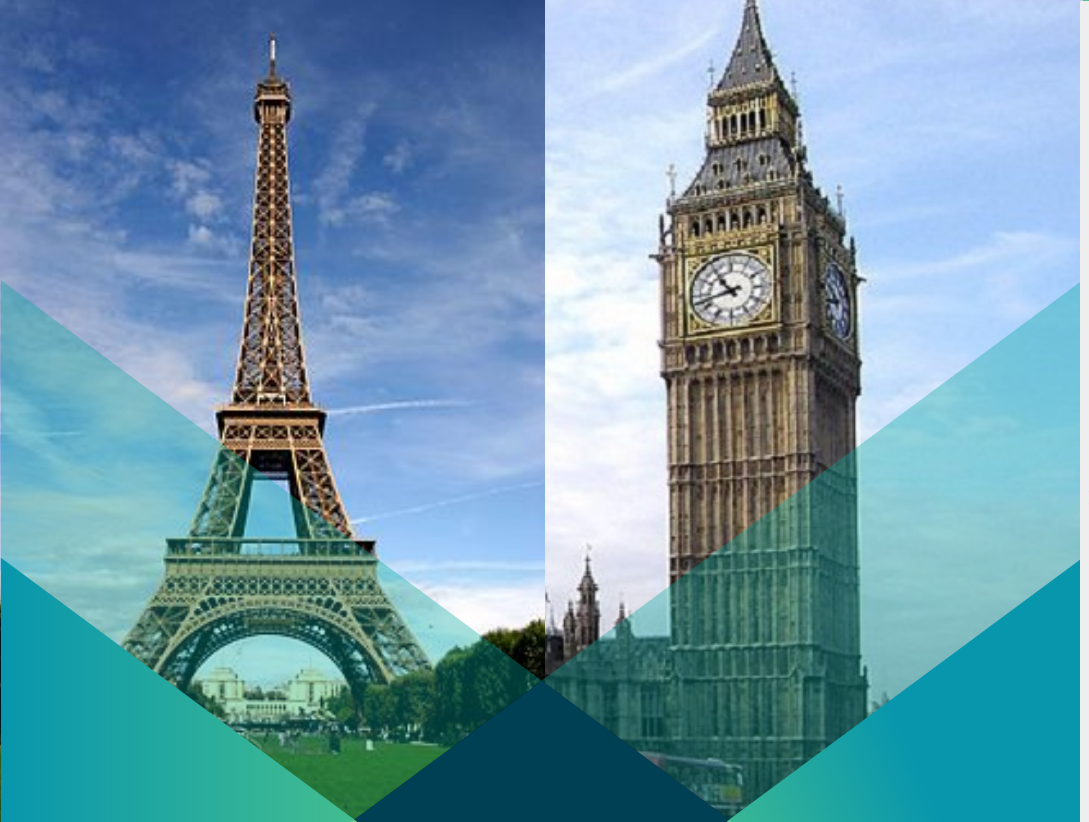

اعداد:
النّاصر الهمّامي

المركز الديمقراطي العربي
برلين - المانيا

خصائص المدنيّة في لندن وباريس

عند الرحّالتين: محمد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي

2022

المركز الديمقراطي العربي
برلين - المانيا

خصائص المدنيّة في لندن وباريس
عند الرحّالتين: محمد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي

Democratic Arabic Center
Berlin - Germany

Characteristics of Civilization in London and Paris

With the two travelers: Muhammad bin Al - Khouja and Abu Al - Jamal Al - Fassi

Nasser Hammami

VR . 3383 – 6615 B

DEMOCRATIC ARABIC CENTER
Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112
http://democraticac.de
TEL: 0049-CODE
030-89005468/030-898999419/030-57348845
MOBILTELEFON: 0049174274278717

الـنـــــــــاشـــــــر:

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية

ألمانيا / برلين

Democratic Arab Center

For Strategic, Political & Economic Studies

Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ،دون إذن مسبق خطي من الناشر.
جميع حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher.

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel: 0049-code Germany

030-54884375

030-91499898

030-86450098

البريد الإلكتروني

book@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

الكتاب : خصائص المدنيّة في لندن وباريس
عند الرحّالتين : محمد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي

تأليف : النّاصر الهمّامي

رئيس المركز الديمقراطي العربي: أ. عمار شرعان

مدير النشر: د. أحمد بوهكو

رقم تسجيل الكتاب: VR . 3383 – 6615. B

الطبعة الأولى

أذار / مارس 2022 م

الآراء الواردة أدناه تعبّر عن رأي الكاتب ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر المركز الديمقراطي العربي

خصائص المدنيّة في لندن وباريس

عند الرحّالتين: محمد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي

Characteristics of Civilization in London and Paris

With the two travelers:

Muhammad bin Al-Khouja and Abu Al-Jamal Al-Fassi

النّاصر الهمّامي

Nasser Hammami

2022

مقدمّة

مرّت البشريّة في تاريخها الطّويل بثلاث مراحل من التطوّر: مرحلة التوّحش فالبربريّة ثمّ المدنيّة. وبالتالي تعدّ المدنيّة مرحلة تعكس أوج التطوّر البشريّ وذروته. وهي درجة رفيعة من التقدّم الإنسانيّ فقد تمّكن الإنسان في هذه المرحلة من السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمته، كما تتمثّل المدنيّة في مجموعة الإنجازات والمبتكرات التي حققتها الإنسانيّة: من علوم وفنون وقوانين وكفاءات مكتسبة، فالمدنيّة تشمل الظواهر الماديّة والفكريّة والأخلاقيّة التي تعد ميزة للمجتمعات الحضريّة وتتميّز أيضا بقدرة الإنسان على ترويض شهواته وأهوائه وتهذيب سلوكه في إطار العيش الاجتماعي المشترك.

ارتبط مفهوم المدنيّة باستقرار الإنسان في المدن وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها، وقد عرفت الإنسانيّة ظهور العديد من المدنيّات مثل: المدنيّة البابليّة، المصريّة، اليونانيّة، القرطاجنية، الرومانيّة، الإسلاميّة وأخيرا المدنيّة الأوروبيّة الغربيّة والتي تعدّ من أرقى المدنيّات التي شهدتها الإنسانيّة نظرا لارتكازها على المدنيّات التي سبقتها واعتمادها على التراكم الكمّي والنوعيّ للعلوم والمعارف والمنجزات الإنسانيّة.

كما أنّ المدنيّة ظاهرة حضاريّة تتميّز بالتعاقب والتداول بين الأمم والشعوب، فبعد أن كان العرب أصحاب مدنيّة مزدهرة، حدث منذ القرن الرّابع عشر ميلاديّا تقهقر حضاريّ جعل الحضارة العربيّة الإسلاميّة تعيش حالة جمود وانحطاط، ولكن منذ أواخر القرن الثامن عشر ونتيجة للاحتكاك بالآخر (الغرب) عن طريق الحملات العسكريّة بدأ الإحساس بالتخلّف والتأخّر الحضاريّ لدى العرب يزداد وتعدّدت بوادر النهضة والوعي بضرورة الخروج من التخلّف والأخذ بأسباب التقدّم تتنامى وتتصاعد.

قام الرّحالة العرب والمسلمون في هذه الفترة بالعديد من الرّحلات إلى أوروبا لاكتناه أسرار تقدمّها ورقيّها وتبيّن خصائص مدنيّتها ومميزاتها، وسنرّكز – في بحثنا هذا – على رحلات بعض المغاربيّين إلى أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لأنّها فترة حسّاسة تميّزت بتسارع نسق الرّحلات من أوروبا وإليها وتزامنت مع هيمنة الاحتلال الفرنسي على منطقة المغرب العربي.

وقد اخترنا دراسة رحّالتين مغاربيّين قام كلاهما برحلة إلى أوروبا في الفترة الزّمنيّة نفسها وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهما: محمّد بن الخوجة من تونس وقد قام برحلة إلى فرنسا وبالتحديد إلى مدينة باريس من خلال كتابه " سلوك الإبريز في مسالك باريز" وأبو الجمال الفاسي وهو من المغرب الأقصى وقد قام برحلة إلى أنجلترا وبالتحديد إلى مدينة لندن من خلال مؤلفّه " الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة."

ترجع أسباب اختيارنا للبحث في هذا الموضوع إلى أهميّة رافد الرحلة في القرن التاسع عشر في تجسير العلاقة بين الشرق والغرب وانتقال القيم الحضاريّة والثقافيّة وانتشارها بين الأمم والشعوب وخاصّة بين دول أوروبا ودول المغرب العربي، كما أنّنا لاحظنا اهتماما بالعديد من الرحلات والرّحالين وتقصيرا في العناية بالرّحلات الأخرى ومنها: رحلة محمّد بن الخوجة إلى فرنسا وكذلك لاحظنا انعدام أو ندرة الدّراسات حول رحلات المغاربة إلى أنجلترا – رغم عظم شأن هذه الدّولة وشدّة تأثيرها في تلك الفترة باعتبارها امبرطورية استعمارية عظمى – وفي مقابل ذلك تركز جل الدّراسات على الرّحلات إلى فرنسا، كما أن مدوّنة البحث تفتقر إلى الدّراسات المقارنة للرّحلات بين أنجلترا وفرنسا.

سنتّبع في بحثنا هذا منهجا تحليليّا نقديّا مقارنيّا بين هاتين الرّحلتين: سلوك الإبريز في مسالك باريز والرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة من أجل تبيّن مظاهر الائتلاف أو الاختلاف في النظر إلى المدنيّة الأوروبيّة (في كلّ من فرنسا وأنجلترا) والتعامل مع الآخر (الغرب) من وجهة نظر تونسيّة ومغربيّة، وسنسعى إلى تجلية ملامح المدنيّة وخصائصها في كلّ من باريس ولندن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتركيز على الخصوصيّات المميّزة لمشروع التمّدن في كلّ منهما، ونروم من خلال كلّ ذلك تبيّن مظاهر الصّراع الثقافي والسّياسي بين النموذج الفرنكفوني والنموذج الأنجلوفوني وانعكاساته على المنطقة المغاربيّة سياسيّا واقتصاديّا وثقافيّا.

كما أنّنا نرنو من خلال بحثنا هذا إلى استجلاء أهمية الرحلة في نحت ملامح الهاجس النهضوي التنويري وتحفيز الخطاب الإصلاحي وتطويره في بلدان المغرب العربي وبالأخصّ: تونس والمغرب الأقصى وتبين مدى تشابه التجربة الإصلاحية في البلدين من خلال دراسة خصائص الخطاب وأساليبه لدى كل من ابن الخوجة والفاسي سعيا منا إلى اكتناه الخلفيّة الفكرية والثقافية لكل منهما، والتي سيكون لها تأثير هام في توجيه وصياغة نظرتهما إلى المدنية الغربية بشقيها الفرنكفوني والأنجلوفوني وكيفية انعكاس ذلك على تطور الوعي بالآخر وطريقة التعامل معه .

وسنحاول تبين مدى نجاح هذين الرحّالتين المغاربيّين في تجاوز مرحلة الانبهار والإعجاب إلى الوقوف على الآليّات الحقيقية للتمدّن والحداثة الغربيّين ومدى ارتباط ذلك بتطوير الفكر الإصلاحي المغاربي والتمهيد لحركات التحرر الوطني. وسنسعى إلى تبيّن مدى مساهمة رحلات المغاربة إلى أوروبا في التشجيع على الانفتاح على الآخر – في مرحلة تاريخية صعبة وحرجة – وتأسيس مرتكز لحوار حضاري وقيم إنسانية مشتركة بين عالمين ونسقين ثقافيّين مختلفين.

I – الفصل الأوّل (تمهيدي)

حول المدنية والرّحلة والرحّالة

في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر

مقدّمة الفصل

يعدّ البحث في مفهوم المدنيّة ومحاولة تحديد ماهيّتها بحثا غير يسير، نظرا إلى تداخل هذا المفهوم مع مفاهيم أخرى تتشارك معه في جوانب معيّنة، وتختلف عنه في جوانب أخرى مثل: مفهوم الحضارة والثقافة والحداثة، وسنحاول تحديد هذا المفهوم تحديدا دقيقا من الناحية اللّغويّة أوّلا، ثمّ من الناحية الاصطلاحيّة ثانيا، وذلك بربطه بالسّياق التّاريخيّ الذي ظهر فيه وجرى استعماله، وسنعمل على البحث في جذوره وأصوله الأوروبيّة واللاّتينيّة.

كما سنحدّد في هذا الفصل الأوّل مميّزات وخصائص المدنيّة. وقد صنّفناها إلى خصائص سياسيّة واجتماعيّة وعلميّة. وسنبيّن أن للمدنيّة مقوّمات وشروط لا تتمّ بدونها وتتمثّل في المعايير التطوّريّةcritères évolutifs) التي نقيس بها نسبة التمّدن لدى شعب من الشعوب ونميّز بها بين المجتمعات المتمدّنة وغير المتمدّنة وتتمثّل في: معيار التحضرّ والتعقيد ومعيار التقنيات ومعيار العوامل الفكريّة والأخلاقيّة.

وسنبيّن أهميّة الرّحلة في تحقيق التواصل الحضاريّ بين الشعوب والثقافات قديما وحديثا وسنركّز على الرحّالة المغاربة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك باختيار نموذجين وهما محمّد بن الخوجة من تونس اعتمادا على كتابه " سلوك الإبريز في مسالك باريز" وأبو الجمال الفاسي من المغرب اعتمادا على تأليفه « الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة ». وسنعمل على التعريف بهذين الرّحالتين وتحديد الظّروف الحافّة برحلتيهما إلى كلّ من: باريس ولندن .

المبحث الأوّل : حول المدنيّة (مفهومها، خصائصها ومقوّماتها)

I/ مفهوم المدنيّة:

1– لغة :

أ– الدّلالة العربيّة لمفهوم المدنيّة:

ورد في لسان العرب لابن منظور (630هـ–711هـ/1232م–1311م):" مَدَنَ بالمكان: أقام به ومنه المدِينةُ وهي الحصنُ يُبنى في أُصْطُمَةِ الأرضِ، وكلُّ أرضٍ بها حصنٌ في أُصْطُمَتِهَا فهي: مَدِينَةٌ والنسبةُ إليها : مَدِينِيٌّ والجمعُ مَدَائِنُ ومُدُنٌ، ويقال للرّجل: العالِمُ بالأمر، الفطنُ: هو ابنُ نَجْدَتِهَا وابنُ مَدِينَتِهَا وابنُ بَلْدَتِهَا، ابنُ مَدِينَةٍ: أي العالِمُ بأمرها. قال ابن خالويه: يقال للعبد "مَدِينٌ" وللأَمَةِ: "مَدِينَةٌ"، وقد فسّر قوله تعالى: "إنّا لَمَدِينُونَ " أي مَمْلُوكُونَ بعد الموت / ومَدَنَ الرّجلُ: إذا أتى المدِينةَ ." [1]

وقد ورد كذلك في « قاموس محيط المحيط » لبطرس البستاني (1819م – 1883م): "مَدَّنَ المِدَائِنَ تَمْدِينًا: مَصَّرَهَا وبناها، وتَمَدَّنَ الرّجلُ : تخلّق بأخلاق المُدُنِ وانتقل من حالة الخشونة والبربريّة والجهل إلى حالة الظُّرف والأُنس والمعرفة، وتَمَدَّنَ الرّجلُ: تنعّمَ.« [2]

اعتبر ابن خلدون (732هـ–808هـ/1332م–1406م) أنّ العمرانَ والتَّمدُّنَ من الخصائص التي يتميّز بها الإنسان عن سائر الحيوانات وعرّفه بأنه ":**التّسَاكُنُ والتّنَازُلُ في مِصْرَ أو حِلَّةٍ للأنْسِ بالعَشِيرِ، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التّعاون على المعاشِ**".[3] كما يربط ابن خلدون بين ضرورة الاجتماع الإنسانيّ والمدنيّةُ المؤدّية إلى العمران إذ يقول" :**ويُعبّر الحكماءُ عن هذا بقولهم: الإنسانُ مدنيّ بالطّبع، أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المَدَنِيّةُ في اصطلاحهم، وهو معنى العمران.**" [4]

كما يعتبر ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني الذي يتم به عمران العالم دليل على كمال الوجود البشري وتحقيق لخلافة الله في الأرض وترويضٌ وتجاوزٌ للطّباع الحيوانيّة القائمة على العدوان والظلم.[5] ويرى أن سُكنى المدن مرحلة راقية من التحضّر تتناقض مع البداوة والتّرحال. " **إنّ البناء واختطاط المنازل إنّما هو من مَنازِعِ**

---

[1] محمد بن منظور، لسان العرب، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ج 6 ،صص:4160-4161.

[2] بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1993)، ط 2، ص:843.

[3] عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (دمشق: دار يعرب، 2004) ،تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ط 1، ج 1، ص:132.

[4] المصدر نفسه، ص: 137.

[5] م. ن، ص: 138.

الحضارة التي يدعو إليها التّرفُ والدّعةُ، وذلك مُتأخّر عن البَداوَةِ ومَنازِعِهَا." [1]

نلاحظ من خلال هذا اختلاف الباحثين حول تحديد الجذر اللّغويّ لكلمة " مَدَنِيَّةٌ " فيرجعها البعض إلى " مَدَنَ" بمعنى: أقام في المكان، بينما يرجعها البعض الآخر إلى: دَانَ وتعني: خضع وأطاع، وأيّا كان مصدرها فقد اقترن اللّفظ بتأسيس الدّولة الإسلاميّة وارتبط بما يعنيه ذلك من دلالات الطّاعة والخضوع والانضباط والتنظيم.

ب/ الدّلالة الأصليّة لمصطلحcivilisation" :" في الفكر الأوروبيّ :

إنّ لفظة " مدنيّة " تُعدّ ترجمة للمصطلح الأوروبيّcivilisation) :) وهذا المصطلح مأخوذ من مفهوم الكلمة اللاّتينيّة (civites) بمعنى (مدينة)، أو(civis) بمعنى: ساكن المدينة أو (civilis) بمعنى: مَدَنِيٌّ أو ما يتعلّق بالمدينة، فالمقصود بهذا المفهوم في جوهره يدور حول نمط حياة المدينة وكلّ ما يتعلّق بها من قيم وسلوكيّات ونظم ومؤسّسات.

2- اصطلاحا:

إنّ مفهوم مصطلح "المدنيّة" مرتبط بالسّياق التّاريخيّ الذي ظهر فيه وجرى استعماله، فمنذ أوائل القرن التاسع عشر نلاحظ توجّها نحو ترجمة مفهوم (Civilisation) إلى لفظ "مدنيّة" حيث تُرجم في عهد محمّد علي باشا كتاب "إتحاف الملوك الألباب بسلوك التمدّن في أوروبا" كما استخدم رفاعة الطّهطاوي في كتابه " مناهج الألباب المصريّة " مفهوم التمّدن في التعبير عن مضمون المفهوم الأوروبي ومشيرا إلى وجود بعد التمّدن في الدّين والشريعة، ولكن منذ النّصف الثاني من القرن العشرين أخذت المعاجم والقواميس بترجمة مصطلح (Civilisation) إلى لفظة: حضارة، ورغبة منّا في الارتباط بالسّياق التّاريخي للبحث الذي يهتمّ بخصائص المدنيّة في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر، سنعتمد مفهوما موّسعا للمدنيّة باعتباره مرادفا لمصطلح حضارة: (Civilisation).

تنبّهت النّخبة التونسية الإصلاحية كذلك منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى وجود بعد التمدّن في الدين والشريعة، إذ يعتبر الأستاذ فتحي القاسمي أن الشيخ محمد بيرم الخامس (1840م– 1889م) قد تعامل مع مفهوم التمدّن باعتباره يرتبط ارتباطا وثيقا بالأصالة والاعتزاز بالانتماء الدّيني واللغوي والحضاري والاعتداد بالوطنية دون تقليد أخرق للغرب، والاكتفاء بالاقتداء به في إجادة الأعمال وضبط الأحوال والاقتصاد في الأموال والصدق في المقال والمحافظة على آثار الأسلاف والثبات على الجِدّ وتقديم منفعة الوطن. كما أشار إلى تفطن الشيخ بيرم إلى عالمية وشمولية

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون. مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص: 8.

مفهوم التمدن. " **وما التمدّن إلا فعل كل ما من شأنه أن يؤلّف بين الناس ليكونوا كسكّان مدينة واحدة يهمّ أحدهم ما يهمّ الجميع ومنفعة الجميع** ".[1]

نلاحظ كذلك توارد نفس هذا المعنى لدى المصلح والمفكر التونسي محمد البشير صفر (1865م – 1917م) إذ يذكر في مقاله (أحوال المغرب): " **وهل التمدّن في هذا العصر إلاّ نشر المعارف وإجراءُ العدل والحرية والسّعي في إتقان كلّ شيء وهو نفس ما تُوجبه الشريعة الإسلامية.**"[2]

ويربط محمد القروي[3] بين التمدّن والحضارة ومكارم الأخلاق ويعطيه بعدا إنسانيا يرتقي بالإنسان في سلّم الكمال ":**التمدّن كما لا يخفى مشتقّ من المدنيّة، فهو عبارة عن استجماع شروط الحضارة والتهذيب ومكارم الأخلاق وممارسة العلوم وكل ما يزيد في كمال الإنسان ويبعده عن الشّرور والمعايب وسائر أوصاف المتوحشين.**" [4]

ارتبط مفهوم "المدنيّة" بمصطلح: "دولة المدينة"[5] (citystate) وهو مصطلح سياسي يقترن عادة بمدينة قدماء اليونان (polis /مدينة – دولة) التي كان يغلب عليها طابع المركز المحاط بمنطقة ريفيّة على طابع المدينة بالمعنى المفهوم اليوم، ومنذ بداية ظهور الدّين الإسلاميّ نجد بروزا وتبلورا لمفهوم "دولة المدينة" إذ تحوّلت "يثرب" إلى عاصمة حقيقيّة للمسلمين يحكمها دين وسلطان موّحد، وتعتمد دستورا ينظّم شؤونها والعلاقات بين سكّانها (دستور المدينة) فأصبحت بالتالي ظاهرة مميّزة عن باقي أوجه الاستقرار البدويّ والقرويّ في تلك المنطقة.

وقد وجدت " دُول المدينة " في أوروبّا في القرون الوسطى ولعلّ من أهمّها: جمهوريّة "البندقيّة" لما تميّزت به من توّسع تجاريّ ورخاء اقتصاديّ، ولكن في هذه المرحلة – ما قبل الصّناعيّة – لم يحدث تطوّر كبير في الظاهرة المدنيّة لأنّ أغلب المدن الأوروبيّة تمركزت حول نواة مركزيّة هي " الكاتدرائيّة " واتخذت طابعا دينيّا وعسكريّا منغلقا (القلاع والحصون والأسوار) ولكن مع قيام الثّورة الصّناعيّة وقع الانتقال إلى مرحلة " المدينة الصّناعيّة " فقد كثرت المصانع واتسّعت المدن الأوروبيّة وانفتحت أمام عدد كبير من العمّال والسّكان بعد انتقالهم من الأرياف والقرى، هذا الاحتكاك والتعايش اليومي في المدينة سيؤدّي إلى ظهور مفهوم "المدنيّة " وازدهاره وتبلوره.

وقد ورد في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة في تفسير لفظ المدنيّة »:**هي الإسم الذي يُطلق على نمط الحياة في**

---

[1] فتحي القاسمي، "الشيخ المصلح محمد بيرم الخامس (1840 – 1889)" ،الحياة الثقافية، العدد: 180، (تونس: 2007) ،ص:100.

[2] محمد البشير صفر، مقالات في الإصلاح، (تونس: مطبعة المغرب للنشر، 2004)، تحقيق: علي العربي، ط 1، ص: 171.

[3] محمد القروي: (1847 – 1941) تخرج من مدرسة "باردو العسكرية" وتولى مناصب هامة في الدولة.

[4] محمد القروي، حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، سنة: 1984)، تحقيق: الشاذلي بويحي، ص: 54.

[5] فرانك بيلي، معجم بلاكويل للعلوم السياسية، (دبي-الإمارات العربية المتحدة، د.ط، 2004)، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، ط1، ص: 356.

المدينة، مع كلّ ما يستلزمه هذا النمط من الإنشاءات الماديّة والفكريّة والتنظيميّة وكلّ ما ينجم عنه من علاقات وتراكيب لا تعرفها حياة الترحّل أو حياة الرّيف »[1] فالمدنيّة بهذا الشّكل هي كلمة تستخدم للدّلالة على مجموعة من الأشكال والوسائل الماديّة المستخدمة في شؤون الحياة أو للدّلالة على المستوى الذي وصلت إليه البشريّة في المجال التقنيّ والصناعيّ والفكريّ، كما ورد في نفس المرجع أن:« **هناك تجليّات معيّنة للحياة الاجتماعية، تسمّى: ظهورات مدنيّة. وتتحقّق التجليّات المعتبرة مدنيّة في: مؤسّسات الدّولة، الجهاز القضائيّ، الجيش، أو تتجسّد في أعمال عينيّة: العمارات، الرّوائع الفنيّة ، المنشآت الإنتاجيّة** ».[2]

كما أنّنا نجد في الموسوعة السّياسيّة للدّكتور عبد الوهّاب الكيّالي تعريفا جامعا لمفهوم الحضارة فيه امتزاج وتداخل بين مفهومي: المدنيّة والحضارة إذ يقول في تعريفه لكلمة حضارةcivilisation)) إنها " مشتقّة من التحضّر والتمدّن (من الحضر والمدنيّة) وهي مجموعة المنجزات الفكريّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والصناعيّة التي يحقّقها مجتمع معيّن في مسيرته لتحقيق الرقيّ والتقدّم«.[3] فالمدنيّة بهذا الشكل هي نتاج للتطوّر الإنسانيّ والحضاريّ ودرجة رفيعة من التقدّم البشريّ وهي ظاهرة إيجابيّة مقابل الظواهر المتخلّفة وغير المدنيّة.

وقد ورد في الموسوعة العامّةEncyclopaedia Universalis)):« **إنّ كلمة حضارة قد وظّفت بمعاني متنوّعة وفي بعض الأحيان غامضة وغير دقيقة، وبصفة عامّة يمكن أن نصنّف هذه المعاني في فئات ثلاث: أوّلا يرتبط مصطلح «حضارة» بحكم قيميّ يصف إيجابيّات مجتمعات معيّنة ويفترض بصفة ضمنيّة وجود مجتمعات غير متحضرّة أو متوّحشة. ثانيا: تعتبر الحضارة وجها ثابتا ومؤكّدا للحياة الاجتماعية حيث توجد تجليّات ومظاهر للوجود الجماعي يمكن تسميتها: ظواهر الحضارة، وعندما تتحقّق وتتجسّم في مؤسّسات وإنتاجات تسمّى: آثار الحضارة أو الآثار الفنيّة للحضارة وأخيرا: فكلمة "حضارة " تنطبق على مجموعة من الشعوب أو المجتمعات التي بلغت درجة راقية من التطوّر وتشترك في مجموعة من الخصائص المميّزة. ومن خلال كلّ هذه المعاني تبدو الحضارة كنموذج مخصوص للثقافة أو كوجهٍ من وجوهها.** » [4]

ويعتبر تايلور (Tylor) أنّ كلمة ثقافة أو حضارة عندما تؤخذ في معناها الأتنوغرافي الواسع تتضمّن في الوقت نفسه: العلوم والمعتقدات والفنون والقوانين والعادات والملكات والكفاءات المكتسبة من طرف الإنسان

---

[1] معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، (بيروت/معهد الإنماء العربي: مكتبة مؤمن قريش، 1986)، ط 1، ج 1 ،ص: 736.

[2] المرجع نفسه، ص: 737.

[3] عبد الوهّاب الكيّالي، موسوعة السياسة، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981)، مراجعة: رشاد بيبي ومنير حمودة، ط 1،ج 2، ص: 549.

[4] Encyclopaedia Universalis. Paris : 1990، Corpus 5، p : 947.

في الحالة الاجتماعية، كما ميّز بين ثلاث درجات من تطوّر المجتمعات: حالة التوّحش، حالة البربريّة وحالة الحضارة، ومن جهة النظر هذه فإنّ الحضارة ليست ممتزجة بالثقافة ولكنّها تتطابق مع نموذج راق ومتطوّر من الثقافة. [1]وقد ورد في موسوعة علم الاجتماع للدّكتور إحسان محمّد الحسن في تعريف مصطلح مدنيّة »:**نعني بهذا الاصطلاح مجموعة الصّفات الوديعة والرّقيقة والفاضلة التي يحملها الإنسان أثناء تصرّفه وعلاقته مع الآخرين** ».[2] فالمدنيّة بهذا الشكل تتمثّل في قدرة الإنسان على ترويض شهواته وأهوائه وتهذيب سلوكه حتى يكون قادرا على التعامل الاجتماعي الإيجابي مع الآخرين.

كما اعتبر الدكتور إحسان محمّد الحسن في موسوعة علم الاجتماع أن اصطلاح "مدنيّة" يتميّز بالتطوّر والثّراء وقد بدأ حديثا يستقرّ وتتضح معالمه ليعني جميع الظواهر الماديّة والأخلاقيّة التي تميّز المجتمعات الحضريّة والصناعيّة المعاصرة ومجموعة الإنجازات التي تميّز طابع الحياة في المدينة وجميع المبتكرات التي اهتدى إليها الإنسان منذ بداية وجوده، وبمعنى أشمل تعني المدنيّة نموّ فروع المعرفة وتقدّم سبل السّيطرة على القوى الطّبيعيّة بطريقة منتظمة ومتماسكة تقوم على التراكم الكيفي والكمّي وتنتقل من شعب إلى آخر. ويميّز إحسان محمّد الحسن بين اصطلاح المدنيّة واصطلاح الحضارة رغم العلاقة المتينة التي تربط بينهما حيث يقول »:**فالحضارة هي ذلك الكلّ المعقّد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات التي اكتسبها الإنسان من مجتمعه، أمّا المدنيّة فهي جميع المنجزات أو مجموعة الإنجازات التي تميّز طابع الحياة في المدينة المنّظمة أو الدّولة المنّظمة، غير أنّ الاصطلاح تشعبّ وأخذ يشمل جميع الإنجازات التي تميّز الإنسان عن الحيوان، أي جميع المبتكرات التي اهتدى إليها الإنسان منذ مئات الألوف من السّنين هي: المدنيّة** ».[3]

II–خصائص المدنيّة:

1) الخصائص السّياسيّة:

إنّ من أبرز الخصائص السّياسيّة للمدنيّة هو ضمان حقّ المواطنيّة أو المواطنة(citizenship) [4] بمختلف أشكالها، إذ نجد أوّلا حق المواطنة المدنيّة وتتمثّل في الإقرار بأنّ النّاس جميعا متساوون أمام القانون وتضمن حريّة التعبير وحقّ الملكيّة وحصانة كلّ شخص من الاعتقال التعسّفي. ونجد ثانيا حقّ المواطنة السّياسيّة ويتجلّى في حق

---

1) Tylor, Edward Burnett. Primitive culture, Cambridge university Press, 2012, P: 99, Part I.

2) إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، (بيروت: الدّار العربيّة للموسوعات، 1999) ،ص : 586.

3) المرجع نفسه، ص: 586.

4) فرانك بيلي، معجم بلاكويل للعلوم السياسيّة، ص: 358.

الانتخاب وحق كلّ مواطن في أن يرّشح نفسه وأمّا ثالثا فنجد حقّ المواطنة الاجتماعيّة التي تضمن: حق التعليم والخدمات الاجتماعية وقدر كاف من الرّفاه الاجتماعي والاقتصادي لكلّ مواطن. ويرتبط مفهوم المدنيّة من الناحية السياسيّة ارتباطا وثيقا بالنظام الديمقراطي حيث يقع تجاوز مفهوم "الرّعايا" الخاضعين للقوانين إلى مفهوم "المواطن" الذي يمتلك حقوقا وعليه واجبات ويمكن له المشاركة والانخراط في الحياة السّياسيّة.

2) الخصائص الاجتماعيّة:

تتمثّل في العادات والتقاليد وطرق وأساليب تنظيم وتسيير الحياة الخاصّة والعامّة للأفراد والمجتمعات وتتّصف المدنيّة بطابعها العقلاني العلمي والوظيفي وحسب ما ورد في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة »:**كلّ ما من شأنه أن يزيد في سيطرة المجتمع على شروط وجوده الموضوعيّة، وبتعبير أدقّ على الناحية العقلانيّة** ».[1]

كما تتميّز المدنيّة بطابعها الحركيّ الفاعل في بنية الحياة الاجتماعيّة بهدف النّقد والتجديد والتّطوير فالمدنيّة بهذا الشكل هي العنصر الفاعل في الحضارة الذي يمنحها القدرة على التفاعل مع الحضارات الأخرى ممّا يحقّق لها التجدّد والتطوّر والاستمرار. وتتميّز كذلك بطابعها الشّمولي إذ يمكن اعتبارها » **نمطا من الحياة الاجتماعيّة له خصائص معلومة مشتركة بين عدد من الشعوب التي تستمدّ من هذه الخصائص شخصيّتها الخاصّة وفعلها التاريخي** ».[2] فهي بهذا الشكل ظاهرة إنسانيّة عالميّة تدلّ على درجة رفيعة من التقدّم والتنظيم:« **فالظّاهرة المدنيّة ذاتها تتوطّن في كنف حضارات متمايزة** ».[3]

3) الخصائص العلميّة:

تتجلّى في التطوّر العلميّ والتكنولوجي وما يفرزه هذا التقدّم من منجزات في مختلف ميادين الحياة: الصناعيّة والاقتصاديّة والعمرانيّة من علوم وتقنيات وتنظيمات ومنشآت وعمران وهي « منتجات مدنيّة » قابلة للنّقل والتّشارك بين الحضارات المختلفة لأنّها نتاج للعقلانيّة والمنطق، ومظهر بارز لقدرة الإنسان على السّيطرة على الطّبيعة والمادّة وتطويعها وتنظيمها وفقا لأهدافه ومصالحه، ويمكن اعتبارها إرثا إنسانيّا يتطور عبر التّجارب والتراكم الكمّي والنّوعيّ وينتقل بين الحضارات المختلفة والمتعاقبة عبر التّثاقف والتواصل والاقتباس.

---

[1] معن زيادة. الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، ص: 737.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] م. ن، ص: 738.

III– مقوّمات المدنيّة:

*** المعايير التطوّريّة: (critères évolutifs).** [1]

عندما نعتبر أنّ المدنيّة والحضارة سِمة ومظهر لدرجة من التطوّر الرفيع والراقي للإنسانيّة يجب أن نحدّد معايير ومقاييس معيّنة تمّكننا من تصنيف الشعوب والمجتمعات إلى: مُتمدّنة وغير مُتمدّنة أو مُتحضّرة وغير مُتحضّرة.

1) – التحضّر والتعقيد: (complexité et urbanisation)

يمكن أن نصنّف مجتمعا معيّنا بأنّه متحضّر عندما يبلغ درجة من التعقيد والتنوّع والتّغاير بين فئاته وأعضائه وبالتالي يجب أن يتجاوز حجمه الخليّة الاجتماعيّة الأوّليّة البسيطة مثلما يوجد في القبيلة أو العشيرة، وقد ورد في موسوعة علم الاجتماع أنّ التحضّر:« **هو نمط من أنماط التغييرات الاجتماعيّة والثقافيّة التي تطرأ على الوافدين إلى المدينة فتعدّل سلوكهم وقيمهم وأساليب حياتهم بما يتفقّ وظروف البيئة الحضريّة. وتتمّ عمليّة التحضّر من خلال حدوث ثلاثة أنماط من التغييرات في حياة النّاس وهي:**

1– انتقالهم أو حركتهم من القرى والأرياف إلى المدن.

2– تكييفهم لأنماط الحياة الاجتماعيّة السائدة في المدن .

3– تغيير مهنهم من الزراعة إلى الصّناعة والتّجارة والخدمات ».[2]

بناء على ذلك فإنّ التحضّر عمليّة تغيير ماديّ ومعنويّ يخضع لها الوافدون إلى المدن فتكيف سلوكيّاتهم وعادتهم وأخلاقهم وتجعلهم يتقبّلون أسلوب الحياة وأنماط العلاقات الاجتماعيّة الموجودة فيها، كما يستلزم التحضرّ الانقياد والالتزام بالقوانين المدنيّة والتنظيم ضمن مؤسّسات وتشكيلات اجتماعيّة وسياسيّة جديدة وضعت لتنظيم وتسهيل العيش المشترك داخل المدينة. وإذا كانت "الحضريّة"[3] ثابتة فإنّ "التحضرّ" عمليّة ديناميكيّة متطوّرة لا تتوّقف عند حدّ الانتقال للسّكن والعيش في المدينة بل تستمرّ نتيجة الاحتكاك والتفاعل بين الحشود في المدينة لتُنتج تغييرات فكريّة واجتماعيّة جديدة. لقد بدأ فجر الحضارة يتجلّى في التّاريخ الإنسانيّ مع ظهور المدن الأولى في العالم في بلاد العراق ومصر والهند حيث بدأت الحضارة الحقيقيّة تتفتّح وتزدهر، لأنّه في المدن وحدها يتحقّق تجمع وتركيز واحتشاد الطاقة كما تنتظم الهياكل الاجتماعيّة والاختصاصات الوظيفيّة التي تجعل الابتكار والاختراع

---

1) Encyclopaedia Universalis .P: 948.

2) إحسان محمّد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ص: 587.

3) الحضريّة: عمليّة الانتقال من المجتمع الريفيّ إلى المجتمع الحضريّ.

والتقدّم التقنيّ والفكريّ ممكنا ومتاحا، إذ يسود داخل المدن نشاط فكريّ وعلميّ تقوده نخبة فكريّة تسعى إلى الابتكار والتجديد .

2)– التقنيات:

إنّه لمن المنطقيّ أن نربط ميلاد الحضارات بالتغيّرات العامّة للتوّجه الذي نشأ حينما توّقفت الإنسانيّة عن الاكتفاء باستعمال الوسائل التي تمنحها لها الطبيعة بصفة مباشرة (الصّيد، قطف الثّمار) لتحاول تسخير الطبيعة بأساليب اصطناعيّة مختلفة (تربية الماشية، الزراعة، الفلاحة)، وقد أدّى هذا التطوّر الفلاحي والتبادل التجاري وتراكم الإنتاج إلى ظهور طبقات اجتماعيّة جديدة أنتجت حسب ماركس وأنجلس تطوّرا اقتصاديّا سيؤدّي إلى تعقّد التقنيات التي تعدّ العناصر الحيويّة للحضارة وقد أفرز هذا التطوّر التقنيّ ظهور مفهوم حديث وهو مفهوم التصنيع (Industrialization) ويعني حسب "موسوعة علم الاجتماع":« **تقدمّا تكنولوجيّا يستعين بالعلوم التطبيقيّة، ومن خصائصه توسيع الإنتاج على نطاق ضخم باستخدام الأنماط التكنولوجيّة الحديثة** ».[1] وقد يعني التصنيع كذلك حسب نفس المرجع:« **توّسع القاعدة الصناعيّة وزيادة الإنتاج الصناعيّ في مجتمع كان بالأساس يعتمد على المهنة الزراعيّة وما يترتب على هذا التوّسع والنموّ الصّناعيّ من تحوّلات ماديّة واجتماعيّة وحضاريّة وفكريّة تنتاب بنية المجتمع ومؤسّساته الوظيفيّة** ».[2]

فالتّصنيع إذن هو ظاهرة اقتصاديّة عقلانيّة لها نتائجها الاجتماعيّة والحضاريّة، تعتمد على مبدأ تقسيم العمل والتخصّص فيه وكذلك استعمال الآلات والاعتماد على الطاقة الميكانيكيّة والوسائل العلميّة والتنظيميّة ويبدو من خلال هذا أن تطوّر التقنيّات والقدرة على التحكمّ بالطبيعة من المقوّمات الأساسيّة للمدنيّة من أبسط أشكالها إلى أكثرها تعقيدا.

3)– العوامل الفكريّة والأخلاقيّة:

يبدو أنّ هناك علاقة جدليّة بين التطوّر التقني والارتقاء الفكريّ فكلاهما مؤثّر ومتأثّر: لأنّ التطوّر التقني يعتبر نتيجة للارتقاء الفكري كما أن التطوّر التقني يساهم بدوره في تحقيق الرّفاه الاقتصادي وتكوين نخبة فكريّة متحرّرة من حاجة توفير أسباب العيش ومتفرّغة للتفكير والإبداع. وقد ساهمت هذه النخبة الفكريّة عبر التاريخ الإنسانيّ في تحقيق إنجازات فكريّة وفلسفيّة وفنيّة متنوّعة ستمهّد للاكتشافات والاختراعات العلميّة. وزيادة على العلوم والتقنيات يمكن أن نضيف الآثار الفنيّة الأخرى للحضارة وخاصّة الفنون والتنظيم السّياسي والقانوني

---

[1] إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ص: 588.

[2] المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

والدّيني، وهي أشكال من التنظيم تدّل على تفكير ووعي حضاريّن وتعتبر مقاييس ومعايير مهمّة لتحضّر والتمدّن.كما أنّ المدينة تنتج عادات سلوكيّة وأخلاقيّة وقيميّة وأسلوب حياة مخصوصا يعكس أنماط العلاقات الاجتماعيّة السّائدة فيها ويستدعي ضرورة الخضوع إلى قوانين وأنظمة مؤسّساتها وتشكيلاتها الاجتماعيّة والحضاريّة، وبذلك يمكن أن نعتبر عمليّة التعديل والتكيّف السلوكي لسّكان المدينة معيارا مهمّا من معايِير التمدّن والتحضّر.

المبحث الثاني: الرّحلة والآخر

تعتبر الرّحلة وسيلة هامّة من وسائل التواصل الحضاري بين الشعوب والثقافات وهي الأداة الثقافية والسبيل المعرفي الذي سمح بكسر الحواجز بين البلدان فقرّب بين الحضارات، وحقّق التواصل بين الشعوب لأنّ :« **الأمم والحضارات لا يمكن أن تنغلق على نفسها، ولا يمكنها أن تعيش بمنأى عن غيرها مهما بلغت قوّتها وتوّسع سلطانها المادّي والفكريّ** ».[1]

ولعلّ سرّ قوّة الرّحلة يكمن في قدرتها على الذّهاب إلى ينابيع المعرفة والمشاهدة والمعاينة المباشرة دون التعويل على السّماع والنقل، فيتّحقق اليقين لدى الرحّالة وتنتفي الشكوك والأوهام، ونتيجة لذلك تبوّأت الرّحلة مكانة هامّة في التّاريخ العربيّ الإسلاميّ قديما وحديثا لأنّها ساهمت في بلورة ونحت صورة الآخر في الوعي العربيّ الإسلاميّ .

كما تعدّ الرحلات اكتشافا للعالم وللإنسان وهي تضيف إلى حياة الفرد حيوات كثيرة وخبرات عديدة وتساعد على التقريب بين الشعوب وترسيخ مفهوم وحدة البشر على الأرض ».**إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان. فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة، كما تساعده، ولا شك على تقييم نظم وتقاليد بلده وموطنه.**» [2]

1- الرّحلة قديما:

لو تأملنا في موروثنا الحضاري العربي الإسلامي لوجدنا قيما دينيّة وثقافيّة تشجّع على السّفر والتّرحال والاكتشاف، يقول تعالى ﴿**:قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقُ**﴾.[3] وفي هذا السّياق يعتبر الدّكتور لطفي دبّيش أنّ التصوّر الكوني للإنسان والعالم المنبثق من الإسلام حرّر الإنسان العربيّ/ المسلم من قيود الخوف من المجهول والتّيه وشجّعه على التّرحل والسّعي في الأرض للسياحة والاكتشاف والتّجارة. [4] قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾.[5] فالأرض في المفهوم الإسلامي مسخرّة

---

[1] لطفي دبّيش، التواصل الحضاري في الثقافة العربيّة الإسلاميّة ،(تونس: مركز النشر الجامعي، 2010) ،ص: 1.

[2] حسين محمد فهيم. أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد: 138، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سنة: 1989) ،ص: 17.

[3] سورة العنكبوت، آية: 20.

[4] لطفي دبيش، التواصل الحضاري في الثقافة العربية الإسلامية، ص: 30.

[5] سورة الملك، آية: 15.

ومذلّلة للإنسان، وهو مطالب بالسّعي والسّير في أرجائها واكتشاف أنحائها وآفاقها. ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ** ﴾.[1] كما أنّ توسّع الدّولة الإسلاميّة مشرقا ومغربا وبسط نفوذها على بلدان وشعوب وثقافات متعدّدة ومتنوّعة جعل الحاجة ملحّة لمعرفة واكتشاف هذه البلدان التابعة للعالم الإسلامي وكذلك فإنّ الدّولة الإسلاميّة بحكم نموّها المتسارع، وتحوّلها إلى إمبراطوريّة ضخمة اتسّع مجالها الحيويّ وامتدّ في كافّة أرجاء العالم المأهول فصارت في حاجة إلى تأمينه والسّيطرة عليه من خلال الرّحلات الاستكشافيّة والبعثات الدبلوماسية.

منذ القرن الرّابع للهجرة انطلق الرحّالة العرب في السّفر والتّرحال وتتالت رحلاتهم تجوب أنحاء العالم، وقد تعدّدت أهدافها وتنوّعت: من أهداف دينيّة تتّصل بنشر الدّين الإسلامي والدّعوة إليه، إلى سياسيّة وتمثّل في البعثات الدبلوماسية وأعمال السّفارات والجوسسة والاستعلام الأمني وكذلك أهداف اقتصاديّة تتمثّل في التّبادل التجاري وسياحيّة تهدف إلى التّرفيه عن النّفس واكتشاف المميّزات الثقافية والاجتماعيّة والحضارية للشعوب الأخرى وسنذكر فيما يلي نماذج من هذه الرّحلات.

– رحلة ابن فضلان (عاش في مطلع القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي ولا يعرف بالضبط تاريخ ولادته أو وفاته):

انطلقت من بغداد سنة (309هـ/921م) في اتجاه بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة، وقد مرّت بعديد المدن والمواقع نذكر منها: إقليم الجبال فهمذان فالريّ ونيسابور ومرو وعبرت نهر حيحون إلى خوارزم فبلغت بخارى ووصلت إلى حوض الفولقا[2] ،وقد ساهمت هذه الرّحلة في اكتشاف مناطق كانت مجهولة مثل بلاد البلغار وبلاد الرّوس.[3]

– رحلة سلاّم الترجمان (عاش في القرن الثالث هجريا والتاسع ميلاديا) :

وهو رحّالة كلّفه الخليفة العبّاسي "الواثق بالله" في القرن الثّالث هجريا/التّاسع ميلاديا بالقيام برحلة استكشافيّة، سعت إلى استكشاف الثّغور الشماليّة للدّولة المركزيّة ببغداد (تقصّي أمر يأجوج ومأجوج) وقد عبر فيها "سلاّم الترجمان" بلاد القوقاز وأرض الخزر متّجها صوب الشرق، ثمّ مرّ في طريقه على "برسخان" و"طراز"

---

1) سورة الإسراء، آية: 70.

2) مناطق تقع حاليا في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى.

3) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012) ،ص:24.

و"سمرقند" راجعا إلى "خراسان".[1]

– رحلة الغرناطيّ (أبو حامد الغرناطي): (473 هـ – 565 هـ / 1080م – 1170م)

هو رحالة أندلسيّ ولد بغرناطة وقام بعدّة رحلات إلى إفريقيّة والإسكندريّة ودمشق وبغداد ومكّة وكذلك بلاد فارس وبلاد البلغار وبلاد الصّقالبة، وهو مستكشف جوّاب آفاق تقع رحلاته في إطار المعرفة وحبّ الاطّلاع.

– رحلة ابن بطّوطة : (703 هـ – 779 هـ / 1304م – 1378 م)

عاش ابن بطّوطة في القرن الثامن هجريّا الموافق لقرن الرابع عشر ميلاديّا وقد انطلق من مسقط رأسه بطنجة في المغرب ليقوم بعدّة رحلات إلى بلاد العرب (إفريقيّة، مصر، الشامّ، فلسطين، مكّة، العراق) وكذلك إلى بلاد العجم (القسطنطينيّة، خوارزم ،بخارى، أفغانستان الهند، الصّين) ثمّ إلى بلدان إفريقيا في اتجاه السّودان الغربي حيث زار "تمبكتو" و"غاو" وبلاد مالي و" تكدّا".[2]

لقد كانت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في هذه المرحلة في أوج قوّتها وازدهارها فتعاملت مع "الآخر،" من خلال هذه الرّحلات المتنوّعة، تعاملا حكيما وناضجا، إذ أنها تواصلت معه دون إحساس بالتفوّق أو شعور بالنقص والدّونيّة، فلم يهمشوا الخصوصيّات الحضاريّة والمعارف الذاتيّة لهذه الثقافات والشعوب، ولم ينبهروا بها، ويذوبوا فيها، بل رغبوا في تحصيل الاستفادة الحضاريّة وإثراء الثقافة الذاتيّة وتوسيع الآفاق المعرفيّة والعلميّة، شعارهم في ذلك أنّ:« **الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها** ».[3]

2– الرّحلة حديثا:

منذ القرن الرّابع عشر مرّت ظاهرة الرّحلة العربيّة الإسلاميّة بفترة ركود وجمود بسبب تراجع مكانة الحضارة العربيّة الإسلاميّة في العالم وانحسار نفوذها والتأخرّ العلميّ والفكريّ الذي أصابها في تلك الفترة. ولكن منذ أواخر القرن الثامن عشر. وإثر حملة نابليون على مصر سنة 1798م التي أحدثت صدمة نفسيّة وحضاريّة في الذهنيّة العربيّة بمدى التأخرّ والتخّلف مقارنة بالآخر(الغرب)، قوي اتصال المتفقين العرب بالحضارة الغربيّة وتزايد الوعي

---

[1] ا زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012) ،ص: 15.

[2] زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص: 101.

[3] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها ". المرجع: محمد بن عيسى بن سورة، الترمذي. سنن الترمذي، (تحقيق: محمد ناصر الألباني)، ط1، الرياض:مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،(د.ت)، ج 3 ،ص:2687.

بضرورة الخروج من بوتقة التخّلف والأخذ بأسباب التقدّم والتطوّر وقد تجلّى ذلك من خلال بعثات محمد علي باشا (من 1805 م إلى 1848 م) إلى أوروبا لاكتناه أسرار تقدّم الغرب وبناء دولة حديثة بمصر، ومنذ القرن التاسع عشر ازدادت رحلات العرب إلى الغرب وقويت وتيرتها بصفة تصاعديّة متطوّرة ويمكن أن نذكر أمثلة على ذلك.

– رفاعة بدوي رافع الطهطاوي(1801م – 1873م) :

تلقّى علومه في الأزهر. ثمّ رافق سنة 1826م بعثة علميّة إلى باريس ليكون مرشدها الدينيّ وقد أقام في فرنسا حتّى سنة 1831م ولخّص مشاهداته وانطباعاته الباريسيّة في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

– أحمد فارس الشدياق (1804م –1887م) :

تنقّل الشدياق بين أماكن ودول عديدة تركت آثارا واضحة في حياته وشخصيته بأبعادها الثقافية والدينية والفكرية. فقد درس مبادئ العلوم اللّسانيّة في مدرسة "عين ورقة" المارونيّة، ثمّ اعتنق البروتستانتيّة وتوّجه سنة 1825 إلى مصر حيث استوفى ما أتقنه من أصول العربيّة، بعد ذلك دعته الإرساليّة الأمريكيّة إلى مالطة سنة 1834 فعلّم اللّغة العربيّة وتولّى إدارة المطبعة الأمريكيّة، وأقام في مالطة حتّى 1848. وقد سجّل مشاهداته وانطباعاته هناك في كتابه " الواسطة في معرفة أحوال مالطة " وقد كتبه سنة 1840 ثمّ دعي إلى أنجلترا لتعريب الكتاب المقدّس، فسافر إليها سنة 1848 مارّا في طريقه بفرنسا. زار الشدياق تونس وأقام فيها سنة 1841 بدعوة من أحمد باشا باي تونس (1806- 1855) حيث لقي حظوة وتبجيلا كبيرين. وفي وصف رحلاته الأوروبيّة وضع سنة 1854:« كشف المخبّأ عن فنون أوروبا » وفصولا عدّة من سيرته الذاتيّة في كتابه «السّاق على السّاق فيما هو الفارياق» الذي طبع لأول مرة بباريس سنة 1855.

– خير الدّين التونسيّ (1810 م – 1890م) :

كان أول من التحق بالمكتب الحربي بباردو وقد درس به فنون الحربية واللغات. وبعد أن أصبح أحد أركان الجيش (أميرا للواء الخيّالة) ترك الجيش ليحترف السياسة، فأرسله أحمد باي تونس (1837-1855) إلى باريس سنة 1853 ليدافع عن مصالح الحكومة التونسيّة في الدّعوى التي كانت قد رفعتها على الجنرال "محمود بن عيّاد" الذي فر سنة 1852 بأموال تونسية في اتجاه فرنسا قيمتها ثمانون مليون ريال. وعاد "خير الدين" إلى تونس سنة 1857 ثمّ استقال من منصبه السّياسي سنة 1862، إلاّ أنّ الباي أوفده في مهمّات مختلفة إلى بلاطات ألمانيا وفرنسا وأنجلترا وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندة والدنمارك وبلجيكيا، وبفضل إقامته الطّويلة في فرنسا

ورحلاته العديدة إلى أوروبا تمكن من دراسة أسس المدنيّة الأوروبيّة، وبعد اعتزاله الحياة السياسيّة وضع مؤلفه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، مستعينا في تحرير نصه العربي بالشيخين: سالم بوحاجب ومحمد بيرم الخامس.

– محمد بيرم الخامس: (1840 م – 1889م)

ولد بمدينة تونس في مارس سنة 1840 في أسرة اشتهرت بالعلم والجاه والمال وقد حرصت على تعليمه على أيدي أبرز مشايخ الزيتونة، كشيخ الإسلام: الشيخ محمد معاوية والشيخ الطاهر بن عاشور. وقد أشرف محمد بيرم الخامس خلال وزارة خير الدين باشا على جمعية الأحباس منذ عام 1874 وساهم في تنظيم التعليم بالمدرسة الصادقية عند تأسيسها سنة 1875 وكذلك في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة وفي إصلاح المحاكم الشرعية وقد كلفه خير الدين باشا منذ عام 1875 بإدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي. وقد عرف الشيخ محمد بيرم الخامس بأنه مؤرخ رحّالة فقد زار أوروبا مرارا واطلع ميدانيا على معالم نهضتها وآليات تمدنها، ثم هاجر إلى الأستانة وانتقل منها إلى مصر حيث توفي سنة 1889. وقد أورد أهم رحلاته في مصنفه " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار."

– محمد السنوسي: (1851م – 1900م)

ولد محمد السنوسي بتونس في 18 سبتمبر 1851 ثم التحق بجامع الزيتونة وتتلمذ على أيدي أبرز أعلامه وشيوخه حتى تخرج وجلس للتدريس به سنة 1870 ولما ذاع صيته اختاره الباي محمد الصادق معلما لابنه. وقد تولّى العديد من المناصب الهامة في الدولة. فعين أولا كاتبا لمجلس جمعية الأوقاف. ثمّ محرّرا لجريدة الرائد التونسي وكاتبا للمجلس العقاري المختلط وقد عرف بنزعته الإصلاحية. وقام الشيخ محمد السنوسي بالعديد من الرحلات إلى أوروبا واسطنبول والحجاز وقد دون أهم رحلاته في مصنفيه: "الاستطلاعات الباريسية" و"الرّحلة الحجازية."

– محمد بن عبد الله الصفار الأندلسي التطواني: (توفي سنة 1298هـ / 1881م)

هو فقيه وكاتب مخزني وديبلوماسي مغربي ولد بتطوان (تاريخ مولده مجهول) وكان ضمن البعثة المغربية إلى فرنسا بعد الهزيمة القاسية التي تعرض إليها المغرب في معركة "إيسلي"[1] وقد أسند إليه السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام (1789م – 1859م) مهمة تربية أفراد الأسرة السلطانية وتعليمهم. وقد تولى منصب "الصّدر

[1] إيسلي: معركة قامت بالقرب من مدينة وجدة المغربية بين جيوش المغرب وفرنسا سنة 1844.

الأعظم"[1] سنة 1854 وكان أول من تقلد منصب وزير الشكايات في عهد السلطان محمد الرابع (1810م – 1873م) واستمر في هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 1881م. وقد تمت رحلته إلى فرنسا بين سنتي 1845 و1846 ودوّنها في مصنفه "رحلة الصفار إلى فرنسا."

[1] الصّدر الأعظم: الوزير الأول.

المبحث الثالث: الرحّالة في النصف الثّاني من القرن التّاسع عشر

(محمّد بن الخوجة وأبو الجمال الفاسي نموذجا)

لقد شهد القرن التّاسع عشر – كما أسلفنا الذكر – تزايدا سريعا في نسق الرّحلات إلى أوروبا بفعل الصدمة الحضاريّة التي أحدثتها حملة " نابليون" على مصر، فسعى الرحّالة العرب من خلال رحلاتهم الرّسميّة أو غير الرّسميّة إلى اكتناه أمر الآخر (الغرب) ومعرفة سرّ قوّته وتفوّقه الحضاري والعسكري، ومن ضمن كلّ هذه الرّحلات آثرنا – في بحثنا هذا – التركيز على الرّحلة المغاربيّة إلى أوروبا نظرا إلى خصوصيّة منطقة المغرب العربي في التعامل مع أوروبا قديما وحديثا وكذلك تنوّع العلاقات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة بينهما وشدّة التأثير والتأثّر عبر التّاريخ. [1]

اخترنا، في بحثنا هذا ،دراسة رحّالتين مغاربيّين قام كلاهما برحلة إلى أوروبا في الفترة الزمنيّة نفسها (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، وهما: محمّد بن الخوجة من تونس وقد قام برحلة إلى فرنسا وبالتحديد إلى مدينة باريس من خلال كتابه "سلوك الإبريز في مسالك باريز" وأبو الجمال الفاسي وهو مغربي قام برحلة إلى أنجلترا وبالتحديد إلى مدينة لندن من خلال كتابه "الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة" وسنعتمد في دراسة هاتين الرّحلتين منهجا مقارنيّا تحليليّا نقديّا وذلك لتبيّن مظاهر التماثل أو التباين والائتلاف أو الاختلاف بين الرحلتين إلى كلّ من فرنسا وأنجلترا في التعامل مع الآخر (الغرب) من وجهة نظر تونسيّة ومغربيّة، وكذلك نروم تبيّن مدى قدرة هذين الرحّالتين (ابن الخوجة والفاسي) على تمثل خصائص ومميّزات المدنيّة الأوروبيّة الحاضرة بقوّة في المجتمعين الفرنسي والأنجليزي ومواقفهما منها، ونرنو من خلال ذلك إلى تجلية مظاهر الصراع الثقافي والسياسي بين النموذج الفرانكفوني والنموذج الأنجلوفوني في الثقافة المغاربيّة، بما أحدثه من تأثيرات سياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة قديما وحديثا.

1– التعريف بمحمّد بن الخوجة:

هو مَحمّد (بفتح الميم) بن الشيخ "محمّد البشير بن شيخ الإسلام محمّد بن الخوجة"، ولد بمدينة تونس في شهر فيفري 1869 ،ينحدر أبوه من أسرة تركيّة عريقة استقرّت بتونس خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ميلاديّا، وأنجبت عددا وافرا من كبار الموّظفين والعلماء والفقهاء الذين تجاوزت شهرتهم حدود البلاد التونسيّة، وقد عُرفت "الأسرة الخوجيّة" بولائها للدّولة الحسينيّة. وقد درس ابن الخوجة بجامع الزيتونة، فالمدرسة الصّادقيّة. ثمّ بمعهد ترشيح المعلّمين (المعهد العلوي)، وبعد أن أتمّ دراسته، اختار الانخراط في سلك الوظيفة

---

[1] المساهمة الفاعلة لبلاد المغرب في فتح الأندلس وقيام الدولة المرابطيّة والموحّدية بها، وبالتالي التأثير في كلّ تاريخ أوروبا.

العموميّة، اقتداء بالفوج الأوّل من خرّيجي المدرسة الصّادقيّة. فتمّ تعيينه سنة 1887 مترجما بالكتابة العامّة للحكومة التونسيّة، ومن قسم الترجمة أنتقل إلى قسم المحاسبات الذي كان يشرف عليه صديقه البشير صفر[1]. وما لبث أن ارتقى إلى خطّة رئيس قسم المحاسبات عند انتقال البشير صفر إلى جمعيّة الأوقاف سنة 1892. وقد كان محمّد بن الخوجة يتميّز بثقافة واسعة وبقدرة على الاستيعاب وحبّ للنّظام والعمل، وبفضل جميع تلك الخصال لفت إليه انتباه رئيسه المباشر الكاتب العامّ برنار روا (B.Roy) [2] الذي كان معروفا بشغفه بالدّراسات الأدبيّة والبحوث التّاريخيّة والأثريّة فعيّنه عضوا في اللّجنة المكلّفة بتأليف "الفهرس العلمي" لمكتبة جامع الزيتونة. [3]

إلى جانب عمله في السلك الإداري، ساهم محمّد بن الخوجة مساهمة فعّالة في الحياة الثقافيّة والفكريّة، فكان من المؤسسين لأوّل جريدة عربيّة تونسيّة غير رسميّة وهي جريدة "الحاضرة" التي صدر العدد الأوّل منها في 2 أوت 1888 بإدارة علي بوشوشة[4] وبمشاركة نخبة من رجال الفكر والأدب أمثال: البشير صفر والشيخ محمّد السنوسي[5] وعلي الورداني[6] والشيخ محمّد الحشايشي[7]. ولقد تخصّص محمّد بن الخوجة منذ ذلك الحين بالمباحث التاريخيّة تحت تأثير والده الشيخ البشير بن الخوجة المعروف بشغفه بالتّاريخ التّونسي، فكان ينشر"بالحاضرة" المقالات والفصول الواحد تلو الآخر لإحياء بعض الفترات من التاريخ التونسي الحديث والمعاصر، والتعريف بعدد من مشاهير التّونسين: القدماء والمحدثين.

كان محمّد بن الخوجة من أبرز المؤسّسين للجمعيّة الخلدونيّة [8] سنة 1896 وهي التي سعت إلى التعريف بالحضارة التّونسيّة العربيّة الإسلاميّة، وتدريس العلوم الصحية لطلبة جامع الزيتونة. وقد أصدر ابن الخوجة تقويما سنويّا سمّاه: "الروزنامة التونسيّة" وهي مجلّة استمرّت بالظهور كلّ سنة بانتظام من سنة 1902 إلى سنة 1918.[9]

في سنة 1908 شارك محمد بن الخوجة مع ثلّة من أعضاء" حركة الشباب التونسيّ"[10] في مؤتمر شمال

---

[1] البشير صفر) 1865 – 1917(: وهو أحد قادة الحركة الإصلاحية التونسية.

[2] برنار روا (Bernard Roy): مستشرق فرنسي عرف باهتماماته الأدبية وقد شغل منصب الكاتب العام للحكومة التونسية في فترة الحماية الفرنسية.

[3] علي العريبي. محمد بن الخوجة المؤرخ والرحالة ،(تونس: مطبعة أوربيس، 2011)، ط 1، صص: 7 -9.

[4] علي بوشوشة (1856- 1917): يُعدّ من طليعة الفوج الأول من الصادقيين وهو مؤسس جريدة الحاضرة.

[5] محمد السنوسي (1851- 1900): مفكر وكاتب ورحالة تونسي، وقد عرف بنزعته الإصلاحية.

[6] علي الورداني (1860- 1914): أديب ورحالة تونسي، وكان من محرري جريدة الحاضرة.

[7] محمد الحشايشي (1853- 1912): شاعر وأديب تونسي، من خريجي جامع الزيتونة.

[8] ينظر: أطروحة الأستاذ فتحي القاسمي، الجدل الديني في تونس (1875- 1931) قراءة تحليلية نقدية، دكتورا دولة، إشراف: د.كمال عمران ، نوقشت في كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2004- 2005، صص:151-152.

[9] محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ،(بيروت: دار الغرب الإسلامي ،1982)، ط 1، ص: 248.

[10] ينظر: شارل أندري جوليان، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة، (تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع، 1985) ، ط 2، ص: 49.

إفريقيا المنعقد بباريس وقدّم بحثا حول القضاء الشرعي في الإسلام نال رضى كافة المؤتمرين وحالما رجع إلى تونس نقل ذلك البحث إلى اللّغة العربيّة ونشره في رسالة منفردة وردت في كتاب بعنوان: « بحث تاريخي يتعلّق بالقضاء الشرعي وخطّة شيخ الإسلام في تونس« [1]. وابتداء من منتصف سنة 1914 سمّي رئيسا لقسم التشريفات بقصر الباي ومترجمه الرسميّ وذلك بأمر من المقيم العامّ السّابع قبريال ألابوتيت (Gabriel Alapetit/1907- 1918) قصد تمتين الرّوابط بين قصر الباي والإقامة العامّة وبقي في هذا المنصب حتّى سنة 1919.

وفي هذه الفترة شارك ابن الخوجة في العديد من البعثات والرّحلات الدبلوماسية، ففي سنة 1916 سافر إلى المغرب الأقصى مبعوثا من طرف الناصر باي إلى سلطان المغرب مولاي يوسف[2] لتوطيد العلاقات بين البلدين. كما كان عضوا في الوفد الرّسميّ الذي مثّل الحكومة التونسيّة في حفلة افتتاح "جامع باريس" سنة 1926، وفي سنة 1920 دعي لتولّي مهام خطّة قائد (وال) بقابس فالكاف ثمّ بنزرت التي بقي بها عشر سنوات وأحيل على التقاعد سنة 1934، ونظرا لخدماته للدّولة سمّي مستشارا للحكومة التونسيّة وقد توفي سنة 1942. [3]

2- دواعي تأليف كتاب:« سلوك الإبريز في مسالك باريز»

سافر الوفد التونسيّ إلى المعرض الدّولي الذي أقيم في باريس سنة 1900 وكان على رأسه محمّد الهادي باي وليّ العهد ومن بين أعضاء هذا الوفد محمّد بن الخوجة ويبدو كما جاء في مطلع هذه الرّحلة وهي عبارة عن خمس رسائل شبيهة بالريبورتاجات نشرتها جريدة "الحاضرة" تحت عنوان « رسالة موّجهة لمدير الجريدة » وكان علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة قد طلب من ابن الخوجة أن يمدّ الجريدة بملاحظاته عن هذه الرحلة حتّى يطّلع القرّاء على ما وصلت إليه هذه البلاد من التقدّم في ميداني الحضارة والعمران ويتعرّفوا إلى أسباب القوّة والنفوذ التي أصبحت تتمتّع بها هذه الدّولة في العالم، وقد رد ابن الخوجة مخاطبا صديقه علي بوشوشة:« **قد تكرّمتم بسؤالنا لأن نكتب لكم حديث ما شاهدناه من الأمور التي رأتها مَجَادَتُكُم جديرة بإفادة قرّاء صحيفتكم، فأسرعنا بقبول طلبكم، واستعنّا بالله على تحرير زبدة رحلتنا القريبة البداية، السّريعة النّهاية، وكان في الأوّل عزمُنا تقديم العذر إليكم، إلاّ أنّ حسن ظنّكم حملنا على المبادرة بمساعفتكم، إذ رأيتم عملنا سينتج إفادة لأبناء وطننا العزيز، وإن كان قرّاء جريدتكم يعلمون اليوم من الإفادات المتوالية التي هي صنيع صحيفتكم الكثير**

---

[1] ينظر: محمد بن الخوجة. بحث تاريخي يتعلق بالقضاء الشرعي في الإسلام وبخطة شيخ الإسلام في تونس ،(تونس: المطبعة الرسمية، 1908).

[2] مولاي يوسف (1882م – 1927م): هو السلطان المغربي العشرين من العلويين، شهد حكمه ثورات متكررة ضد الاحتلال الفرنسي.

[3] الصادق الزمرلي، أعلام تونسيون، تعريب: حمادي الساحلي ،(بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986)، ط 1، الصفحات: 34 و232 و233.

عن أحوال الدّيار الأوروباويّة عموما، وأخبار البلاد الفرنسويّة خصوصا ».[1]

وتتكوّن هذه الرّحلة من خمس رسائل:

1) السّفر من تونس إلى باريس.

2) معالم باريس وحضارتها.

3) مرافق باريس وعوائد أهلها وأخلاقهم.

4) وصف ما شاهده في معرض باريس الدّولي.

5) التعريف بقصور " فرساي" والرّجوع إلى تونس.

وقد نشرت هذه الرّسائل الخمس في شكل مقالات بجريدة " الحاضرة " ثمّ طبعت في شكل كتاب سنة 1900.

3- التعريف بأبي الجمال الفاسي:

عند البحث عن هذه الشخصيّة لم نجد معلومات كثيرة عنها نظرا إلى أنها شخصية مغمورة لا يعرف عنها الشيء الكثير، إلاّ ما ورد في تقديم الأستاذ محمّد الفاسي رئيس جامعة "محمّد الخامس" عند نشره لهذه الرّحلة بعد تحقيقها سنة 1967، إذ يقول عنه:« **ومؤلفها من كتاب المخزن (البلاط – الدّيوان الملكي) أيّام السلطانين، مولاي عبد الرحمان وابنه سيدي محمّد بن عبد الرحمان. وهو أبو الجمال محمّد الطّاهر بن عبد الرّحمان بن محمّد الرّضى بن محمد – فتحا– بن الطّاهر بن يوسف بن محمّد أبي عسريّة بن علي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي رضي الله عنه. ولد بفاس سنة (1246هـ/1830م) ودرس بها، وبعد إنهاء دراسته عيّن في القصر الملكي من جملة كتّابه، وكان أخوه" أبو محمّد عبد القادر" من أكابر الكتّاب المنشئين، ترجم له "محمّد غريط" في كتابه "فواصل الجمان في أبناء وزراء وكتّاب الزّمان. ويظهر من التحلية التي حلاّه بها ناسخ هذه الرحلة أنّه كان من العلماء المدرّسين النفّاعين، فلعلّه هجر الكتابة بدار المخزن بعد رجوعه من السّفارة.**

وقد أقبل السّنين التسع الأخيرة من حياته على نشر العلم، ولا نظنّ أنّ ذلك وقع قبل اشتغاله بالوظائف المخزنيّة لأنّه لمّا توّجه إلى أنكلترا كان في السنّة الثلاثين من عمره، فلا يمكن لمن تخلّى عن التدريس في مثل هذه السّنين أن يقال عنه، العالم العلاّمة، المدرّس النفّاعة، إلاّ إذا فرضنا أنّه كان يجمع بين عمله

---

[1] علي العريبي. محمد بن الخوجة المؤرخ والرحالة، ص: 60.

في القصر وإلقاء الدّروس بجامعة القرويين في نفس الوقت، ولم تطل حياة أبي الجمال هذا، إذ توفيّ ببلده وهو لم ينه العقد الرّابع من عمره سنة: (1285هـ –1868م)، رحمه الله ".[1]

يبدو من خلال هذا التعريف أنّ أبا الجمال الفاسي كان من الموّظفين الرّسميّين بالمقرّ الملكي بالمغرب ولم يكن له نشاط كبير في ميدان التأليف والكتابة باستثناء هذا المخطوط الذي حقّقه وعلّق عليه الأستاذ محمّد الفاسي، وقد ذكر أنّ هذه الرحلة لم تلق رواجا مثل باقي الرّحلات السّفاريّة من المغرب إلى أوروبا ويعتبر أنّ ذلك كان ربّما بسبب وفاة صاحبها في سنّ مبكّرة، كما ذكر في تقديمه أنّه لا يوجد من هذه الرّحلة إلاّ نسخة فريدة تقع في بضع ورقات وهي منقولة من مبيضّة مؤلّفها من طرف أحد تلاميذه سنة: 1287هـ أي بعد سنتين من وفاة المؤلف أبي الجمال الفاسي كما ذكر محمد الفاسي أنّ المؤلّف لم يعط لرحلته اسما، وإنّما ذكر متواضعا في آخرها: « هذا آخر ما يسّر الله كتابته في هذه البطاقة»، فارتأى المحقق أن يضع لها اسما تعرف به، على غرار الرحلات السّفاريّة الأخرى وهو: «الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة.«[2]

4– دواعي الرحلة:

عرف المغرب ظهور صنف غير مألوف في الرحلة العربيّة المعاصرة وهو صنف الرحلات السّفاريّة الذي ظهر لأوّل مرّة في المغرب في عهد الدّولة السّعديّة وأوّل رحلة بلغتنا من هذا النّوع هي رحلة:" النفحة المسكيّة في السّفارة التركيّة " التي كتبها أبو الحسن علي بن محمّد التامكروتي[3] سفير سلطان المغرب المنصور الذّهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثالث سنة 998هـ /1589م.

والرّحلة السّفاريّة هي التي تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بسفارة لدى دولة أجنبيّة، وتكون أحيانا من إنشاء السّفير نفسه إن كان من رجال العلم والأدب وأحيانا أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتّاب المرافقين للسّفير. وقد انتعشت "الحركة السّفاريّة" في المغرب خلال فترة القرن التاسع عشر وخاصّة أنّ هذه الفترة تعبّر عن سياق تاريخي مرتبط بطبيعة العلاقة بين المغرب وأوروبا المتّسمة بالصّراع والحدّة، بداية من الصدمة الأوروبيّة أو "صدمة الحداثة " التي انطلقت مع هزيمتين عسكريّتين مني بهما المغرب: الأولى هزيمة " إيسلي" سنة 1844م ضدّ فرنسا والثانية هزيمة "حرب تطوان" سنة 1860 ضدّ إسبانيا وما أعقبهما من معاهدات غير متكافئة كانت في صالح

---

[1] محمّد، الفاسي. مقدمة الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة ،(فاس: مطبعة جامعة محمّد الخامس، 1967) ،صص: أ- ب.

[2] محمد الفاسي. مقدمة الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، صص: ب– ت.

[3] أبو الحسن علي بن محمد التامكروتي (941هـ – 998هـ/ 1534م – 1589م): عالم ورحالة مغربي قام برحلة سفارية إلى تركيا سنة 998هـ / 1589م.

الدّول الأوروبيّة العظمى: بريطانيا وفرنسا ثمّ إسبانيا. [1]

ساهمت كلّ هذه التطوّرات السياسيّة والعسكريّة التي عرفها المغرب خلال القرن التاسع عشر في تطوّر الحركة السّفاريّة التي تمّت برعاية ومباركة من لدن المخزن المغربي ذاته منذ عهد السلطانين: عبد الرّحمان بن هشام والحسن الأوّل وقد سعت هذه الحركة إلى تحقيق هدفين أساسيّين :

* **أوّلا**: استطلاع أحوال الحضارة الأوروبيّة ومحاولة التعرّف على مواطن قوّتها وأسباب مدنيّتها من خلال اكتشاف أسباب القوّة العسكريّة والاقتصاديّة الأوروبيّة، ومحاولة اقتباس العديد من مظاهر مدنيّة أوروبا لإصلاح أوضاع المغرب المترديّة والمتأخرّة.

* **ثانيا**: سدّ الفراغ الدبلوماسي الذي كانت تعاني منه أجهزة الحكم المغربيّة فيما يتعلّق بموقعها التفاوضي مع أوروبا.

وفي خضّم هذا السّياق السّياسي والعسكريّ تبرز لنا أهميّة الرّحلة السّفاريّة التي ألفها أبو الجمال الفاسي وهي عبارة عن " بعثة سفاريّة " أرسلها السلطان المغربي محمّد بن عبد الرحمان مباشرة بعد هزيمة حرب تطوان سنة 1860 إلى أنجلترا في عهد الملكة فكتوريا (Reine Victoria). [2]

كانت هذه البعثة تتكوّن من ثلاثة أفراد: الحاج الأمين عبد الرّحمان الفاسي، محمّد المطاع وأبي الجمال محمّد الطّاهر الفاسي الذي كان كاتبا للبعثة. ويبدو أن هذه الرّحلة إلى أنجلترا كانت لها أهميّة سياسيّة كبرى، ذلك أنّ أنقلترا آنذاك كانت تساند المغرب في مشاكله مع إسبانيا في حرب" تطوان" وهذا ما تستشفّه ونستنتجه، دون أن يصرّح به المؤلف أبو الجمال الفاسي فهو لا يتعرّض – على عادة واضعي الرحلات السّفاريّة – لتفاصيل المهمّة التي أُنيطت بعهدته في هذه السّفارة ولا للمفاوضات التي أجرتها مع الحكومة الأنجليزيّة. [3]

قدّم أبو الجمال الفاسي في هذه الرّحلة وصفا دقيقا ومباشرا لكلّ ما شاهده، منذ ركب الباخرة التي أقلّته من طنجة إلى لندن (في صيف سنة : 1276هـ / 1860م) إلى أن رجع إلى العاصمة المغربيّة "فاس"، وقد دامت هذه الرحلة سبعين يوما، وهي تعكس تصوّره لمظاهر الحداثة والمدنيّة الأوروبيّة الحاضرة بقوّة في المجتمع الأنجليزي وموقفه منها، وبالتالي فإنّ هذه الرحلة – وإن صغرت حجما – فهي تعد وثيقة تاريخيّة هامّة تطلعنا على أثر

---

[1] عبد المجيد القدوري. سفراء عرب في أوروبا) 1610 -1922 ،((أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006) ،ط 1، صص: 40- 41.

[2] فكتوريا (1819م – 1901م): ملكة حكمت بريطانيا أربعة وستين عاما، حتى أصبحت فترتها الأطول في تاريخ الحكم في بريطانيا، وقد سميت هذه الفترة التاريخية التي بلغت فيها بريطانيا أوج قوتها على اسمها: العصر الفكتوري.

[3] محمد الفاسي. مقدمة الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: ت.

المدنيّة الغربيّة – وخاصّة الأنجلوفونيّة منها – في نفوس المغاربة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

خاتمة الفصل

حدّدنا في هذا الفصل الأوّل من بحثنا مفهوم "المدنيّة" لغة واصطلاحا وبيّنا أنّها تفيد الإقامة في المدينة وتقترن بدلالات الخضوع للقوانين والانضباط والتنظمّ وفق عقد مدنيّ متفق عليه، كما توصّلنا إلى أن كلمة "مدنيّة" وثيقة الصّلة بمصطلح حضارة (civilisation) الذي تمتدّ جذوره اللّغويّة إلى اللاّتينيّة ويعني نمط الحياة في المدينة وكلّ ما يتعلّق بها من قيم وسلوكيّات ونظم ومؤسّسات. ولاحظنا اختلافا في ترجمة مصطلح (civilisation) إلى العربيّة، فقد ترجم أوّلا إلى لفظ "مدنيّة" و"تمدّن" ثمّ تطوّر هذا المفهوم وأخذت المعاجم والقواميس بترجمة مصطلح (civilisation) إلى لفظة "حضارة".

وقد آثرنا اعتماد مفهوم موسّع للمدنيّة باعتباره مرادفا للمصطلح الأوروبي حضارة(civilisation) وذلك رغبة منّا في الارتباط بالسّياق التاريخي للبحث الذي يهتمّ بخصائص المدنيّة في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما ميّزنا بين مفهوم " الحضريّة " ومفهوم " التحضرّ " فإذا كان المفهوم الأوّل يعني عمليّة الانتقال من المجتمع الريفي إلى المجتمع الحضري وهو بذلك يفيد معنى ثابتا ومستقرّا فإنّ التحضّر عمليّة ديناميكيّة نامية ومتطوّرة لأنّها تنتج تغييرات فكريّة واجتماعيّة نتيجة التفاعل المستمرّ بين سكّان المدينة، وهي بذلك أقرب إلى مفهوم " المدنيّة" وألصق بها، لأنّها تعني جميع الظّواهر الماديّة والفكريّة والأخلاقيّة والإنجازات والمبتكرات التي تميّز طابع الحياة في المجتمعات الحضريّة والصناعيّة الحديثة. واستنتجنا كذلك أن المدنيّة باعتبارها درجة من التطوّر الرّفيع والرّاقي للإنسانيّة تحتاج إلى مقاييس ومعايير تطوّريّة محدّدة لقياس درجة التمّدن لدى الشعوب والمجتمعات وقد لخّصناها في: معيار التحضّر والتعقيد ومعيار التقنيات ومعيار تطوّر العوامل الفكريّة والأخلاقيّة.

وقد توّصلنا في هذا الفصل إلى أنّ المدنيّة هي في الأصل مدنيّات متعاقبة عبر التاريخ الإنساني وقد مثلت المدنيّة الأوروبيّة الحديثة ذروتها وسنامها نظرا لاعتمادها على التراكم العلمي والمعرفي للمدنيّات السابقة (اليونانيّة – الرّومانيّة – الإسلاميّة)، وتعدّ آلية الرحلة والترحال الأداة والوسيلة الثقافية التي مكّنت من الإطّلاع والتواصل بين المدنيّات المختلفة والاستفادة من منجزاتها الحضاريّة، قديما وحديثا، وفي هذا الإطار ركّزنا بحثنا على الرحّالة في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر وبالأخصّ على رحلات المغاربيّين إلى أوروبا، وذلك باختيار نموذجين وهما: محمّد بن الخوجة من تونس وأبو الجمال الفاسي من المغرب الأقصى، وقد قام الأوّل برحلة إلى فرنسا أمّا الثاني فقد قام برحلة إلى لندن، وهذا ما سيمكنّنا من الإلمام والإحاطة بخصائص المدنيّة الأوروبيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشرمن جوانبها المختلفة وضمن مرجعياتها المتنوعة: الفرانكفونيّة والأنجلوفونيّة.

II- الفصل الثاني :

خصائص المدنيّة في " باريز"

مقدّمة الفصل

إنّ اتخاذ محمّد بن الخوجة مدينة باريس قبلة له للاطّلاع على معالم المدنيّة الحديثة والنّهل من ينابيعها ليس اعتباطيا أو من قبيل الصّدفة، ذلك لأنّه يعتبر فرنسا « **رأس العالم المتمّدن**»[1] ويرى أنّ باريس هي «**أرض حاضرة الحضارة البشريّة**»[2] و« **عروس مدائن العالم المتمّدن بأسره**»[3] كما يرجع ذلك إلى أنّ العلاقات بين تونس وفرنسا تتميّز بالقدم والرّسوخ ممّا جعل البلاد التونسيّة تكثّف من البعثات والسّفارات إلى فرنسا لآقتباس أسباب التحضّر والتمدّن منها وفي ذلك يقول ٱبن الخوجة متحدّثا عن فرنسا: « **فأنت ترى أنّ هذه الأمّة التونسيّة أدركت منذ أحقاب بعيدة ما لجارتها قويّة الساعد من الامتياز عن بقيّة الأمم النصرانيّة في خدمة الآداب والعلوم العقليّة، على أنّ ذلك الإحساس أخذ يتأصّل ويتأكّد مع أدوار الزّمن واختلاف حوادثه السياسيّة لحدّ صيرورته كأمر مرغوب فيه عند أهل النظر وأصحاب المظاهر والحيثيّات الرّسميّة الذين سعت حكومة تونس في تهذيبهم وتدريبهم على المساعي الجسيمة والمشروعات الخطيرة مثل رجالها ووزرائها السّابقين واللاّحقين بتكليفهم بالأسفار والسّفارات لدى حكومة فرانسا للقيام بمهمّات الأعمال ولتأكيد العلائق الودّية بين الجانبين** ».[4]

كما تجلى ذلك التوجّه في كتابات سابقة لمحمد بن الخوجة حرّرها رحالة تونسيون تغنوا فيها بفرنسا وعاصمتها باريس وصوروا ملامح مدنيتها، مثل كتاب "الإتحاف" لابن أبي الضّياف و"الاستطلاعات الباريسية" التي حررها صديقه السنوسي بمناسبة حضوره في معرض باريس الدولي، وكذلك خير الدين في "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك."[5]

يعود تطوّر العلاقات بين تونس وفرنسا إلى سببين أساسيّين مهمّين وهما: تقلّص السّلطة العثمانيّة بشمال إفريقيا من جهة ونموّ نفوذ فرنسا بهذه المنطقة من جهة أخرى وقد تجسّم ذلك من خلال: احتلال الجزائر سنة 1830 ممّا أدّى إلى تمرّد المملكة التونسيّة على السّلطة العثمانيّة واعتمادها أسلوب العلاقات المباشرة مع فرنسا دون توّسط أيّ دولة. وقد كرّس هذا مزيدا من التبعية إلى فرنسا خصوصا بعد زيارة الدولة التي قام بها أحمد باشا

---

1) محمّد بن الخوجة. الرحلة الفلياريّة بالمملكة التونسيّة ،(تونس: المطبعة الرّسميّة، 1912) ،ص:34.

2) محمّد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز،(تونس: المطبعة الرّسميّة، 1900) ،ص:17.

3) محمد بن الخوجة. الرحلة الفلياريّة بالمملكة التونسية، ص: 62.

4) المصدر نفسه، ص: 3.

5) Voir : Moncef Chebbi. L'image de L'occident Chez les Intellectueles Tunisiens au 19ème siecle, Tunis : Arabesques Èdition, 2010, P: 145-146-146.

باي إلى فرنسا مرفوقا بوفد هام ورجوعه هائما بما رآه وسمعه عن المدنية الفرنسية. [1]

لقد تمّت زيارة ٱبن الخوجة إلى فرنسا سنة 1900، أي بعد قرابة العقدين من الاحتلال الفرنسي لتونس ورغم ذلك سنلاحظ أنّه سيتعامل مع المدنيّة الفرنسيّة بانفتاح ومرونة كبيرين، لأنّ ٱبن الخوجة يعتبر أنّ الاحتلال الفرنسيّ لتونس نوعا من الحماية والرّعاية القائمة على تبادل المصالح[2] ولعلّ وضعه في صلب المؤسسة الاستعمارية القائمة وارتباط عائلته "الخوجية" بنظام الحماية وتمتّعها في ظلّها بالعديد من الامتيازات قد أملى عليه هذا الموقف البراغماتي .

كما يعتبر ابن الخوجة أنّ تداول الأمم والحضارات على قيادة العالم والتحكمّ فيه سنّة كونيّة، فبعد أن كانت المملكة التونسيّة في العصور الوسطى قويّة ومتحكّمة في البحر الأبيض المتوسّط، تراجع شأنها وأصابها الضّعف والوهن في مقابل الازدهار الحضاري الذي عرفته أوروبا، ومن أهمّ هذه القوى الأوروبيّة الصّاعدة نجد: فرنسا، لذلك كان من المحتّم والطبيعيّ في نظر ابن الخوجة « **الخضوع والاستسلام لهذه القوة واقتباس أسباب التقدم والتمدن منها** » .[3]

سنعمل في هذا الفصل الثاني من بحثنا على تجلية خصائص المدنيّة الباريسيّة في النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر من خلال أثر محمّد بن الخوجة "سلوك الإبريز في مسالك باريز"، إذ سنتبيّن أوّلا الخصائص العلميّة والعمرانيّة والاقتصاديّة لمدنيّة " باريز" من خلال وصف تطوّر العلوم والاختراعات وازدهار العمران والاقتصاد بها، لنتطرّق ثانيا إلى بيان السّمات السياسيّة لهذه المدنيّة من خلال نظام الحكم والمؤسّسات السياسيّة السائدة فيها، ثمّ سننتهي آخرا إلى استخلاص الملامح الاجتماعية للمدنيّة الباريسيّة من خلال وصف عادات الباريسيين وأخلاقهم وتبيّن القيم الفكريّة والثقافيّة المنتشرة بينهم .

---

1) لمزيد الاطلاع ينظر: أحمد بن أبي الضياف. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية ،(تونس: الدار العربية للكتاب، د.ت) ،ج 4 ،ص:99. (وقد أمعن ابن أبي الضياف في سرد تلك الرحلة في معرض حديثه عن فترة حكم المشير أحمد باشا باي).

2) محمد بن الخوجة. الرحلة الفلبارية بالمملكة التونسية، ص: 4.

3) المصدر نفسه، صص: 3، 4.

المبحث الأوّل: الخصائص العلميّة والعمرانيّة والاقتصاديّة للمدنيّة الباريسيّة

I/ الخصائص العلميّة :

شهدت فرنسا في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر ثورة صناعيّة ثانية وهو ما أدّى إلى حدوث تطوّر سريع في المجالات العلميّة والعمرانيّة والاقتصاديّة وقد ساهم هذا التطوّر والنموّ في اتّساع مدينة باريس وزيادة عدد المهاجرين إليها على نحو غير مسبوق وأصبح لهذه المدينة قوة جذب هائلة جعلتها تتفوق على غيرها من العواصم الأوروبية حتى أنها لقّبت بمدينة الأنوار .ومنذ تسلم نابليون الثالث للسلطة أصبحت باريس تطمح إلى الحصول على السيادة والتفوق على العواصم الأوروبية الأخرى والتحول إلى حاضرة عالم المستقبل. [1]

حرص ابن الخوجة عند وصف مدينة باريس على المقارنة بينها وبين تونس لفرط إحساسه بالبون الشاسع بين عالمي المدنية والجهل إذ يقول في مقال له بالرّوزنامة التونسية »:**فمدينة باريس التي هي أعمر مدن الدّنيا بعد مدينة لندرة لا يقلّ عدد سكّانها عن ثلاثة ملايين، أي بها من الأنفس ما يربو ضعفين على كافة سكّان المملكة التونسيّة وتبلغ مساحتها أضعاف مدينة تونس عشرين مرّة**» وقد تحوّلت باريس بفضل ذلك إلى مركز علمي واقتصادي وعمرانيّ عالميّ، مضيفا في نفس المصدر:« **طفحت باريس بالعلم وأصبح عمرانها كسيل العرم** ».[2]

1- وصف تطوّر وسائل النقل بمدينة باريس :

تطوّرت المواصلات البريّة والبحريّة بباريس نتيجة العديد من الاختراعات الجديدة، إذ نجد عربات نقل متنوّعة ومختلفة الأشكال والأصناف فهناك "الكرّوسة" (Carosse) وهي عربة ذات أربعة دواليب ويجرّها فرس واحد كما نجد " الطّوموبيل" (Automobile) وهي عربة مستقّلة الحركة تسير بالطّاقة الكهربائيّة أو البخاريّة وهي آخر ثمار المدنية آنذاك. وكذلك ظهرت بباريس وسائل نقل مستحدثة مثل: "الترامواي الكهربائي" (Tramway elèctrique) ومترو الأنفاق (Metro de tunelle) الذي يسير في أنفاق تحت الأرض بواسطة الطاقة الكهربائيّة وتبلغ سرعته مائة ميل في الساعة. وقد لاحظ ابن الخوجة الانتقال من استعمال الطّاقة البخاريّة إلى

---

1) Joanne vajda. Paris ville de lumière : une transformation urbaine et sociale (1855- 1937), Paris : Éditions L'Harmattan, 2015, p : 24.

2) محمد بن الخوجة. الروزنامة التونسية، ص: 134.

استعمال الطاقة الكهربائية في تسيير وسائل النقل بما يوّفره ذلك من سرعة واختصار للوقت وللمسافات. [1]

كما أعجب ابن الخوجة بالقطار السّريع الرابط بين مرسيليا وباريس والذي كان يعد في ذلك العهد من أسرع القطارات في أوروبا وهذا ما يساهم في تسهيل التنّقل بين مختلف المدن الفرنسيّة. « **ولمّا ابتلج صبح يوم الخميس التالي، تأهّبنا للرّحيل عن مرسيليا قاصدين مدينة باريس قيمّمنا قطار الحديد الطيّار وسار بنا نحو باريس البعيدة عنّا بثمانمائة كيلومتر، قاطعا بنا طول تلك المسافة في أقلّ من ثلاثة عشر ساعة زمانيّة** »[2] وقد سبقه إلى التنويه بذلك الرحالة محمد السنوسي في قصيدته: "الفريدة في الاختراعات الجديدة". وكان مطلعها قوله معجبا بالقطار: (بحر الكامل التام(

أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَقَارَبَ البَلَدَانِ بِالمزْجِيَاتِ جَرَتْ عَلىَ قُضْبَانِ[3]

2- المكتبة الوطنيّة بباريس: (Bibliothéque nationale de France)

أعجب ابن الخوجة بالمخزون الثريّ للمكتبة الوطنية بباريس من الكتب المتنوّعة الأصناف. ولاحظ أنها تحتوي على مخطوطات نادرة من مختلف الحضارات واللّغات وأشار كذلك إلى حسن تنظيم أقسامها وأجزائها وفق برنامج محكم. « **فمن ذلك الكتبخانة العموميّة، وبها من الكتب ما يفوق عن ثلاثة ملايين مجلّد ولها برنامج محكم الترتيب يحتوي على عدّة أجزاء، يختصّ كلّ قسم منها بأحد أقسام خزائن الكتب وفيها من التآليف واللّغات ما حفظه التاريخ من عهد تبلبل الألسن لوقتنا الحاضر**».[4]

اطّلع ابن الخوجة على بعض المخطوطات العربيّة النادرة بهذه المكتبة وفي هذا إشارة إلى استفادة المدنيّة الأوروبيّة والفرنسيّة بالأخصّ من التراث العربيّ الإسلاميّ ونهب الأوروبيين لجمٍّ من المخطوطات والآثار التاريخية النفيسة (مصحف من القرآن الكريم بالخطّ الكوفي مكتوب على الرقّ من عصر التابعين ونسخة من التاريخ الكامل للعلاّمة آبن الأثير). [5] وكذلك من المعرفة والحكمة الإنسانيّة من كلّ أرجاء العالم « **كما اطّلعنا عيانا على كتائب مضت عليها القرون العديدة من آثار الصّينيين والهنود وغيرهم من الأمم القديمة**»[6] وقد أشار

---

1) محمّد آبن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 42-43.

2) محمّد آبن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:14.

3) محمد السنوسي. الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي ،(تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1976) ،ج 1، ص:198.

4) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 24.

5) المصدر نفسه، ص: 24.

6) م.ن، ص:26.

آبن الخوجة إلى عراقة وقدم التواصل الحضاري بين الحضارة العربيّة الإسلاميّة والحضارة الأوروبيّة وبالأخصّ الفرنسيّة من خلال وصفه لمعروضات بأحد أجنحة هذه المكتبة الضخمة وتتمّثل في وعاء مطرّز بالذهب والحجارة الكريمة مع رقعة شطرنج أهداهما الخليفة هارون الرشيد إلى امبراطور فرنسا شارلمان (Charlemagne)[1]. وتحوي هذه المكتبة كذلك قسما مخصّصا للنقوش التاريخيّة والأيقونات والتحف الأثريّة، ويهدف إلى حفظ الذّاكرة الوطنيّة للأمّة الفرنسيّة من التلف والنّسيان:« **لاحتوائه على تجسيم الوقائع الشهيرة من حروب وصلح ومبايعة ملكيّة وإمضاء عهود وتذكار وفخر.**» [2]

3– دار الرصد :

تعدّ من المراكز العلميّة الهامّة التي توجد بمدينة باريس وقد وقع إنشاء هذا البناء في عهد ملك فرنسا لويس الرابع عشر (Louis 14)– (1683– 1715). وقد وصف ابن الخوجة محتوياتها من المناظير والآلات الفلكيّة المستحدثة وأبرز أهميّتها في رصد ودراسة الكواكب والأفلاك وهي دليل على شمول المدنيّة الفرنسيّة لعالمي الأرض والفضاء ويقول في ذلك »:**وقد شاهدنا هنالك في دلوك النّهار بالمرآة المكبّرة الشهب الثواقب البعيدة عنّا بأحقاب والتي لا تراها عين الهدهد في ديجور اللّيل الحالك، أما القمر السّابح في قبّة الفلك فقد تسلّط عليه سلطان العلم وقرّبه منه نجيّا، إذ هو أدناه لنحو عشرين ميلا من مرآى عين المرآة المكبّرة، بعد أن كان لا يرى إلاّ في عنان السّماء.**» [3]

4– معرض باريس لسنة 1900:

نظمت مدينة باريس من سنة 1855 إلى سنة 1937 العديد من المعارض الدولية التي تعاقبت بانتظام، وقد كانت تعد تظاهرات ثقافية هامة تتيح الفرصة الى "مدينة الأنوار" كي تبرز مكانتها في العالم ولكي تحتفل بمظاهر الحداثة والتقدم من خلال منجزاتها المتعددة.[4] ويعتبر ابن الخوجة أن المعارض العلميّة »:**هي المحور الذي تدور عليه رحى الثروة التجاريّة والفنيّة عند سائر الأمم المتمدّنة.**» [5] ويبيّن أن هذه العادة لها أصل عريق في الحضارة العربيّة الإسلاميّة رغم أنّها اختصّت بالأدب والشعر. ويضرب مثلا لذلك " بسوق عكاظ " في العصر الجاهلي الذي

---

1) شارلمان (742– 814): ملك الفرنجة وقد حكم معظم أوروبا الغربية.

2) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:26.

3) المرجع نفسه، ص: 38.

4) Joanne Vajda. Paris ville de lumière.p : 5.

5) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز ، ص: 55.

كانت تتمّ فيه المبادلات التجاريّة من بيع وشراء وتنعقد فيه المنتديات الأدبيّة والشعريّة. [1] كما يرى ابن الخوجة أنّ الشريعة الإسلاميّة تحثّ على هذا النّوع من الاجتماعات العامّة مثل صلاة الجمعة والحجّ الذي يقع فيه التّعارف والتقارب بين المسلمين من سائر الأمصار والبلدان[2] وبالتالي فإنّ المعارض تعدّ مظهرا من مظاهر التمدّن والرقيّ الحضاريّ والرخاء الاقتصاديّ لأوروبا عامّة وللأمّة الفرنسيّة خاصّة نتيجة الثورات الصناعيّة التي عرفتها: « **وبانتشار الحضارة وتوّفر أسباب الرّفاهيّة بين جدران أوروبا أخذ أهلها يتفكّرون في وسائل تنمية ثروتهم وإشهار مفاخرهم، فدبّروا لذلك إيجاد المعارض التي هي أجدر بأن تسمّى بالأسواق لأهل الحواضر والآفاق وأوّل أمّة جادت قريحتها بهذا المشروع العظيم، كانت الأمّة الفرنسويّة.**» [3]

وقد أبدى ٱبن الخوجة إعجابه وانبهاره الشديد بهذا المعرض، إذ اعتبره " **غاية الترقّي في الصنائع والمخترعات والعلم والفنّون بأنواعها وقد احتوى على راموز من كلّ شيء نفيس، جادت به القريحة البشريّة من كلّ صقعٍ ونادٍ.**»[4] ويمتدّ هذا المعرض على مساحة شاسعة تقدّر بمليون ومائة ألف متر مربّع ويحوي العديد من المحلاّت والمباني الضّخمة لعرض معروضاته وينقسم إلى واحد وعشرين ومائة قسم حسب أنواع المعروضات، وقد شاركت فيه العديد من الأمم والبلدان الأوروبيّة والشرقيّة والعربيّة. [5]

أ/ وصف قصر الكهربائيّة:

تطوّر إنتاج الطّاقة الكهربائيّة بفرنسا وساهم في توفير طاقة ذات قدرة عالية للإنتاج الصناعي ولوسائل النقل ولتسهيل حياة النّاس وتوفير الرفاهيّة، إذ تطوّر استعمال المصابيح الكهربائيّة بمدينة باريس، فتحوّلت إلى" مدينة أنوار"، بينما كان العالم الشرقي غارقا في دياجير الظّلام. يقول ابن الخوجة عندما كان على مشارف الوصول إلى مدينة باريس:« **وإذ بقي لنا من المسافة مسير بعض السّاعة للوصول لباريس شاهدنا من بعد بعيد في صعيد الجوّ أنوار هاته المدينة الكهربائيّة.**» [6]

أعجب ابن الخوجة بالمولّدات الكهربائيّة العملاقة التي تنتج طاقة الكهرباء لإنارة المعرض وتسيير الآلات.

---

[1] ينظر: سعيد الأفغاني. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1974)، ط 3.

[2] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 55.

[3] المصدر نفسه ، ص 58.

[4] م. ن، ص: 59.

[5] م ، ن، ص.ن.

[6] م. ن، ص:16.

« **قصر الكهربائيّة وهو آية في الإبداع وفيه من آلات الكهربائيّة والقوّة الفاعلة، بها ما لا يقدر على وصفه لسان ومنه تنبعث سيول الكهرباء فتنير آلاف المصابيح التي بسائر بقاع المعرض.**»[1] وممّا شدّ انتباه ابن الخوجة كذلك آلة لقطع الخشب وتصنيعه تدار، حسب تعبيره ،"بفاعليّة الكهربائيّة"، ممّا ساهم في زيادة الإنتاج الصّناعي وتسريع نسقه بفرنسا. [2]

ب/ قسم الفضاء:

إنّ الحضارات والمدنيّات الحديثة، بعد أن تتمّكن من عالم الأرض، ترنو إلى عالم الفضاء بغية استكشافه واكتناه أسراره وفي هذا الإطار عاين ابن الخوجة بأحد أقسام هذا المعرض مناظير فلكيّة تستخدم لتتّبع حركة الكواكب والأفلاك وتقريب صورها لعين الناظر. « **ومن أهمّها قصر الضّوء وبه المرآة المكبّرة الجديدة التي تقرّب القمر لمرآى العين عن بعد ستّين كيلومترا**».[3] ولا يخفى أن هذا الاهتمام المبكر بالفضاء في باريس، سيوصل المعتنين به لاحقا إلى اكتشافات عظيمة وفتوحات معرفية مذهلة ستتجلّى ملامحها في القرن العشرين.

ج/ قسم المخترعات الحربيّة :

هو شاهد على قوّة فرنسا العسكريّة ويحوي الآلات الحربيّة الجديدة: البريّة والبحريّة من بوارج وقنابل.[4] وقد استخدمتها فرنسا لتدعيم هيمنتها في العالم واحتلال العديد من الدول والمستعمرات، ويبرز هذا الوجه الآخر للمدنية الفرنسية القائم على الاعتداء وسلب حقوق الشعوب الضعيفة.

د/ قسم السينما:

شاهد ابن الخوجة بهذا القسم صورا فوتوغرافيّة متحرّكة وأعجب بقدرتها على تجسيد الواقع الحسيّ وتوثيق المرئيات وتعدّ مرحلة بدايات السينما بفرنسا.[5] « **ومن المناظر البهيّة المشّخصة للبلاد الأجنبيّة وللأسفار البحريّة ما يسمّونه بنورما (Panorama) ولقد شاهدنا بهذه المناظر الجميلة التي يخال ناظرها لدقّة حركتها**

---

[1] م. ن، ص:66.

[2] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 66، 67.

[3] االمصدر نفسه، ص: 67.

[4] م .ن، صص: 67، 68.

[5] ينظر: جيوفري نوويل سميث. موسوعة تاريخ السنما في العالم، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد ،(القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، ط 1، ج 1، ص: 25.

العلميّة أنّها أشباح حسّية، مرسى سوسة التونسيّة وكثيرا من البلدان ممّا نعرف وممّا لا نعرف».[1]

هـ/ الطّريق الصناعيّ السّائر:

هو اختراع علميّ جديد يسّهل تنقّل الزوّار بين أنحاء المعرض ويوّفر لهم الرّاحة والرّفاهيّة ».**ويحدق بالمعرض طريق صناعي من خشب بني حول المعرض في علوّ عشرة أمتار ويسير وحده بمن يطؤه من دون تعب ولا كلال.** »[2]

وقد اعتبر ابن الخوجة أنّ الارتقاء العلمي والتقدّم التقنيّ إنّما تمّ بفضل التطوّر الفكريّ والفلسفيّ والرّياضيّ للأمّة الفرنسيّة ومن أجل ذلك فقد تمّ تخصيص دواوين وأكاديميّات للعلوم بمختلف أصنافها تتوّلى المحافظة عليها وتطويرها مثل: الأكاديميّة الفرنسويّة (Académie francaise) التي تتوّلى الحفاظ على اللّغة الفرنسيّة وتغيير أو حذف أو إدخال كلمات أو مشتقّات جديدة، كما نجد ديوان النقوش والآداب ووظيفته دراسة الآثار العتيقة والمعالم التاريخيّة واللّغات القديمة مثل: اليونانيّة واللاّتينيّة والشرقيّة وديوان المعارف ووظيفته النظر في العلوم الصحيحة: الرياضيّة والفلكيّة والطّبيعيّة والطبيّة وديوان العلوم الأدبيّة والسياسيّة ووظيفته النظر في الفلسفة والآداب والأخلاق والحقوق والاقتصاد السياسي وفلسفة التّاريخ وكذلك ديوانا للفنون المستظرفة مهمّته النظر في فنون التزويق والنّقش والتصوير والموسيقى. وفي هذا إشارة إلى أهميّة تصنيف العلوم وتخصيص مراكز للبحث العلميّ متنوّعة الاختصاصات بغاية السّيطرة على التوّسع الهائل والمطّرد للمعارف الإنسانيّة.[3]

II – الخصائص العمرانيّة لمدينة باريس:

إنّ الارتقاء الحضاريّ والتقدّم العلميّ لسائر الشعوب والحضارات ينعكس على مظاهرها العمرانيّة فيكتسب العمران بالإضافة إلى قيمته الاستعماليّة العاديّة، قيمة جماليّة وفنيّة ويتحوّل إلى وسيلة تعبيريّة لها وظائف متعدّدة : اجتماعيّة وحضاريّة وثقافيّة. « **والمعمار كان دائما من الفنّون التطبيقيّة الهامّة للدّور الذي يلعبه في حضانة بعض الفنون التطبيقيّة الأخرى: كالنّقش والزّخرفة والكتابة والتّصوير أو لآتصاله ببعضها الآخر اتّصالا**

---

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 68، 69.

[2] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 68.

[3] المصدر نفسه، ص: 39.

ضروريّا كالفرش والأواني ».[1] وفي هذا الإطار فقد تميّزت فرنسا في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر بازدهارها العمراني الكبير بفضل النهضة الصناعيّة التي عرفتها والرخاء الاقتصاديّ الذي كانت تعيشه وكذلك بفضل تاريخها العريق ذلك أنّ » **الحضريّة الأوروباويّة وبالأخصّ مدنيّة الأمّة الفرنسويّة هي قديمة الوجدان لم تغيّرها العوامل التي دخلت عليها، كما تشهد بذلك آثارها الباقية أعيانها لهذا اليوم**».[2] كما يعتقد ابن الخوجة أنّ ازدهار العمران بفرنسا إنّما هو ثمرة من ثمرات العدل والأمن والأمان، وفي ذلك يقول نقلا عن ابن أبي الضياف، أثناء زيارته لفرنسا مع الباي أحمد باشا سنة 1362هـ/1846م:« و**شاهد– أي أحمد باشا رحمه الله– في طريقه معنى العمران وأسباب التقدّم في ميادين الحضارة ونتيجة الأمن والأمان لا تكاد تجد موضعا معطّلا من نفعٍ: شجرةٍ أو حرثٍ أو كلأٍ مستنبتٍ. يُسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمةِ**».[3] وفي ذلك دليل آخر على اطّلاع ابن الخوجة على ما كتبه ابن أبي الضّياف حول رحلة أحمد باشا باي إلى فرنسا.

1– كنسية " سانت مادلين"(Cathedrale saint Madelaine) أي مريم المجدلانيّة:

أعجب ابن الخوجة بالمعالم المعماريّة لمدينة باريس التي يعتبرها « **مهد العمران**».[4] ومن ضمنها كنيسة "سانت مادلين" التي انبهر بهندستها الشّبيهة بهندسة الرّومان ويبيّن ذلك أنّ الحضارة الأوروبيّة عامّة والفرنسيّة خاصّة هي امتداد للحضارة الرّومانيّة العريقة. « **وهي كنيسة ضخمة مقامة على أعمدة شاهقة تحاكي في هيأتها معابد الرّوم الأقدمين** ».[5] وتتزاوج فنون النقش والرّسم والخطّ في تزيين المعمار الفرنسيّ وتزويقه. وفي هذا السّياق لاحظ ابن الخوجة أنه قد نقشت على واجهة هذه الكنيسة نقوش تشخيصيّة » **ليوم الهول الأكبر من حشر ونشر**».[6] أما من الدّاخل فقد خطّت على جدرانها « **آيات من كتاب العهد القديم مرسومة باللّسان اللاّطيني وصور ذوات مشهورة كرسم نابليون**»[7] وحُلّيت سقوفها « **بصور وهميّة يزعمون أنّها صور الملائكة المقرّبين**».[8] ونستشفّ

---

1) العزيز العياري .الفنون المستظرفة في أدب الرحلة العربي الحديث وعلاقاتها بمفهوم التمدن، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف الأستاذ: فرحات الدريسي، نوقشت بكلية الآداب بمنوبة، السنة الجامعية: 1992– 1993، ص: 64.

2) محمد بن الخوجة .سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 7.

3) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 19.

4) المصدر نفسه، ص:18.

5) م. ن، ص: 21.

6) م. ن، ص:21.

7) م. ن، ص. ن.

8) م. ن، ص. ن.

من خلال هذا الوصف حضور المرجعية الدينية لابن الخوجة بما أن الدّين الإسلامي يحرّم تصوير المقدّسات أو تجسيمها.

2- قوس النصر: (Arc de triomphe)

هو من المعالم العظيمة لمدينة باريس وقد بدأ بناؤه سنة 1806 أي في عهد الإمبراطور نابليون الأوّل[1] الذي عُرف بولعه ببناء المعالم المعماريّة وآستغرق هذا البناء قرابة ثلاثين سنة ليُستكمل سنة 1836م. وقد وصفه ابن الخوجة بأنّه »:**عبارة عن بناء مشمخر ذي أربعة أقواس شُخّصت بكلّ واجهة منه مواطن حربيّة ومواقع عسكريّة قام بها نابليون الأوّل من عام 1793 إلى عام 1815 وقد بلغت نفقة بناء هذا الهيكل إلى تسعة ملايين من الفرنكات** ».[2]

3- برج إيفل : (LeTour Effel)

صمّمه المهندس الفرنسي " **ألكسندر غوستاف إيفل** "[3] وافتُتح سنة 1889 ويُعدّ من أبرز معالم مدينة باريس وأكثرها استقطابا للسّياح وله كذلك وظائف عسكريّة واتصاليّة وقد تزامن افتتاحه مع المعرض العالمي لباريس ونتيجة لذلك فقد قصده الكثير من الزوّار وقد وصفه آبن الخوجة بأنّه »: **لم يزل أوّل أعجوبة في هذا العصر يقصدها زوّار المعرض من كلّ فجّ عميق، وزيد فيه عمّا كان قبل سبعة آلاف قنديل كهربائي في سمت مربّع ممتدّ من أعلاه لأسفله** ».[4]

4- كنيسة " نوتردام": (Cathédrale Notre –Dame de Paris)

سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى السّيدة مريم عليها السلام وتمثّل أحد أبرز المعالم الأثريّة والسياحيّة بمدينة باريس نظرا لعراقتها وقدمها وقد اعتبرها آبن الخوجة " **أمّ الكنائس بباريس**"[5] وقد بُنيت على الطّراز التّتري المسمّى

---

1) نابليون الأول (Napléon Bonaparte)- (1769- 1821): هو قائد عسكري وامبراطور الفرنسيين.

2) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 35.

3) ألكسندر غوستاف إيفل (Alexandre Gustave Effel)- (1832- 1923): مهندس معماري فرنسي اشتهر بتصميم المنشآت المعدنية ومن أشهرها: برج إيفل وتمثال الحرية.

4) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:65.

5) المصدر نفسه، ص: 40.

الكوتيك (Cotique) ويتميّز بناؤها بالفخامة وقد استغرق مائتي عام وتحوي العديد من الآثار الفنيّة والتّحف النادرة. [1]

5- شوارع باريس:

أُعجب ابن الخوجة بحسن هندسة الشوارع الباريسيّة الطّويلة والفسيحة والمتناسقة، وهي تحتوي على المحلاّت المليئة بالبضائع وكذلك أماكن الترفيه والترويح عن النّفس من ملاهٍ ومقاهٍ ومن أبرز هذه الشوارع: شارع الشّانزليزيه (Avenue Champs-Elysées) « ويُعدّ من أضخم وأرقى شوارع مدينة باريس وهذه الجادّة من أجمل الجادّات الموجودة في العالم في تلك الفترة ويعتبرها البعض أعجوبة من أعاجيب الدّنيا وشاهدا على ما تتّمتع به هذه المدينة من مظاهر الرقيّ والحضارة والتمدّن«. [2]

6- مبنى " البانتيون " (Panthéon):

يقع بالحي اللاّتيني ويُحاكي بناؤه شكل الكنيسة العظمى بروما، وهو مدفن مخصّص لعظماء الأمّة الفرنسيّة. [3]

7- ضريح نابليون (Napoléon):

يتميّز بإتقان البناء وجودة المواد المستعملة فيه (رخام – مرمر – نحاس) ممّا يدّل على تعظيم الأمّة الفرنسيّة لهذا الإمبراطور ورغبتها في تخليد ذكره والإشادة بمآثره. [4]

8- الأعمدة والصّروح:

تكشف تلك الصروح والأعمدة فخامة المعمار الفرنسي وعظمته ولها وظائف رمزيّة وجماليّة مثل: عمود فندوم ويوجد ببستان الدوق فندوم (Place Vendome) ابن الملك هنري الرّابع (Henri IV) ملك فرنسا (1589- 1610) وفاتح عصر التمدّن الفرنسي وقد تعرّض للتخريب ثمّ أعيد ترميمه سنة 1874 وزيّن « بصفائح من نحاس أذيب من مدافع نابليون التي غنمها في الحروب وأمر بأن تنقش عليه صور أشهر محارباته

---

[1] م. ن، ص: 40.

[2] أميرة الحاج ساسي.صورة باريس في كتابات الرحالة التونسيين في القرن التاسع عشر، ماجستير في اللغة والأدب والحضارة العربية، نوقشت بإشراف الأستاذ: فتحي القاسمي، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، السنة الجامعية: 2014-2015.

[3] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 29.

[4] المصدر نفسه، ص:30.

وانتصاراته.«[1]

وقد وصف ٱبن الخوجة كذلك "عمود يوليو" الذي أقيم تذكارا لانتصار الحرية على الملك المطلق وإحياء لذكرى أحداث ثورة يوليو 1830 فوق أطلال سجن "الباستيل"[2] أي القلعة ولا يخفى أن هذا السّجن حفظ له التاريخ أسوء ذكر، حيث كان بيت العذاب الأليم. ونجد كذلك عمودا آخر بوسط ساحة الوفاق "لاكونكورد" (Place la Concorde) بوسط باريس ويسمّى الباريسيون هذا العمود " بمسلّة لكسور " نسبة إلى البلد الذي جلبت منه هذه المسلّة الفرعونيّة وهو " الأقصر".[3] وقد أهداها " محمد علي باشا " حاكم مصر إلى الملك لويس فيليب Louis Philippe) (1773- 1850).

9- قصور فرساي (Versailles):

إنها من أهمّ القصور الموجودة بفرنسا وقد أمر ببنائها الملك لويس الرّابع عشر وأنفق في ذلك أموالا طائلة. ثم تحوّلت إلى متحف يحوي أثاث الملك وذخائره وتحفه المتنوّعة والنّادرة وكذلك عددا من الصّور الدهنيّة والتماثيل التي تشخص مختلف الوقائع التاريخيّة وهي مُحاطة بالبساتين الملوكيّة المزدانة بالزّهور والأشجار ونافورات المياه وتكشف عن مدى البذخ الذي كان يعيش فيه ملوك فرنسا » **ومن أغرب ما يراه زائر قصور فرساليا كروسات الملوك الأقدمين المصنوعة بنقر الذهب الوهّاج والفضّة البهيجة.**» [4]

وقد اعتبر ابن الخوجة أنّ هذه المعالم المعماريّة من مآثر الحضارة بباريس ونتيجة طبيعيّة للعدل والأمن والحكم الرّشيد »:**وشاهدنا معنى العمران الناشئ عن انسكاب غيوث العدل المفعمة**»[5] وفي هذا إحالة على مقولة ابن خلدون بأنّ: "العدل هو أساس العمران".

III – الخصائص الاقتصاديّة:

إنّ نموّ الثروة وتجمّعها شيئا فشيئا بين أيدي فئة محدودة في المجتمع الواحد خلق تدريجيّا قوّة جديدة في المجتمع الفرنسي وهي قوّة " رأس المال " التي ستتوّلى قيادة الثورة الصناعيّة في البلاد وبناء علاقات إنتاجيّة جديدة قائمة

---

1) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:32.

2) الباستيل(Pastile) : هو سجن أنشئ في فرنسا بين عامي: 1370 و1383 وأصبح على مدار السنين رمزا للطغيان والظلم، ومنه انطلقت الشرارة الأولى للثورة الفرنسية سنة: 1789.

3) الأقصر: مدينة تقع بمصر على ضفاف النيل، وقد كانت عاصمة مصر في العهد الفرعوني.

4) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:72.

5) محمد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:74.

على الآلات والاختراعات المستحدثة كما أن استقرار النظام الجمهوري في فرنسا منذ النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر وّفر جوّا ملائما للتقدّم الاقتصادي والنهضة الصناعيّة[1] لأنّ وجود حكومة عادلة يوّفر مناخا من الحريّة ويقضي على الاحتكار ويرسي عدالة جبائيّة فيشجعّ بذلك حركة التجارة والاستثمار والتصنيع وبفضل ذلك فقد شهدت فرنسا في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر نهضة صناعيّة ورخاء اقتصاديّا في مختلف المجالات[2] وقد لاحظ ٱبن الخوجة ذلك منذ بلوغه مدينة مرسيليا حيث أعجب بمينائها التجاري واعتبره:« **أوّل موانئ البحر المتوّسط**»[3] نظرا لأهميّة التجارة البحريّة في هذه المدينة بحكم موقعها الإستراتيجي الرّابط بين ضفّتي المتوّسط.

أعجب ابن الخوجة كذلك بعناية الفرنسيين بالمجال الفلاحي واستصلاح الأراضي، إذ لا توجد أراض جرداء غير منتفع بها، وذلك بفضل استعمال الآلات وتوظيف التقنيات الحديثة في المجال الفلاحي، فيقول واصفا الطبيعة المحيطة به، عند سفره بالقطار الرّابط بين مرسيليا وباريس: "**وكان مجتازا بنا بين تلول وأثقاب جبليّة وبساتين نضرة وعمارات ومزارع بهيّة وكروم وأشجار على مدّ البصر.**» [4]

كما أنّ من دعائم النهضة الصناعيّة بفرنسا قطاع النسيج الذي تمّ تحديثه باستعمال الآلات الميكانيكيّة فتزايد الإنتاج وارتفع نسقه وخاصّة بمدينة ليون " **الشهيرة برفعة المنسوجات الحريريّة.**"[5] وهذا ما عملت فرنسا على تكريسه في مستعمراتها خدمة لمصالحها، رغم أنّ هذا كان توجّها مدمّرا للصناعات المحلية التقليدية في تونس والجزائر مثلا .

لاحظ ٱبن الخوجة تطوّر القطاع المالي والبنكي بمدينة باريس – باعتباره المحرّك الأساسي للاقتصاد الحرّ- وذلك من خلال وجود بنك مختصّ في تمويل المشروعات العقارية والأشغال البلديّة. وأشار كذلك إلى أهميّة الأسواق الماليّة "البورصة" (Bourse) في تنمية الثروات وتحقيق الرّفاه الاقتصادي « **كما يوجد بجواره دار (البورس) أي مجتمع التجّار والمضاربين في إسهام البنوك وقراطيس الماليّة الدّوليّة ولهذه الدّار ونظائرها أهميّة كبرى في البلاد الأوروباويّة الرّاتعة في ميادين الثروة والرفاهيّة.**» [6]

كما وصف ٱبن الخوجة "دار السكة" أو البنك المركزي بباريس ويختصّ بإصدار النقود ويشتمل على متحف

---

1) Voir : Francois Crouzet. L'economie Francaise du 18 au 20ème siecle. Paris : Universite de Paris-Sorbonne, 2000.p : 209.

2) مصطفى التواتي، أثر الثورة الفرنسية في فكر النهضة، (تونس: العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، 1991)، ط 1، ص: 40.

3) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:1.

4) المصدر نفسه، ص: 2.

5) م. ن، ص: 3.

6) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 23.

تاريخيّ لسائر أنواع النقود من مختلف العصور والبلدان ويمثل مركز الثروة الماليّة للدولة الفرنسيّة وانعكاسا للرّخاء الاقتصادي لهذه البلاد. « **وأطلعنا وكيل الدّار على سائر محلاّت الصنع ومستودعات الذّخائر النقديّة من نقر الفضّة والذّهب الوهّاج بحالتيهما المعدنيّة إلى انقلابهما لنقود ومسكوكات فرنسويّة، أمّا غنى هذه الدّار فيكفي عنه قولنا أنّها دار سكّة فرنسا التي يبلغ دخلها الثلاثة آلاف وخمسمائة مليون في كلّ عام.**» [1]

ومن النّفائس التاريخيّة الموجودة بهذا المتحف: نقود ذهبيّة وفضيّة من سكّة عمر بن عبد العزيز والأمويّين والحجاج والي العراق وكذلك مسكوكات من عهد العبّاسيين والحفصيّين بتونس وقد استحوذت عليها فرنسا أثناء الحروب الصليبيّة وعصور الاحتلال[2] ،وتعتبر هذه المسكوكات العربيّة القديمة وثائق تاريخيّة هامّة تكشف وتوّضح خفايا ونقاطا غامضة من التاريخ العربي الإسلاميّ ومن ذلك: اكتشاف ٱبن الخوجة أنّ الحجّاج والي العراق في عهد الأمويين قد بلغ من الاستقلالية بولايته إلى حد ضرب السكة باسمه.[3]

---

1) المصدر نفسه، ص: 34.

2) لمزيد التوسع ينظر كتاب: التراث الحضاري العربي والإسلامي خارج الوطن العربي، (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم –إدارة الثقافة، د.ط، 1991) ،صص: 14- 15.

3) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 35.

المبحث الثاني: السمّات السياسيّة

يُعدّ النظام السياسيّ الفرنسيّ من النظم العريقة في العالم بسبب التّجارب الغنيّة والثريّة التي مرّ بها عبر تاريخه الطّويل وتأثيره في كثير من النظم السياسيّة لدول أخرى وخاصّة في عالمنا العربيّ، وقد تطوّر هذا النظام انطلاقا من الثورة الفرنسيّة سنة 1789 وتقلّب بين أنظمة حكم ودساتير متعدّدة، فانتقل من الحكم الملكي الاستبدادي المطلق إلى الجمهورية ثم الحكم الإمبراطوري الديكتاتوري وعاد مرّة أخرى إلى الحكم الملكي المستنير، فإلى الجمهوريّة والإمبراطوريّة مرّة أخرى واستقرّ في النهاية على الحكم الجمهوري. وحقّق الشعب الفرنسي، على امتداد هذا التطوّر، الكثير من المنجزات والمكاسب السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ورسّخ مبادئ الحريّة والديمقراطيّة والمساواة وحقوق الإنسان التي دوّنتها دساتيره المختلفة وقد كان للأفكار والفلسفات أهميّة كبرى في تطوير هذا النظام ويتجلّى ذلك من خلال مساهمة روّاد فلاسفة التنوير من أمثال: فُولتير (Voltaire)، مُنتسكيو (Montesquieu) ورُوسو (Jean-Jacques Rousseau) في وضع الأسس الأولى للحكم الديمقراطي وحثّ المواطنين على الحصول على حقوقهم وحرّياتهم. وقد زار ٱبن الخوجة فرنسا سنة 1900 أي في فترة حكم الجمهوريّة الثالثة التي أعقبت انهيار الإمبراطوريّة الثانية نتيجة هزيمة نابليون الثالث ضدّ بروسيا[1] حيث فشل في الحرب واستسلم ووقع في الأسر، وبذلك انهارت الإمبراطوريّة الثانية بعد أن تمكن البروسيّون من محاصرة مدينة باريس وخسرت فرنسا في نهاية الحرب مقاطعتي الألزاس واللورين(Alsace-Lorraine) .[2]

وقد قادت هذه الجمهوريّة الثالثة مسيرة العلمنة والأليكة والديمقراطيّة، وأقرّ فيها دستور البلاد ووزّعت القوانين الدّستوريّة لعام 1875 السلطة التشريعيّة بين مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ المنتخبين وأصبحت صلاحيّات المجلسين واسعة في وضع القوانين ومراقبة الحكومة ومساءلتها. وقد تمّ في هذه الفترة كذلك إقرار حريّة الصحّافة والحريّة النقابيّة وحريّة إنشاء الجمعيّات المدنيّة وتم فصل الكنيسة عن الدّولة رسميّا، وشهدت الحركة الصناعيّة والتجاريّة ازدهارا كبيرا. لقد تعمّق ابن الخوجة في وصف السّمات السياسيّة لباريس وتجليتها في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر ولعلّ ذلك يعود إلى ٱنفتاحه على الثقافة الغربيّة وإتقانه للّغة الفرنسيّة وتعدّد زياراته إلى فرنسا وكذلك استفادته ممّا أورده الرحّالة التونسيّون الذين سبقوه إلى زيارة مدينة باريس، من أمثال: ٱبن أبي الضياف وخير الدّين التونسي ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي، وقد أطنبوا في التحليل والتفصيل للمجال السّياسي.

---

[1] بروسيا: اسم ألمانيا سابقا وقد استطاعت هزيمة فرنسا سنة 1871 والسيطرة على مقاطعتي الألزاس واللورين الفرنسيتين.

[2] Voir : Lucien Bely. Histoire de France, France: Edition Jean-paul Grisserot, 2006, p:127-135.

يبدو أنّ ٱبن الخوجة، بحكم كونه رجل الإدارة في المنظومة الاستعماريّة بتونس ومن المقرّبين إلى البلاط الملكي، قد أراد أن يتناغم مع التوّجهات الإصلاحيّة الرسميّة الظّاهريّة السائدة في تلك الفترة – إرضاء للباي ولسلطة الحماية الفرنسيّة – فركّز على تجلية المبادئ وتثمين القيم السياسيّة التي ساهمت في تحقيق نهضة الأمّة الفرنسيّة. وفي هذا الإطار اعتبر المفكّر التّونسي مصطفى التواتي أنّ العقلنة هي بالذات أوّل ما شدّ انتباه الرحّالة العرب في أوّل لقائهم بالحضارة الغربيّة، وخاصّة عقلنة السّلطة السياسيّة، « **بالقياس إلى الواقع اللاّعقلاني والعشوائي الذي كان يسود المجتمعات الشرقية في مختلف مجالاتها، حيث يمكن للعقل أن يرسم بوضوح رسما بيانيّا لهذه السلطة من قمّة هرمها إلى قاعدتها كما يمكنه أن يستوضح العلاقات التي تحكمها والتي تربط بينها وبين المواطن في إطار ما يسمّى بالقوانين والدّستور.** »[1]

وقد تجلّى ذلك تطبيقيّا، بجعل السلطة تنبع من الشعب، وبتوزيعها بين ثلاث سلطات مستقلّة عن بعضها البعض، وهي: السلطة التشريعيّة والسلطة القضائيّة والسلطة التنفيذيّة. وقد قسّمت السلطة التشريعية بين مجلسين منتخبين هما : مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب وقد وصف ابن الخوجة المهامّ الموكولة إليه بقوله » :**ولا يخفى أنّ هذا المجلس هو الذي يدبّر بفرنسا مع مجلس الشيوخ سينات(Senat) كلّ أمر ذي شان ولا نبالغ إذا قلنا أنّ بيده سعادة الأمّة وشقاوتها، ولكن لمّا كانت أصول الجمهوريّة شوريّة، كانت أعمال النوّاب سائرة على صراط قويم** ».[2] ولا يخفى ما في حديث ابن الخوجة من حسرة مكبوتة على ما كانت عليه الأمم الشرقية، ومنها تونس، من غربة عن هذه الواحة القانونية الجالبة للسّعادة الجماعية.

كما تنّبه ابن الخوجة إلى مظهر من مظاهر العلمانيّة بباريس وهو انفصال الكنيسة عن السياسة والدّولة، بعد صراع مرير بينهما، انتهى إلى سحب البساط من تحت الكنيسة وتفرّغها لآداء الوظائف والشعائر الدّينيّة.[3] إذ يقول في وصف كنيسة سانت مادلين ":**وكانت العادة جرت من قديم بتخصيصها للاجتماعات الكبيرة الدينيّة، إذ هي كانت معدّة لتتويج الملوك الفرنسويين، كما أنّها بقيت لهذا اليوم معبدا لإقامة الشعائر والصلوات عند موت عظماء القوم أو إشهار أنكحتكم أو ما شابه ذلك.**» [4]وقد لاحظ ابن الخوجة تحوّل السياسة لدى الباريسيين إلى علم له قواعده وضوابطه. « **يوجد ضمن مشيخة العلوم بباريس ديوان للعلوم**

---

[1] مصطفى التّواتي. أثر الثورة الفرنسيّة في فكر النهضة، ص: 17.

[2] محمّد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريس، ص:33

[3] ينظر: فتحي القاسمي. "العلمانية وانتشارها غربا وشرقا"، سلسلة موافقات، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1994)، ط 1 .

[4] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 21-22.

الأدبيّة والسياسيّة، وبه أربعون عضوا وظيفتهم النظر في متعلّقات الفلسفة والآداب والأخلاق والحقوق والفتوى والاقتصاد السياسيّ وفلسفة التاريخ».[1] كما لفتت انتباهه ظاهرة اشتراك الفرنسيين وتوحدهم في حب الوطن والذود عنه والسعي إلى نهضته، رغم اختلافاتهم السياسية الداخلية.« **فجيل الفرنسيّين وإن اختلفت مشاربه في سياسة الأمور الدّاخليّة التي تتنازعها عوامل الحريّة بدرجاتها، أعني من الحريّة المقيّدة والمعتدلة إلى الحريّة المتطرّفة التي تولّد منها الاشتراك والفوضى، كلّهم يستوون في إحساس واحد ونهضة واحدة في المحافظة على شرفهم وإعلاء مركز أمّتهم بين الأمم».**[2]

كما أعجب ابن الخوجة بمدى مراعاة العدل واحترام حقوق الإنسان وحريته الشخصية من قبل الجهاز التنفيذي الشرطة وذلك مقابل الاستبداد الشرقي وغياب سلطة القانون » .**أما رجال الشرطة في فرنسا فهم أميل الناس للإنصاف والتباعد عن المظالم وكدت أن لا تسمع فيهم شكوى، وليسوا بالمتجسّسين على أحوال أحد إلاّ من تعلّقت الإرادة بتتبع سيرته حسب إذن من رئيس ديوان الشرطة، بل وكثيرا ما تحدث وقائع ليليّة بمحلاّت النزهة واللّهو يخجل لسماعها صاحب الذوق السليم، والبوليس يتحاشى عن ضبطها أو التداخل فيها وهذا من الأمور التي قضت عليّ بالاستغراب. ولم أتدبّرها إلى الآن.»** [3]

يؤكد ابن الخوجة على أن العدل والحكم الرّشيد والالتزام بالحق هو أساس الحضارة والعمران بينما الظلم والاستبداد هو السّبب الرّئيسيّ للتخلّف والانحطاط، ولا تخفى علاقة ذلك بالثقافة الخلدونية لجيل ابن الخوجة، إذ كان متشبعا بما ورد في مقدمة ابن خلدون من أن العدل أساس العمران والظلم طريق إلى خرابه » .**ودامت السلطة الإسلاميّة حاملة لراية العرفان قابضة بيد عدالتها على ميزان الحق إلى الوقت الذي سرى في أعصابها داء الاستبداد الناشئ عن تقهقر سلطان العلم فولّت في سيرها الأدبار وسبحان محوّل اللّيل والنّهار».**[4]

ونلحظ من خلال هذا دعوة ضمنيّة إلى إرساء حياة سياسيّة شبيهة بما يوجد بباريس، لا سيّما في الدّول العربيّة والإسلامية التي كانت مقموعة ومحكومة بقوى الاستبداد والقهر، ونستشف هذا بجلاء في نبرة التحسّر والأسى التي طغت على كلام ابن الخوجة أثناء رحلة عودته من باريس »**:وسرّحنا ثاني مرّة طرف الطرف في**

---

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز ،ص: 40.

[2] المصدر نفسه، ص: 51.

[3] م. ن، ص:52.

[4] م، ن، ص: 56.

رياض تلك البراري النظرة وشاهدنا معنى العمران الناشئ عن انسكاب غيوث العدل المفعمة". [1]

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:74.

المبحث الثالث: الملامح الاجتماعيّة

تتجلّى الملامح الاجتماعية في الأخلاق والعادات السلوكيّة وطرق وأساليب تنظيم وتسيير الحياة الخاصّة والعامّة للأفراد والمجتمعات وتتصف الخصائص الاجتماعيّة للمدنيّة بطابعها العقلاني العلمي والوظيفي، كما أنّ الحياة في المدينة تنتج عادات أخلاقية وسلوكيّة وقيميّة وأسلوب حياة مخصوص يتطلبّ الخضوع إلى القوانين والمؤسّسات والتشكيلات الاجتماعيّة ويستدعي عمليّة تكيّف وتعديل سلوكي مستمّر تعدّ معيارا مهمّا من معايير التمدّن والتحضّر. وتعدّ مدينة باريس في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر بيئة خصبة لدراسة الملامح الاجتماعيّة للمدنيّة نظرا لتضافر العديد من العوامل الفكريّة والعلميّة والسياسيّة التي ساهمت في تشكيل الخصائص السلوكيّة والأخلاقيّة للباريسيين وبلورتها.

لقد أطنب ٱبن الخوجة في وصف عوائد الباريسيين وأخلاقهم لكنّه نبّه إلى عدم التسرّع في الحكم عليها إذ يجب إخضاعها للنظر المعمّق وللتفكير المتروّي » **وعرضها على محكّ النقد والاختبار، إذ ربّما يرى من تطوّرات وعوائد وأخلاق البلاد الفرنسويّة أمورا ينكرها ذوقه السليم بداهة، ثمّ يقبلها فكره ودقيق نظره**»[1].

I- الخصائص السلوكيّة لأهل باريس :

أعجب ٱبن الخوجة بولع الباريسيين بالحياة الاجتماعيّة وبالترفيه والتّرويح عن النّفس على أرصفة الشوارع ، من خلال ملاحظة كثرة ملاهي وقهاوي العاصمة الباريسيّة بالشوارع العامّة ».**وهاته الشوارع وتسمّى بالفرنسويّة البلفار (Boulevard) عبارة عن طرق فسيحة جدّا، طويلة تبلغ في امتدادها لعدّة أميال ومن أشهرها وأبهجها منظرا شارع المادلين(Av.Madelaine) نسبة للكنيسة المسمّاة: سانت مادلين (Saint Madelaine) أي مريم المجدلانيّة**[2].»[3]

وقد انبهر ابن الخوجة كذلك، بـاعتناء الباريسيين بالمسارح وبدور الملاهي والترفيه حتى إنّ الدّولة تخصّص ميزانيّة لدور المسرح والفنون، نظرا إلى أهميّة الثقافة والفنون في تهذيب الأذواق والحثّ على الفضيلة « **الملهى المسمّى تياتردي لوبيرا (Théatre de L'opéra) وهو أعظم وأشهر ملهى بفرنسا إن لم نقل بأوروبا أجمع وقد دامت أشغال بنائه خمسة عشر عاما وأنفق عليه 65 مليون فرنك وبه من عجائب النّقوش وثمين الكسوِ ما يحتار لرقّة صنعه صاحب**

---

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:7-8.

[2] مريم المجدلانية(Marie de Magdala) : من أهم النساء اللواتي آمن بالمسيح وتبعنه وقد تحولت إلى قديسة في نظر المسيحيين.

[3] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 20، 21.

الذوق السليم، وقد رأت الدّولة أن هذا الأثر الجميل والبناء المشمخر جدير بعنايتها فخصّصت له إعانة سنويّة للقيام بشؤونه قدرها ثمانون ألف فرنك.»[1] كما لاحظ ٱبن الخوجة أهميّة فنّ المسرح بباريس في تشخيص الواقع الاجتماعي ونقده بأساليب فنيّة مختلفة « **الملهى المسمّى تياتردي فاريتي(Théatre des varietés) أي ملهى التنّوعات كناية على أنّه يقع به تشخيص الروايات المختلفة من هزليّة وجدّية وحزينة وغيرها**».[2]

ويحتلّ التّعليم بفرنسا عموما وبباريس خصوصا مكانة محوريّة لأنّه منبع النهضة العلميّة والفكريّة والصناعيّة التي شهدتها الأمّة الفرنسيّة، وقد عاين ابن الخوجة ازدهار التّعليم وكثرة عدد المتعلمين بباريس وتركزها في مركّبات تعليميّة تحوي عدد المدارس في مختلف الاختصاصات" **ومن الشوارع الجامعة طريق القدّيس سان جرمان (Saint-Germain) القريب من شارع القدّيس سان ميشال (Saint-Michel) وحواليه توجد مدارس التعليم التي يأهلها عشرات الألوف من التلاميذ ويسمون هذه المحلّة بالحارة اللاّطينيّة** »[3].

1- الاهتمام بالمتاحف والأضرحة الوطنيّة:

إنّ الاهتمام بالمتاحف ،والاعتناء بها، وكثرة ارتيادها وزيارتها من طرف الباريسيين، يعدّ من الخصوصيّات الاجتماعيّة والثقافيّة للشعوب المتمدّنة لأنّها تساهم في حفظ تاريخ الأمّة وذاكرتها الوطنيّة وتراثها من التلاشي والنسيان، كما تساعد على تنمية الذوق الفنيّ والجمالي لدى مرتاديها وزائريها، ومن أهمّ وأبرز المتاحف التي توجد بمدينة باريس: "متحف اللوفر" (Musée du Louvre) وقد " **كان متحف اللّوفر منذ سالف العصور قلعة بمثابة الحصن تتوّلى حماية المدينة من أيّة مفاجآت خارجيّة وقد وقع بناؤه من قبل الملك فيليب أوغست (Philippe-Auguste)-(1165-1223) بغية الابتعاد والحذر من المفاجآت التي يمكن أن تقع على المدينة أثناء غياب الملك وانهماكه في الحملات الصليبيّة. ثمّ تحوّل هذا المعلم لاحقا من قلعة إلى قصر ملكي يقطنه الملوك والأمراء على مرّ العصور وتعاقب الأزمان، لينتهي به الأمر إلى أن تحوّل من جديد إلى متحف فنّي يضمّ عددا من الموميّات المصريّة التي وقع تصبير أجسادها لآلاف السّنين إضافة إلى التحف والتماثيل والحجارة والرّسوم واللّوحات ومن أهمّها لوحة الرسّام ليوناردي فنشي[4] المعروفة بالموناليزا**".[5]

---

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:22.

[2] المصدر نفسه، ص:23.

[3] م. ن، صص: 23-24.

[4] ليونار دي فنشي(Léonard de Vinci) - (1452- 1519): يعد من أشهر فناني النهضة الإيطاليين وكان عالما موسوعيا (رسام، نحات ومعماري).

[5] أميرة الحاج ساسي. صورة باريس في كتابات الرحالة التونسيين في القرن التاسع عشر، ص:61.

وقد زاره ٱبن الخوجة هذا المتحف، وأعجب بمحتوياته النادرة وذخائره النفيسة أيّما إعجاب "**ومبانيه مشمخرة مسامتة لبعضها ومتماثلة في الشكل وبوسطها بطحاء واسعة رصّعت أعاليها بتماثيل عظماء الفرنساويين على اختلاف العصور وهو ذو قاعات فسيحة ومعارج كانوا عليها يظهرون وبداخله من غرائب الآثار وآثار الثروة ما قام ببيانه التّاريخ الفرنساوي واشتهر بين النّاس ذكره**».[1]

كما أشار ٱبن الخوجة إلى كثرة المتاحف وتنوّع اختصاصاتها بمدينة باريس ومنها: متحف الآثار الحربيّة الكائن حول ضريح نابليون » **وفيه من ذخائر الحروب وآلاتها ما شاهده أهل العصور على كرّ الدّهور**».[2] ونجد بمدينة باريس كذلك، متاحف تاريخيّة تعرض أشهر الوقائع التّاريخيّة للأمّة الفرنسيّة الحديثة منها والمتأخرّة مثل المتحف المسمّى موزي غروفان (Musée Grévin) وقد لاحظ ٱبن الخوجة كذلك وجود متاحف أدبيّة تعرض آلات الموسيقى والألحان.

وإضافة إلى ذلك فقد خصص أهل باريس مدفنا لعظماء الأمّة الفرنسيّة من خلال إنشاء معلم البانتيون (Panthéon) سنة 1781 وهو يضمّ العديد من الفلاسفة والمفكرين والعلماء وفي هذا اعتراف بالجميل لهؤلاء الذين صنعوا أمجاد الأمّة الفرنسيّة وتخليدا لذكرهم وقد كتبت على واجهة هذا المبنى الدّاخليّة العبارة الآتية: « **إلى عظماء رجاله يعترف الوطن بالجميل**».[3] وقد أقام الباريسيّون كذلك ضريحا فخما للإمبراطور الفرنسي نابليون الأوّل بمنطقة: ايسبلاناد ديز نفاليد (Esplanades des Invalides) نظرا إلى أنّه صنع العديد من الأمجاد والانتصارات والمآثر للأمّة الفرنسيّة فهو:« **محيي مجد أمّة الفرنسيس ومنظّم أحكامها وناشر ألوية فخرها بين العالمين**».[4] ويضمّ محل "الأنفليد" تابوت هذا الإمبراطور. ونجد » **في أعلى ذلك المكان قبّة عالية من الذهب الخالص وإلى جانب هذا التّابوت كتابة ذكر فيها أسماء الانتصارات والحروب التي خاضها نابليون والعديد من الرّايات وخزانة تحتوي على ثياب نابليون وسيفه وصور لحملاته العسكريّة وانتصاراته الساحقة**».[5]

2- وصف متنزّهات باريس وبساتينها:

---

[1] محمد بن الخوجة.سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 27.

[2] المصدر نفسه، ص:28.

[3] م. ن، ص: 29.

[4] م. ن، ص:30.

[5] أميرة الحاج ساسي. صورة باريس في كتابات الرحالة التونسيين في القرن التاسع عشر، ص:62.

إنّ من خصائص الشعوب المتمدّنة حسن استثمار الوقت والحرص على تنظيمه، وذلك بتخصيص وقت للعمل والكدّ ووقت للتّسلية والتّرويح عن النّفس، وتجعل لذلك فضاءات ومناطق خضراء، ومن هذا المنطلق اعتنى الفرنسيون فائق العناية بأماكن التّرفيه والتنّزه واللّهو، لأنّها تجدّد النشاط، وتسرّي عن النّفس، وتقوّي العزم على المضيّ قدما في الكدّ والعمل. كما أنّها تساهم في تهذيب الذوق وترقية الإحساس الفنّي والجمالي لدى الشعوب، خاصّة أن مفهوم الصحة الحديث له علاقة مباشرة بكلّ الجوانب الحياتيّة والاجتماعيّة للإنسان. « **فهو يشمل التمتّع بقوى جسميّة وعقليّة ونفسيّة جيّدة تستطيع إنجاز اختصاص العمل بكلّ جدارة والتمتّع بالحياة في أوقات الرّاحة**».[1]

هذا المفهوم الحديث للصحّة في حاجة إلى توفير مستلزماته الخاصّة والعامّة ومن هذه المستلزمات: وجود حدائق ومتنّزهات عامّة جميلة وكثيرة بين المناطق السكنيّة وخارجها ».**إن كثرة وجود هذه المباهج الحيويّة (الحدائق والمتنزّهات الواسعة) لها أهميّتها في رفع المستوى الصحّي لسّكان المنطقة ولإنعاشها نفسيّا، حيث أنّ المناظر الجميلة والأشجار المورقة الخضراء والورود المتفتحة – وخاصّة إذا توّفر في كلّ متنّزه أو حديقة عامّة فرقة موسيقيّة– تساعد في رفع نفسيّة العامل والطّالب والمواطن وتجعله متفائلا في الحياة، متفائلا في الدّراسة وفي العمل وبعيدا عن الكآبة والحزن وروتين العمل** ».[2] وقد لاحظ آبن الخوجة جليّا، اعتناء الباريسيين أشدّ الاعتناء بمتنزّهاتهم وتأنّقهم في ترتيب أماكن لهوهم وتسليتهم وتنظيمها.

أ– وصف روضة الأصفياء: شانزيليزي (Champs-Elysées):

هي حديقة شاسعة مجهّزة بكلّ المرافق الضروريّة لتيسير التجوال في أرجائها ولتوفير الرّاحة لزائريها من مقاعد وكراسي وفوانيس كهربائيّة وأشجار وارفة الظّلال وحوانيت للباعة، كما تجري فيها العديد من العروض الترفيهيّة والتنشيطيّة من موسيقى وسحر ورواية القصص والحكايات».**ومن أبهج بقاع النّزهة وأجملها بباريس المكان المسمّى بروضة الأصفياء (شانزيليزي). وهو عبارة عن حديقة رحيبة في الطول والعرض ذات شطرين، كلّ منهما ذو مقاعد وكراسي وفوانيس كهربائيّة وأشجار وأنوار محكمة الترصيع وحواليه يمينا وشمالا محلاّت النّزهة والملاهي وحوانيت الباعة التي فيها من كلّ فاكهة زوجان، وأرضه مبلّطة بالخشب الصّقيل كغالب شوارع باريس، وفي هذه الحديقة الجميلة يرى النّاظر من كلّ شيء أحسنه، وبها من سائر**

---

[1] عبد الحسين بيرم، "علاقة الحدائق والمتنّزهات العامّة بمفهوم الصحّة الحديث" ،الثقافة العربيّة، العدد الثالث، (قطر: 1977)، ص:142.

[2] المرجع نفسه، صص:142-143.

أنواع الفكاهات والألعاب بين مزمّرٍ ومشعوذٍ ومغنٍّ وعازفٍ وساحرٍ وقصّاصٍ ».[1]

ب– وصف غابة " بلونيا(Bois de Pologne) " :

هي عبارة عن بستان شاسع وممتدّ يحتوي على تنوّع هائل للأشجار والنباتات والحيوانات والطّيور المستجلبة من سائر البلدان، وتتميّز هندسة هذه الغابة بالترتيب والتنظيم، وعليها مسحة من الذوق الفنيّ والجمالي الرّاقي، وبها سائر أنواع الترفيه والاستجمام من مَقاهٍ ونُزلٍ ومَلاهٍ.« **وليس بباريس أحفل ولا أجمل من هذا المكان إلاّ البستان العظيم المسمّى (بوي دي بولونيو) أي غابة بلونيا وهي عبارة عن ندحة من الأرض واسعة ممتدّة كلّها شجر وحياضٍ ومماشٍ وظلال تجري من تحتها الأنهار وبه طرق فسيحة للعواجل ومقاعد وشلاّلات ينحدر منها الماء وآجام ورياض وقهاوي وخانات وملاهي وفيه من سائر نباتات الدّنيا وحيواناتها وطيورها، وقد بالغ بعضهم في وصفه فقال: إنّه راموز (رمز) الجنّة وأنا أكتفي بقولي: أنّه راموز نعيم الدّنيا».**[2]

كما لاحظ آبن الخوجة أنّ زيارة المتنزّهات والبساتين وارتياد أماكن اللّهو والتسلية تحوّلت إلى عادة اجتماعيّة راسخة لدى الباريسيين لأنّها تمثل مظهرا من مظاهر الانفتاح والتشارك الاجتماعي بين الرّجال والنّساء « **وهذا البستان (أي غابة بولونيا) تنتابه الرّجال وأكثر منهم النّساء للتنزّه به في الغدوّ والآصال حيث يقدم الشقّان في ألوف مؤلفّة من العربات التي تجرّها عتاق الخيل أو تسير بها فاعليّة الكهربائيّة من الصّباح إلى المساء ».**[3]

II– وصف أخلاق أهل باريس :

إنّ الارتقاء الفكري والتطوّر العلمي له تأثير مباشر في أخلاق الشعوب وعوائدها، ومن هذا المنطلق فقد عاين آبن الخوجة بجلاء ارتقاء السلوك المدني والاجتماعي لأهل باريس حيث ينعدم التنازع والشجار بينهم ويطغى عليهم النّظام وحسن المعاشرة واحترام الآخر .ولاحظ آبن الخوجة ،متحسّرا، المفارقة الكبيرة بين السّلوك الاجتماعي المتخلّف للنّاس في عالم الشرق والسلوك الاجتماعي الرّاقي والمتمدّن للنّاس في عالم الغرب.« **وكلّ هذه المنازه غاصّة في كلّ حين بالمتفرّجين وحركة بعضها في اللّيل أكثر ممّا بالنّهار ولا تجد بها في وقت من الأوقات متنازعين فضلا عن متشاجرين مع شدّة الازدحام عليها إذ ليس فيها من يكدّر راحتك بتجشّئه ولا يخلع نعله ويمدّ رجله في وجهك أو يبذر غبار نشوقه في عينيك، بل كلّ عالم بما له وما عليه من حقوق المعاشرة**

---

[1] محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:43-44.

[2] المصدر نفسه، صص: 45-46.

[3] م. ن، ص: 46.

والجوار».[1]

يعتبر آبن الخوجة أنّ تقدّم أهل باريس – حاضرة المدنيّة الفرنسيّة – إنّما يعود بالأساس إلى سلوك سبيل التفكير العلمي والعقلاني، ونبذ الأوهام والخرافات التي جعلت الشرق يتقهقر ويتخلّف، وقد وضع بذلك إصبعه على موطن الدّاء الذي ينخر الشرق وأشار إلى الدّواء بصفة واضحة وجليّة في قوله » :**وقد قضت عليّ مشاهدة اعتنائهم بالعلوم بأنواعها، وإقبالهم على التّرقيات الفكريّة، ونبذهم ظهريّا للأوهام والعوائد السّخيفة التي لم نزل في بحار جهالتها بالتفكّر والاعتبار، ورجعت القهقري للنّظر في حضريّتنا السالفة ومقابلتها بحضريّتهم. ثمّ بما نحن عليه الآن. فوجدت أنّ أسباب تقدّمهم هي أسباب تقدّمنا في القديم. وأنّ العلوم التي ارتقت بهم اليوم لأوج المعالي. هي التي ساد بها أسلافنا مدّة المئين الطّولى من السّنين».**[2] ومن الطريف أن ابن الخوجة زاد هذه المقارنة وضوحا وتجلية بإيراده في ذيل كتابه قصيدة لمحمد الحشايشي عبّرت عما كان يختلج في صدره (أي ابن الخوجة) وإن لم ينطق به لسانه.

ويتحلّى الباريسيّون – في نظر آبن الخوجة – بخصالٍ عديدةٍ منها اللّطف والكياسة والتواضع وحبّ مساعدة الآخرين » .**أمّا أخلاق أبناء باريس فهي من أنفس نفيس إذ هم أهل ليانة وكياسة قلما توجد عند غيرهم من الأوروبّاويّين. وبقدر ما يغلب على طبيعة غيرهم الكبر والعجب. يوجد عندهم عكس ذلك من الأوصاف الحميدة التي ينشرح لها الغريب في بلادهم، فقد رأينا من أفراد آحادهم ممّن ليس له علاقة أصلا بالشرطة ورجالها قضاء الوقت الطّويل في إرشاد الغريب مع بشاشة وطلاقة محيّا، ويرون ذلك من أوجب الواجبات عليهم».**[3] كما يتميّز أهل باريس بنزعتهم الوطنيّة فرغم اختلافاتهم السياسيّة. فإنهم يشتركون كلّهم في حبّ الوطن والذّود عنه والإخلاص في خدمته. « **يستوون في إحساس واحد ونهضة واحدة في المحافظة على شرفهم وإعلاء مركز أمتّهم بين الأمم ولقد قاموا غير مرّة بأدلّة واضحة وبرهنوا عن هذا الإخلاص في خدمة وطنهم الذي يرون دونه أرواحهم بما جعل لهم المكانة المكينة والقدم الرّاسخ بين الملل والنّحل».**[4]

ولقد عاين آبن الخوجة حسن تنظيم الوقت لدى أهل باريس إذ يقسّمونه إلى وقت للعمل والكدّ ووقت للّهو والتّسلية، دون تداخل بين هذا وذاك وقد ساهم ذلك في تنمية قدرتهم على العمل وإتقانه والإبداع فيه.

---

1) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 47.

2) المصدر نفسه، ص:47.

3) م. ن، ص: 51.

4) م. ن، ص:51.

يـرُى بِاللَّيْلِ عِنْدَهُمُ مُجُـونٌ وَلَهْوٌ وَآنْبِسَـــاطٌ وَآنْشِـــرَاحٌ

وَكَدٌّ ثُمّ جـدّ فِي عُلُـــوم تُضِيءُ الكَوْنَ إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ [1]

(بحر الوافر التام)

كما لاحظ آبن الخوجة تميّز الشخصيّة الباريسيّة بسماتٍ مخصوصةٍ فلديهم ولعٌ كبيرٌ بالمطالعة وقراءة الصّحف، وحبّ للاطّلاع على كلّ جديد وحديث من الأحوال والأخبار، ممّا ساهم في تنمية ثقافتهم العلميّة والسياسيّة وأكسبهم قدرة على النّقد وإبداء الرأي في الأمور العامّة ومصالح الجمهور وقد قوّى ذلك من عزائمهم على الانصراف » **نحو المساعي الجسيمة والمشروعات الخطيرة**».[2] وكلّ هذا يثبت ترسّخ سمات المواطنة الصالحة لديهم وتمظهرها من خلال أعمالهم وسلوكاتهم.

III– المرأة الباريسيّة :

يمكن أن نعدّ آبن الخوجة من المصلحين التونسيّين المستنيرين الذين تميّزوا بنظرة منصفة وعادلة إلى المرأة، فقد دعا إلى تمكينها من حقّها في التّعليم كي تنجح في تربية أبنائها « **لكي تحسن المرأة توجيه تربية طفلها يجب أن لا تفوّت الفرصة لتكون هي نفسها متعلّمة**».[3] وقد اعتبر أن التّشريع الإسلاميّ يؤكد على أن طلب العلم واجب وفرض على المرأة مثلها في ذلك مثل الرّجل وقد استشهد بالمكانة الكبيرة للمرأة في عصور ازدهار الحضارة العربيّة الإسلاميّة بفضل إسهاماتها الفكريّة والأدبيّة المتنوّعة، كما اعتبر أنّ المرأة هي المعلّمة الأولى للطّفل لأنّها تنقش على صفحة ذاكرته البيضاء المبادئ الأولى للقيم والأخلاق الحسنة التي ستصنع شخصيّته في المستقبل[4] وقد نظر آبن الخوجة إلى المرأة باعتبارها شريكا للرّجل وليست مجرّد أداةٍ للمتعة أو خادمة له. « **ينبغي تعليم المرأة القراءة والكتابة ومبادئ العلوم بمقدار ما يكفيها لمعرفة دينها حتى إذا اقترنت شاركت الرّجل في فكره**».[5]

وتستشفُّ النّزعة التحرريّة لأبن الخوجة، عندما دعا إلى الزّواج بامرأة واحدة إذ قال:"**شقاء الإنسان أن يطيع**

---

1) محمد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز ، ص:51 ،

2) المصدر نفسه، ص:53.

3) Voir : Mohamed Ben Khouja. La femme arabe et l'instruction, Revue Tunisienne, 1896,№ 11,p: 430-445.

4) Voir : Mohamed Ben Khouja. La femme arabe et l'instruction, p: 430-445.

5) محمّد بن الخوجة. الرّزنامة التونسيّة ،(تونس: المطبعة الرّسميّة، 1902) ،ص:183.

هواه ولا يتبع حكم العقل بالاقتصار على الزّوجة الواحدة».[1] كما يساند ٱبن الخوجة فكرة خروج المرأة إلى العمل بالتأكيد على دورها الفاعل باعتبارها شريكا للرّجل في الحياة الاقتصاديّة. ونتبيّن هذا من خلال مقاله (النّساء المشتغلات في فرنسا) ،إذ يقول فيه:« **يقدّر علماء الإحصاء مجموع النّساء الفرنسويّات اللّواتي لهنّ عشرين سنة فما فوق إلى 13 مليون نسمة، منهنّ ما يقرب من النّصف يحترفن ويسترزقن بأنفسهنّ من تعاطي الصّنائع».**[2] وفي ذلك دليل على الوعي المبكّر لدى ابن الخوجة بتحرير المرأة، وضرورة فكّ قيدها وتشريكها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

انطلاقا من هذه الخلفيّة الفكريّة، ستتحدّد نظرة آبن الخوجة إلى المرأة الباريسيّة، فقد شدّ انتباهه التحرّر الكبير الذي تتميّز به النساء الباريسيّات، فهنّ تمرحْنَ طولا وعرضا، نهارا وليلا في البساتين والمتنزّهات دونما حرج أو تعرّض لمضايقة من طرف الرّجال » .**وليس هنالك منظر أجمل من مشاهدة عدّة آلاف من الكرّوسات تسير في علن واحد بين ظلال بستان واحد وفوقها بنات الجنس اللّطيف متكئّات كأنّما هنّ على نمارق وفرش وعلامات الانبساط والتّيه تتلألأ على وجوههنّ».**[3] ولا يخفى ما في وصف ابن الخوجة من إعجاب بهاته الباريسيات الحسان في مقابل عالم الانغلاق والتزمت والمحافظة القلقة الذي تعيش فيه المرأة الشّرقية.

كما برعت المرأة الباريسيّة في فنون الغناء والرّقص والتّمثيل حيث أنّ هؤلاء الفنّانات اعتدن تقديم عروض فنيّة للجمهور سواء في المتنّزهات أو في المسارح ويحصلن مقابل ذلك على « **الأموال الطّائلة والسّمعة الهائلة»**[4] وقد تعجّب ٱبن الخوجة من جرأة المرأة الباريسيّة وحبّها الشديد للإطّلاع والتعرّف على الغرباء والاختلاط بالرّجال « **ولم تر عيني أكثر تعجّبا من نسائهم فإنّهنّ ميّالات لكلّ جديد وسائلات عن كلّ ذي شكل وحيد، بحيث أنّ الغريب في بلادهم، سيّما إذا كان زيّه مخالفا لزيّ رجالهم، ربّما استوقفنه وفاتحنه بالكلام عدّة مرّات في اليوم».**[5] ولكن رغم إعجاب ٱبن الخوجة بخصال المرأة الباريسيّة وتحرّرها، فإنّه يبدي بعض الامتعاض والاحتراز من انعدام العفاف لديها، وعدم تقيّدها بالضوابط الأخلاقيّة، إذ يقول متحدّثا عن عالم المتنّزهات ليلا: «**أمّا منظرها في اللّيل حال انتشار الجنس اللّطيف بجنيناتها، فأمره مهول وحديثه يطول.**»[6] ثمّ يضيف

---

1) محمّد بن الخوجة. الرّزنامة التونسيّة، ص:57.

2) المصدر نفسه، ص: 125.

3) محمّد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، 1900، ص:43

4) المصدر نفسه، ص:44.

5) م. ن، ص:52.

6) محمّد بن الخوجة. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:44.

لاحقا:« **وكثيرا ما تحدث وقائع ليليّة بمحلاّت النّزهة واللّهو يخجل لسماعها صاحب الذوق السليم**».[1]

وهذا ما يكشف لنا التعامل العقلاني النقدي لابن الخوجة مع الحضارة الغربيّة القائم على التماس الفضائل واقتباسها، ونبذ الرّذائل والتنفير منها، فهناك دعوة إلى الاقتداء بالمرأة الفرنسيّة لكن مع احتراز شديد، إذ يقول منكرا تقليد المرأة العربيّة المسلمة للمرأة الغربيّة في قشور الحضارة ومظاهرها السطحية، دون الاقتداء بها في الجوهر: من مواهب فكرية وثقافية وخصال حميدة » **يظهر ممّا نراه الآن أنّ المرأة المسلمة على العموم أخذت تباري المرأة الغربيّة في مضمار الأزياء الحديثة أي المودة (La Mode) فتراها لا همّ لها إلاّ اقتناء أدوات الزّينة التي تجعل التكلّف ظاهرا في جمالها** ».[2]

---

[1] المصدر نفسه، ص:52.

[2] محمّد بن الخوجة. الرّوزنامة التونسيّة، 1902، صص: 191،192.

خاتمة الفصل

لقد عملنا في هذا الفصل الثاني من بحثنا على إبراز خصائص المدنيّة في باريس في النّصف الثاني من القرّن التّاسع عشر من خلال مؤلف محمّد بن الخوجة " سلوك الإبريز في مسالك باريز". فتطرّقنا إلى بيان الخصائص العلميّة والعمرانيّة والاقتصاديّة للمدنيّة الباريسيّة حيث تبيّنا أن مدينة باريس قد شهدت في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر نهضة صناعيّة وعمرانيّة واقتصاديّة غير مسبوقة في تاريخها ممّا جعلها تتحوّل إلى مركز عالميّ في العلوم والاقتصاد والعمران، فقد ظهرت بها وسائل نقل بريّة وبحريّة حديثة بفضل العديد من الاختراعات والابتكارات الجديدة مثل العربة التي تسير بطاقة البخار أوالكهرباء والترامواي الكهربائي وكذلك القطار السّريع الرّابط بين المدن، كما تحتوي مدينة باريس على مكتبة وطنيّة ضخمة عامرة بشتّى الكتب والمخطوطات النفيسة من مختلف ثقافات وحضارات العالم وفي مجالات معرفيّة وعلميّة وفكريّة متنوّعة. وهذا يثبت أنّ المدنيّات العظيمة لا تنشأ من فراغ بل تبنى بالاستفادة من الإرث المعرفي والعلميّ للإنسانيّة الذي يشكل قاعدة صلبة للابتكار والاختراع والتّحديث.

كما تبيّنا أن الحضارات والمدنيات العظيمة بعد أن تتمكّن من عالم الأرض ترنو إلى عالم الفضاء محاولة استكشافه وسبر أغواره وذلك من خلال وصف "دار الرّصد" بباريس التي تحتوي على العديد من المناظير الفلكيّة المستخدمة في مراقبة الكواكب ودراستها. وقد استنتجنا أنّ الطّاقة تعدّ ركيزة أساسيّة لكلّ نهضة صناعيّة وعلميّة تؤدّي إلى ظهور مدنيّة حديثة وقد تجلّى ذلك بباريس من خلال استغلال طاقة الفحم الحجري لإنتاج الطاقة البخاريّة لتنمية الصناعة وكذلك تطوّر إنتاج واستعمال الطّاقة الكهربائيّة لتسهيل المواصلات من خلال تسيير وسائل النّقل الحديثة وتوفير رفاهة العيش للمواطنين من خلال إنارة البيوت والشوارع والميادين. وقد استنتجنا كذلك أن الارتقاء الحضاري والعلمي للأمم والشعوب ينعكس على مظاهرها العمرانيّة، فيكتسب العمران بالإضافة إلى قيمته الوظيفيّة العاديّة قيمة جماليّة وفنيّة ويتحوّل إلى وسيلة تعبيريّة لها وظائف متعدّدة.

لقد انبهر ابن الخوجة بما تزخر به مدينة باريس من معالم وصروح معماريّة فخمة وأخاذّة تكشف النهضة العمرانيّة الكبيرة التي تعيشها ومدى تطوّر الذائقة الفنيّة والجماليّة لدى مهندسيها. كما تنبّه إلى الارتباط الوثيق بين الجانب العلمي والاقتصادي والجانب السياسي والاجتماعي، حيث شهدت باريس في النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر بفضل الثورة الصناعيّة والتطوّر العلميّ واستقرار نظام الحكم وعدالته رخاء اقتصاديّا في مختلف المجالات التجاريّة والفلاحيّة والصناعيّة وقد انعكس ذلك على القطاع الماليّ والبنكيّ فنمت الثّروات وتحقّق مجتمع الرّفاه. وقد أشار إلى ذلك قبل ابن الخوجة الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار

والأقطار" (القسم الخاص بفرنسا)، عندما قال:" **لا خفاء أن امتداد الثروة مبنيّ على كل من العدل والعلم، فعلى قدر ارتقاء ذلك، تنمو الثروة**".[1]

كما استنتجنا أنّ من المعايير الهامّة للتمدّن والتحضّر عمليّة التعديل والتكيّف السلوكيّ التي تنتج عادات سلوكيّة وأخلاقيّة مخصوصة، تنبني على مبادئ العيش المشترك من تنظيم ومشاركة وقدرة على الإبداع الفنيّ والجماليّ، وقد تجلّى ذلك في الخصائص السلوكيّة والأخلاقيّة لأهل باريس، من خلال إبراز ولعهم بالفنون وبزيارة المتاحف وارتياد البساتين والمتنّزهات العامّة للترفيه وممارسة الأنشطة الثقافيّة والرّياضيّة، كما يتميّز الباريسيّون بدماثة الأخلاق وحسن المعاشرة واحترام الآخر، كما أنّ من خصائص التمدّن عدم التمييز بين الجنسين والمساواة بينهما في الحقوق والواجبات. وينتج عن ذلك غياب التهميش وإرساء توازن اجتماعي يؤدّي إلى تظافر كلّ الجهود (الرّجل والمرأة) من أجل البناء والتقدّم الحضاريّ، وقد تجسّد ذلك من خلال ملاحظة ٱبن الخوجة تحرّر المرأة الباريسيّة من الظلم والحيف والإقصاء الذي كان مسلّطا عليها فأصبحت شريكا فاعلا للرّجل في الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة من خلال اقتحام عالم الشغل والصنائع والإبداع الفنّي والثقافيّ.

تتجلّى لنا من خلال كلّ ما سبق، العلاقة الجدليّة الوثيقة بين خصائص المدنيّة : العلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكلّ خاصّية منها هي مؤثّرة ومتأثّرة في الآن ذاته، ممّا ينتج في صلب المدنيّة حركة ديناميكيّة فاعلة تعتمد على تغذيتها الذاتيّة وتنتج تناميا وتحديثا متواصلا ومستمرّا. ولا شك أن احتكاك ابن الخوجة بالمدنية الفرنسية على غرار نظرائه التونسيين ممّن زاروا أوروبا وعاينوا الفجوة العميقة بين الأمم الأوروبية المتمدنة والأمم الشرقية المتخلفة، سيكون دافعا له من أجل بث الوعي وتحريك السواكن وتنبيه ذوي الغفلات كما يقول خير الدين في " أقوم المسالك". وقد تجسد ذلك في التغطية الصحفية التي اطلع عليها قرّاء جريدة الحاضرة، ثم عُمّق هذا النشر وفصّل ابن الخوجة في التعريف بجميع مرئياته في كتاب:"سلوك الإبريز في مسالك باريز".

---

[1] محمد بيرم الخامس. صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، (القاهرة: المطبعة الإعلامية، 1302هـ/ 1885م) ،ط1، ج 4 ،ص:63.

III– الفصل الثالث :

خصائص المدنيّة في " اللّندريز "

مقدّمة الفصل

تتميّز العلاقات المغربيّة البريطانيّة بعمقها التاريخي الطّويل وبحالات المدّ والجزر التي مرّت بها، حسب تقاطع المصالح أو تعارضها بين الدّولتين. وتعود أولى الصّلات بين البلدين إلى القرون الوسطى وتحديدا إلى القرن الثالث عشر، عندما كانت الإمبراطورية المغربيّة الموحدّية في أوج ازدهارها وقوّتها، فقد استنجد سنة 1213م الملك البريطاني المخلوع جون لاكلاند (John Lacland) الذي حكم بريطانيا سنة 1199م بالسلطان المغربي: محمّد الناصر (حكم المغرب بين سنتي: 1199م و1213م) طالبا منه العون لاستعادة حكمه بعدما تمّ نبذه من طرف الكنيسة، ورغم فشل هذه المبادرة فقد ظلّت العلاقات المغربيّة البريطانيّة موصولة، وتصاعدت وتيرتها في النّصف الثاني من القرن السّادس عشر وقد تجلّى ذلك من خلال تطوّر التعاون التجاري والعسكري في عهد السلطان المغربي أحمد المنصور الذّهبي (1549م-1603م) وملكة أنجلترا إليزابيث الأولى (Élisabeth I) (1533-1603)، وقد تجسّد هذا التعاون بإنشاء شركة بلاد البربر (Barbary company) التي حصلت على ترخيص باحتكار التجارة مع المغرب لفترة أوّلية مدّتها اثنتا عشرة سنة. [1] وقد قامت الصّراعات الدّوليّة بدور هام في تحقيق تقارب بين المغرب وبريطانيا وذلك بحكم العداء بين بريطانيا ومنافستها الأولى إسبانيا، فبعد انهزام الجيش الإسباني الذي كان موجّها لاحتلال بريطانيا أوفد السّلطان المغربي "المنصور الذهبي" بعثة سفاريّة إلى بريطانيا برئاسة مبعوثه " مرزوق الرّايس" في 2 نوفمبر 1588م. كان من أهدافها التحالف ضدّ إسبانيا، وعقد اتفاقية دفاع مشترك بين المغرب وبريطانيا، وكذلك الحصول على المساعدة البريطانيّة لبناء أسطول بحريّ متطوّر.[2]

وقد خضعت العلاقات المغربيّة البريطانيّة للمتغيّرات الدّوليّة ولتبدّل موازين المصالح بين القوى العالميّة القائمة آنذاك، فخلال القرن السّابع عشر عرفت العلاقات المغربيّة البريطانيّة تجاذبات وتوّترات عديدة بسبب التقارب الحاصل بين بريطانيا وإسبانيا وبسبب مشكلة الأسرى البريطانيين لدى المغرب من جرّاء القرصنة البحريّة في البحر الأبيض المتوسّط وكذلك نتيجة احتلال الأنجليز لمدينة طنجة المغربيّة سنة 1662م، بمقتضى اتفاق تمّ إبرامه مع إسبانيا ،لكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا إذ أرغمت بريطانيا – إثر مقاومة مغربيّة شديدة – على تسليم المدينة وإخلائها سنة 1684م. لكنّ العلاقات المغربيّة – البريطانيّة ستتجدّد منذ بدايات القرن الثامن عشر وذلك إثر المساندة التي قدّمها المغرب لبريطانيا في حربها ضدّ فرنسا على الأراضي الإسبانيّة، ممّا مكّن بريطانيا من السيطرة

---

[1] انظر كتاب: ب. ج – روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية- المغربية حتى عام:1900، ترجمة: يونان لبيب رزق، (الدّار البيضاء: الشركة الجديدة – دار الثقافة، 1981) ،ط1، ص: 37.

[2] المرجع نفسه، ص: 55.

على "صخرة جبل طارق" سنة 1704م. وهذا يثبت أنّ بريطانيا رغم تراجعها عن طموحها الاستعماري في شمال إفريقيا، حرصت على ضمان مصالحها الاقتصاديّة والعسكريّة في الحوض المتوسّطي من خلال المحافظة على قاعدة عسكرية استراتيجيّة هامّة ما تزال قائمة إلى عصرنا الحالي.[1]

ظلّت العلاقات المغربيّة البريطانيّة في هذه الفترة محكومة بنوع من المهادنة والتقارب بسبب رغبة بريطانيا في كسب دعم المغرب لأسطولها البحري في "جبل طارق" وبسبب هاجس الحدّ من التوسّع الفرنسيّ في المنطقة. فتواصل تبادل البعثات السفاريّة بين البلدين بشكل متواتر ومكثّف. لكن انطلاقا من العقد الرّابع من القرن التسع عشر، بدأت بريطانيا تغيّر سياستها في الهيمنة من الاحتلال المباشر إلى السيطرة من خلال التحكّم في المسالك البحريّة والغزو التجاري للأسواق العالميّة، ومن أجل ذلك عيّنت "جون دراموند هاي" (John -Drummond-Hay) (1816–1893) سنة 1845 قنصلا لها بطنجة لضمان حضور تجاري قويّ بالمغرب وقد توّج ذلك باتفاقيّة 1856 التي تضمّن مصالح الرعايا البريطانيين بالمغرب. [2]

وقد تعرّض المغرب – في هذه الفترة كذلك – إلى هزيمتين عسكريّتين قاسيتين: الأولى في "إيسلي" سنة 1844 أمام الجيش الفرنسي بسبب مساندة المغرب للقبائل الجزائريّة في حربها ضدّ فرنسا التي احتلّت الجزائر منذ سنة 1830 والثانية أمام إسبانيا التي هاجمت المغرب في 24 أكتوبر 1859 واحتلت مدينة "تطوان". وقد أفقدت هاتان الهزيمتان العسكريّتان الدّولة المغربيّة هيبتها وفرضت عليها تنازلات مهينة وألزمتها بمعاهدات غير متكافئة. « **وبسبب هذا كلّه دخل المغرب تدريجيّا تحت وصاية دوليّة كان مؤتمر مدريد المؤشر الصّارخ لها وهكذا أصبح احتلال المغرب مجرّد مسألة وقت وتوافق فيما بين القوى العظمى.**» [3]

ونظرا إلى هذه الظروف الصعبة التي يمرّ بها المغرب لجأ السلطان المغربي " محمّد بن عبد الرّحمان" (محمد الرابع: 1810- 1873) إلى استعمال أسلوب المناورة والحلول الدبلوماسية للاستفادة من تنافس القوى الأوروبيّة فيما بينها، وذلك بتكثيف البعثات السّفاريّة وتنشيطها. وفي ظلّ هذه الوضعيّة التاريخيّة الحرجة التي يطغى عليها طابع الهزيمة والتهديدات الخارجيّة سيقوم أبو الجمال الفاسي برحلته إلى أنجلترا سنة 1860 مبعوثا ضمن وفد دبلوماسي من قبل السّلطة المخزنيّة لكسب دعم أنجلترا وحثّها على الوقوف إلى جانب المغرب في وجه الأطماع الفرنسيّة والإسبانيّة. « **وتكتسي الرّحلة الإبريزيّة أهمّيتها من كونها أتت مباشرة بعد هزيمة "إيسلي" العسكريّة، كما أنّها**

---

[1] عبد القادر الجموسي. أوروبا في مرايا الرحالين العرب ،(الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2009) ،ط1، ص:233.

[2] Voire : Abdelkhaleq Berramdane. Le Maroc et L'occident (1800-1974), Paris : Éditions Karthala, 1987, p: 17.

[3] عبد المجيد القدّوري. سفراء عرب في أوروبا (1610← 1922) الوعي بالتفاوت، (الإمارات العربيّة المتحدّة: دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، 2009) ، ط 1، ص:42.

تكشف البوادر الأولى للعلاقة بالآخر بعد الهزيمة وتفصح عن مجموع الأسئلة القلقة التي كانت تشغل بال النخبة يومئذ».[1] وقد كانت هذه الرّحلة فرصة سانحة للفقيه المخزني أبي الجمال الفاسي للوقوف بصفة مباشرة على مظاهر المدنيّة الأنجليزيّة في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر ومعاينة خصائصها وتجليّاتها المختلفة: العلميّة والسياسيّة والإجتماعيّة.

[1] محمّد ودغيري، "الآخر في مرآة الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة" ،المثقف، عدد: 2575، سنة: 2013.
موقع :www.almothaqaf.com تاريخ التصفّح: 2016/08/14.

المبحث الأوّل: الخصائص العلميّة للمدنيّة الأنجليزيّة

I- وصف الآلات والاختراعات الحديثة:

1- وصف تطوّر وسائل النقل:

كانت بريطانيا في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر إمبراطورية شاسعة الأرجاء، تحكّمت في أكثر من ربع مساحة العالم (الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس) لذلك كان لزاما عليها تطوير وسائل نقل جديدة وحديثة للتواصل مع أقاليمها ومستعمراتها وتأمين مصالحها الاقتصاديّة والعسكريّة الممتدّة عبر أرجاء العالم.

أ- النّقل البحريّ:

تعدّ بريطانيا إمبراطورية بحريّة بامتياز نظرا لموقعها الجغرافي (جزيرة ضخمة عائمة) ولأن عماد قوّتها العسكريّة والاقتصاديّة يرتكز بالأساس على أسطولها البحريّ القويّ الذي كان يجوب بحار العالم ومحيطاته وعلى موانئها المجهّزة والمتطوّرة. وقد بدأ اطّلاع أبي الجمال الفاسي على مظاهر المدنيّة الأنجليزيّة ومعاينته لتطوّرها في مجال النّقل البحري منذ صعوده على ظهر المركب الذي سيقلّه وصحبه من مدينة "طنجة" بالمغرب إلى "لندن" عاصمة أنكلترا.

فقد انبهر الفاسي أيّما انبهار بهذا المركب الحديث الذي كان مختلفا عن المراكب التقليديّة بالمغرب. وهو مركب حربيّ ضخم أشبه ما يكون بالبيت الكبير: إذ يحتوي على غرف وكراس وموائد للأكل وأسرّة للاستراحة ومرافق صحيّة. وهو يشتغل بتقنية جديدة تحميه من التعرّض للأعطاب في زمن الحروب. « وهذا المركب بابور[1] عظيم، يسمّى بابور فركطة [2] لعظمه وهو لدولة الإنكليز وهو معدّ للكرّة ولذلك لا يذهب بالنّواعير، وإنّما يذهب بالرَّفّاص[3] وهو- أي الرَّفّاص- من حديد طوله يزيد على العشرة أذرع، وهو بقرب مؤخرّه لا يظهر، وجرت عادتهم باستعماله- أعني الرفّاص- لمراكب الكرّة وترك النّواعير، لأنّ النّواعير إذا أصيبت واحدة في الحرب فسد بتمامه، فاستنبطوا هذا الرفّاص، لأنّه داخل في البحر تحت المركب، لا يصاب أصلا».[4] وتتميّز الملاحة البحريّة الأنجليزيّة باستعمال الآلات الحديثة لتسهيل سير المراكب وإبحارها، وقد وصف الفاسي بحّارة هذا المركب وبيّن أنّ « **لكلّ واحد آلة يستعين بها على ما هو مكلّف به**».[5] كما انبهر الفاسي بعظم موانئ لندن وكثرة المراكب التي

---

1) بابور: من الإسبانيّة (Vapor) ومعناه باخرة.

2) فركطة: بارجة من الإسبانيّة (Fragata) وهي في الأنجليزيّة : (Frigate).

3) الرفّاص: يعني " الرَّفّاسُ" ينطق المغاربة هذه الكلمة بالصّاد. من: رَفَسَ: ضرب ودفع برجله، وذلك لأنّ حركة هذه الآلة تشبه الدّفع.

4) أبو الجمال الفاسي. الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:4.

5) المصدر نفسه، ص: 6.

تستقبلها وخاصّة ميناء "بورسموت(Portsmouth) " الذي شاهد به الفاسي أكثر من مائة باخرة عسكريّة « **وهذه المرسى تسمّى ببورسموت إحدى مراسي جنس النجليز (الأنجليز) وهي عظيمة جدّا، وبها من العدّة والعدد ما لا يحصى كثرة**».[1]

ب– النقل البريّ:

تتميّز وسائل النقل البريّة في لندن بتنوّعها وتطوّرها وهي تساهم في تسهيل المواصلات وتقريب المسافات بين مدن بريطانيا وأقاليمها، إذ نجد العربات التي تجرّها الخيول (الكرّوصات) وكذلك القطارات البخاريّة وقد سمّاها الفاسي البابورات البريّة تشبيها لها بالبابورات البحريّة (البواخر) وقد أعدّت لها محطّات مجهّزة للمسافرين، حيث يقول متحدّثا عن الشخص المكلّف باستقبالهم بالميناء البحري:" **فأتى في الحين بثلاث كرّوصات، فركبنا بعد أن استرحنا مدّة قليلة، قدرها أربع دقائق، فسرنا إلى أن وصلنا إلى قباب عظام مركبّة من خشب وزَاج.**[2] **وهي محلّ اجتماع البابورات البريّة فرأينا هنالك من البابورات البريّة نحو الأربعين فأكثر، فنزلنا من الكراريص وركبنا في السّاعة الثالثة من النّهار في بابور البرّ، قاصدين الذّهاب للّندريز**».[3]

2– وصف ميزان الطّقس:

« **إنّ حديث الفاسي عن التقنية حين اصطدم بها في رحلته وإسهابه في تعداد مظاهرها، ينمّ عن وعي مبكّر بما يمكن أن تلعبه التكنولوجيا من أدوار طلائعيّة في نهضة المجتمعات المتخلفّة. كما أن إسهاب الفاسي في وصف ميزان الطّقس. وذكر أدقّ تفاصيله يدّل على إعجابه بهذه الآلة ورغبته في الاستفادة منها في بلده الذي يعتمد نشاطه الاقتصادي الرّئيسي على مدد السّماء وعطايا البحر**».[4] وميزان الطّقس آلة تبيّن الحالات المختلفة للطّقس من حرارة وبرودة أو صحو وشتاء ويمكن أن تتنبّأ بالتغيّرات المناخيّة قبل حدوثها وتستعمل في مجال النّقل البحريّ وكذلك في المجال الفلاحي، إذ تمنح الإنسان القدرة على السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالحه.« **ولهذا آلة معدّة لهذا المعنى، شبه المجانة[5] المعروفة وصورتها دائرة مركّبة من نحاس وغيره، وعليها زجاجة، وبهذه الدّائرة عمود متّصل بها، ووسطها كلّه منحوت مملوء بزئبق، وبأعلى الوسط مُريئ[6]**

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 8.

2) الزَّاجُ : هو الزّجاج في اصطلاح المغاربة اختصارا.

3) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص: 8، 9.

4) محمّد ودغيري، "الآخر في مرآة الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة" ،المثقف، عدد : 2575، سنة: 2013.

5) المِجَانَةُ: هي الآلة التي يعرف بها الوقت أي السّاعة وتطلق على كلّ أنواع السأعات الكبيرة والصّغيرة وأصل الكلمة من اليونانيّة :(Magganon).

6) مُرِيئٌ : اسم فاعل من : رأى ويطلق على عقرب الساعة.

كما للمجانة وبجنبها ثقالتان[1] من بلّور، فإذا قرب تغيّر الزّمان من صحو إلى غيم مثلا تغيّر الزئبق، فتجذب الثقالتان –المريئ– فيتحرّك فينزل على رسم الشتاء أو الصّحو أو الغيم مثلا، وهكذا».[2]

3– وصف مكتب البرق :

يعتبر تطوّر قطاع الاتّصالات مظهرا من مظاهر التمدّن والرقيّ الحضاريّ للأمم والشعوب، فقد استخدمت الحضارات القديمة الإشارات الضوئيّة أو الصوتيّة للاتّصال بين المناطق المختلفة ثمّ ظهر البريد المكتوب والمحمول من طرف الفرسان أو الحمام الزّاجل، ومنذ بدايات القرن التاسع عشر ظهرت طريقة حديثة للاتّصالات تتميّز بالسّرعة واختصار المسافات وقد تمثّلت في البرق أو التلغراف، وقد كانت بريطانيا من أوائل الدّول الأوروبيّة التي استعملت هذه التقنية الحديثة لتسهيل اتصالاتها بأقاليمها ومستعمراتها المترامية الأطراف. وقد زار الفاسي وصحبه مكتبا للتلغراف بلندن وتمّكنوا من الاتّصال بأصحابهم في باريس والاطمئنان على أحوالهم في وقت وجيز وسريع.

وقد تعجّب الفاسي أشدّ العجب من سرعة الاتّصال رغم بعد المسافة بين باريس ولندن حيث تبلغ خمسمائة ميل. وعبّر عن انبهاره وحيرته وعجزه عن فهم هذه الآلة العجيبة لأنّه يفتقر إلى المعرفة العلميّة المختصّة في هذا المجال. وهذا يكشف عدم قدرة عقليّة الفقيه المخزني التقليديّة عن فهم المنجزات التقنيّة الحديثة للمدنيّة الأنجليزيّة التي تطلّبت بيئة فكريّة وثقافيّة متطوّرة لإنباتها. « **وذهبنا لمحلّ بوسط المدينة في الوقت المذكور ووقفنا نحو الدّقيقة، فحرّك السلك هنالك بباريز فجعل من معنا بمحلّ صنعة اللّندريز يلتقط الحروف، فاجتمع له من ذلك: أنّ أصحابكم أتو محلّ السّلك هنالك، ثمّ هززنا لهم السّلك للإعلام بحضورنا والسّؤال عنهم وعن أحوالهم فأجابونا، ومقدار كلامنا وكلامهم من أوّله إلى آخره أقلّ من قسم مجانيّ.**[3] **ومسافة ما بين اللّندريز وباريز من الأميال خمسمائة، والحاصل أنّ هنالك محلاّ عظيما متّسعا مشتملا على آلة في باطنها أسباب ومسبّبات غائبة عن الحسّ، وهي ممّا يدقّ وصفها ويصعب ذكرها».**[4]

II– وصف الجيش:

يعدّ تحديث الجيوش، وحسن تنظيمها وتدريبها وتسليحها معيارا مهمّا من معايير التمدّن والتحضّر حيث يتحوّل الجيش في البلدان المتمدّنة إلى مؤسّسة قائمة الذّات لها تنظيمها ومدارسها وميزانيّتها الخاصّة. وقد أولى

---

1) ثَقَالَتَانِ : م / ثَقَالَةٌ : قطعة من حديد أو نحوه ثقيلة تعلّق في الساعات الحائطيّة لتيسير حركاتها.

2) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:6.

3) قسم مجانيّ: خمس دقائق.

4) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، صص: 36،37.

الفاسي في رحلته اهتماما وعناية خاصّة بوصف الجيش الأنجليزي وصفا مدقّقا ومفصّلا، وذلك لأسباب ذاتيّة وأسباب موضوعيّة. فأمّا الأسباب الذاتيّة: فتعود إلى معايشة الرحّالة الفاسي – انطلاقا من موقعه ومسؤوليته ككاتب في الدّيوان المخزني– لحروب المغرب مع كلّ من فرنسا وإسبانيا والتي انتهت بهزائم ساحقة ومهينة للمغرب ممّا ولّد في نفسه رغبة واهتماما بتبيّن أسرار قوّة الجيوش الأوروبيّة كخطوة أوّليّة تمّهد لبلده المغرب السّبيل نحو تمّلك أسباب القوّة العسكريّة التي ستيعد له سيادته الوطنيّة وهيبته المفقودة. وأمّا الأسباب الموضوعيّة فتعود بالأساس إلى إصرار الأنجليز على تنظيم استعراض عسكريّ ومناورات حربيّة على شرف الوفد المغربي لإطلاعه على مدى قوّة الجيش الأنجليزي وتطوّر تسليحه وجاهزيّته الدّائمة للقتال والحروب ترغيبا له في التحالف مع الإمبراطورية الأنجليزيّة وترهيبا من التمرّد عليها وعصيانها. وينقسم الجيش الأنجليزي إلى قسمين : جيش البرّ وجيش البحر.

1– جيش البرّ :

هو جيش حديث، يتميّز بحسن التنظيم والترتيب والانضباط. وينقسم إلى صنفين: العسكر الرّجلي (المشاة) والخيّالة (الفرسان). ونجد به فرقة موسيقيّة عسكريّة تحمل الأبواق والطّبول وتتمثّل مهمّتها في تنشيط حركة الجيش وبثّ الحماس فيه. ويتميّز لباس هذا الجيش بالفخامة وهو متنوّع حسب تدرّج وتنوّع الرتب العسكريّة.« **ولباس أهلها على أشكال وكذلك سلاحهم وشماريز**[1] **هذا العسكر على أشكال، فمنها ما هو كالقلنسوة أسود مذهّب، وهذا لعظمائهم الخيّالة، ومن الخيالة من يجعل مكانه طاسة شبيهة بالبيضة، إمّا من نحاس أو فضّة أو ذهب، كلّ على قدر مرتبته ومزيّته».**[2]

وقد وصف الفاسي كذلك أسلحة هذا الجيش ومعدّاته الحربيّة من مدافع محمولة على عربات تجرّها الخيول وجسور محمولة تستعمل لتجاوز الأنهار وأسلحة فرديّة متنوّعة مثل البنادق والسّيوف والسّكاكين: « **وكلّ ألف من هذا العسكر يتبعه عدد من المدفع محمول على كراريط**[3] **تجرّها خيل جياد وتتبعها أيضا كراريط خاوية، بقصد حمل الجرحى والقتلى، وبعض الكراريط حاملة لآلات عظام من الخشب، وبأطراف الخشب مخاطيف**[4] **تضرب بالأرض فإذا مرّوا بواد مثلا وضعوا تلك الآلات عليه كالقنطرة يمرّون عليها، بحيث إذا رآها الرّائي يجزم أنّها قنطرة مبنيّة، وكلّ واحد من هذا العسكر حامل لفراشه، وآنية أكله وشربه وزاده، ومنه من هو**

---

1) شَمَارِيزُ: م/ شَمْرِيزٌ وهو القبّعة وأصله من الإسبانيّة (Sombrero).

2) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 16.

3) كراريط: جمع عربي للفظة كريطة الإسبانيّة (Carreta) وهي عربة ذات عجلتين لحمل الأحجار والأسلحة الثقيلة ونحوها.

4) مَخَاطِيفُ: م / مِخْطَافٌ وهو آلة من حديد عبارة عن قضيب معوّج الرّأس.

حامل للشّواقر[1] مغلّفة في جلد، ومنه ما هو حامل للفؤوس، في غلافها أيضا من جلد».[2]

كما حضر الفاسي مناورة حربيّة للجيش الأنجليزي، تحاكي واقع الحرب، وتدلّ على قوّة هذا الجيش وجاهزيّته للذّود عن الوطن والدّفاع عن مصالح الامبراطوريّة الأنجليزيّة، وقد ركّز على وصف جانب التنظيم والترتيب في الجيش الأنجليزيّ، مُنتبها بذلك إلى تحوّل الحرب في العصر الحديث إلى علم وفنّ له قواعده وضوابطه ويعتمد بالأساس على التقنيات والاستراتيجيّات والخطط العسكريّة[3] ولعلّ هذا يذكّرنا بمعركة "إيسلي" التي انهزم فيها الجيش المغربي – رغم كثرة عدده – أمام قوّة فرنسيّة محدودة العدد لكنّها منظّمة ومرتّبة ومسّلحة تسليحا جيّدا. وقد وصف بروكلمان (Carl Brokelman) هذه المعركة قائلا:« **وفي 14 آب دارت رحى المعركة في وادي إيسلي بين الفرنسيس والجيش المراكشي وكانت عدّته 65 ألف رجل تحت قيادة ابن السلطان، ولم يكن تحت تصرّف القائد الفرنسي بوجو (Thomas Robert Bugeaud) أكثر من ستّة آلاف مقاتل، ومع ذلك استطاع أن يهزم هذه الجيوش الضّعيفة السّلاح الفاقدة النظام** ».[4]

2– جيش البحر:

تعدّ البحار والمحيطات المجال الحيويّ لبريطانيا – بحكم موقعها الجغرافيّ– من أجل ممارسة توسّعها وتجسيد هيمنتها على العالم وفي هذا الإطار فقد طوّرت في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر أسطولا بحريّا ضخما يبلغ تعداده مائتان وألف مركب تمّكنت بواسطته من التوّسع في كافة أنحاء العالم وتكوين العديد من المستعمرات في أمريكا وآسيا وإفريقيا وأستراليا تُستخدم لأغراض عسكريّة واقتصاديّة. وقد حرصت ملكة أنجلترا على اطّلاع الفاسي وصحبه على نموذج من القوّة العسكريّة البحريّة لأنجلترا– ترغيبا لهم في التحالف مع الامبراطورية البريطانية وترهيبا من التمرد عليها– فدعتهم إلى زيارة ميناء "بورسموت العسكريّ(Portsmouth) ".

وقد انبهر الفاسي بما شاهده في هذا الميناء من أنواع المدافع والأسلحة والذّخيرة والعتاد. وأعجب بتوّفر كلّ حاجيّات عسكر البحريّة في مكان واحد حيث تحول هذا الميناء إلى قاعدة عسكريّة متكاملة، فنجد به بيوتا للمؤونة تحوي كلّ اللّوازم الغذائيّة التي يقع تمليحها لتبقى صالحة أثناء السّفر الطويل في البحر، كما يوجد بهذا المرسى مراكب قديمة، حوّلت إلى ورشات لصناعة ملابس العسكر وأحذيتهم وكذلك إلى مدارس عسكريّة لتعليم أطفال البحريّة وتدريبهم منذ الصّغر اعتمادا على التكوين التطبيقي (داخل السّفن) ممّا يرسّخ فيهم القوّة والشجاعة

---

[1] الشَّوَاقِرُ: م / شَاقُورٌ: وهو سكين عريضة يقطع بها الخشب ونحوه وتستعمل كذلك في الحروب.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الديار الأنجليزية، صص: 17، 18.

[3] المصدر نفسه، صص: 18، 19.

[4] كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة: أمين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، د. ت،(ط 5، صص: 625، 626.

والانضباط العسكريّ.« **وفي الغد أتى الميران[1] فاستدعانا لرؤية المرسى وما بها من المخازن والمراكب، فساعدناه وركبنا في الكرّوصة، وذهبنا حتّى وصلنا للمرسى وهي محلّ نزول المراكب الكثيرة وترسيتها، فرأينا المرسى بتمامها دائرة بالمخازن، فمنها المملوء بالمدافع والمهاريس[2] والكور[3] والصّواعق على أنواع، ومنها المملوء بالسّلاح، وصناديق البارود والخفيف[4] على أنواع، ومنها المملوء بالكراريط على أنواع كذلك، ومنها المملوء بالصّواري والمخاطيف كذلك.**» [5]

III– الاقتصاد الأنجليزي[6]:

1– وصف الصناعة الأنجليزيّة:

بدأت الثورة الصناعيّة في بريطانيا خلال القرن 18. ثمّ انتقلت إلى أجزاء من أوروبا وأمريكا الشماليّة في بداية القرن 19. وقد ساعد على ذلك توفّر مخزون كبير من الفحم الحجري والحديد وهما المصدران الطبيعيّان الرّئيسيّان اللّذان اعتمد عليهما التّصنيع، بينما كانت الموّاد الخامّ الصناعيّة الأخرى تأتي من مستعمرات بريطانيا ممّا ساهم في تطوير صناعتي: النسيج والحديد وهما الصناعتان الأكثر أهميّة خلال هذه الثورة الصناعيّة، ومن أعظم مظاهرها إدخال الآلة ذات المحرّك في الصناعة والتي عوّضت قوّة الخيول والدّواليب المائيّة.

اعتمدت هذه الآلات الحديثة في تسييرها على الطّاقة البخاريّة، وتمّ إنتاج أوّل محرّك بخاريّ تجاريّ سنة 1698 من طرف ضابط الجيش والمخترع توماس سافري (Thomas Savery). ثمّ قام العديد من العلماء الآخرين بتحسينه إلى أن أصبح سنة 1830 جاهزا للاستعمال العام. وقد أورد الفاسي في رحلته قصّة سمعها عن كيفيّة اكتشاف الطّاقة البخاريّة. «**وسبب إحداثهم له، أنّ صبيّا كانت بيده ناعورة صغيرة من كاغيد**[7] **فجعلها متّصلة بجعب**[8] **في فم بقرج**[9] **على نار وبعد اشتداد غليان الماء فيه، جعلت تدور بقوّة ذلك**

---

[1] الميرَانُ: قائد البحريّة وأصلها من العربيّة (أمير البحر).

[2] المهَارِيسُ: مفردها مهراس وهو نوع من المدافع يشبه شكله المهراس.

[3] الكُوَرُ: جمع كُوَرَةٌ ويقصد بها القنبلة.

[4] الخَفِيفُ: ويقصد به الرصاص.

[5] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الديار الأنجليزيّة، ص:38.

[6] Voir: Francois.Crouset, The Victorian Economy, (Translated by Anthony Forster),First published,Routledge Library Editions,1982.

[7] كَاغِيدٌ : وَرَقٌ.

[8] جَعَبٌ : قناة صغيرة أو كبيرة من حديد أو خشب أو من زجاج.

[9] بُقْرُجٌ : إناء يغلى فيه الماء.

البخار، فرآه رجل فتعجّب واستنبط هذا البابور».[1] وقد استخدم الأنجليز هذه الطّاقة في تسيير البواخر والقطارات والعربات وآلات المصانع، وكذلك في استنباط طرق جديدة لتسريع نموّ الأشجار، وإنضاج الثمار بهدف تنمية الإنتاج الفلاحي وزيادته، وهو ما يعرف اليوم عندنا بزراعة الباكورات والبيوت المكيّفة. «**رأينا في هذا البستان وغيره قبابا مركّبة من خشب وزجاج وفي داخل القبّة أشجار من شأنها الإثمار أو الازدهار فقط، وبإزاء القبّة محلّ فيه ماء، ومحلّ آخر معدّ للنّار ومكينة تطبخ ذلك الماء، فإذا أراد الله وجود غلّة من غلل المصيف مثلا، طبخوا ذلك الماء بالمكينة ويجعلون جعابا من حديد متّصلة بعروق تلك الأشجار، وذلك البخار يدخل في تلك الجعاب، فيسري إلى عروق تلك الأشجار، فتنضج وتلد في أقرب وقت**».[2]

أ– الصناعة الحربيّة:

أطنب الفاسي، وفصّل في وصف هذه الصناعة إعجابا وافتتانا بها، لأنّها رمز للقوّة العسكريّة للإمبراطورية الأنجليزيّة التي سادت بها العالم، وكذلك رغبة منه في استكشاف مواطن القوّة ومعرفتها في هذه الصّناعة الحربيّة من أجل تحديث الجيش المغربي وتقويته بعد الهزائم المتلاحقة التي مني بها. وقد استفادت الصناعة الحربيّة الأنجليزيّة من الثورة الصناعيّة فاستعملت فيها الآلات وطغت عليها المكننة وتقسيم العمل وتنظيمه ليسهل إنجازه ».**وهذه الفبركة**[3] **مشتملة على فبركات كثيرة، ففبركة فرغ المدفع وحدها وفبركة ثقبه وحدها، وفبركة صقله وحدها، وهكذا، وكلّ صنعة من هذه الصّنائع لها مكينة يستسهلون بها الصّعب.**» [4] ويتميّز العمل في هذه الصّناعات بالإتقان وسرعة الإنجاز وبكثرة القائمين بها، إذ يبلغ ستّة آلاف عامل، ويذكر الفاسي نموذجا لذلك من خلال وصفه لصناعة رصاص البنادق:« **فإذا يبس دفع لصبيان مجتمعين لأجل هذه الصنعة، نحو أربعمائة، يعمّرونه بالبارود والبندقة**[5] **فيتخرّج من ذلك آلاف الآلاف في ربع ساعة ونحن واقفون تنظر ذاك**».[6] ويتميّز الإنتاج الحربيّ لأنجلترا بالنموّ والوفرة. وهذا ما يساهم في توفير العتاد والذّخيرة لحملاتها العسكريّة الكثيرة.« **وعدد ما يصنع في كلّ شهر من المدفع أربعمائة. ومن الكور الكبير والمتوسّط والصّغير في كلّ جمعة عشرون ألف.**» [7]

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:28.

2) المصدر نفسه، ص: 33.

3) فَبْرَكَةٌ : كلمة إسبانيّة (Fabrica) أي : مصنع.

4) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:24.

5) البَنْدَقَةُ: الرّصاصة.

6) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص: 27،26.

7) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص: 27،26.

كما شاهد الفاسي أنواعا جديدة من المدافع الأنجليزيّة الحديثة والتي تتميّز بضخامتها وقوّة قذائفها وبعد مداها، ممّا يمنحها الفاعليّة والنجاعة الكبيرة في ميادين الحروب.[1] كما تحدّث الفاسي عن كلفة هذه الصّناعة الحربيّة ومقدار رواتب العمّال القائمين بها، داعيا من خلال ذلك بصورة ضمنيّة إلى ضرورة تخصيص ميزانيّة للتّسليح ولتجهيز الجيش المغربي إذا أُريد تحديثه وتقويته » .**جميع ما يصار على العسكر في كلّ سنة ثلاثة عشر مليونا من الرّيال وعدد العسكر البريّ الذي عندهم ثلاثمائة ألف، كما أخبرنا هنالك من له خبرة».**[2]

ب– الصناعة المدنيّة:

لم يتعمّق الفاسي كثيرا في وصف هذه الصناعة كما فعل مع الصناعة الحربيّة– رغم أهميّتها في التطوير والتّحديث– وربّما يرجع ذلك إلى تركيزه على الحاجيات الآنيّة لبلده المغرب، وتتمثّل في الرغبة في تحديث الجيش وتقويته، إذ اقتصر الفاسي على زيارة مصنعين مدنيّين بلندن، ووصف بطريقة موجزة نوعيّة العمل بهما وطريقته.

ج– مصنع الخشب:

يتميّز العمل في هذا المصنع بالمكننة، واستعمال الآلات المتنوّعة التي تقوم بقطع الخشب وتقويمه ولصقه وتجليده في سرعة ودقّة باعتماد طريقة تقسيم العمل وتسلسله. «**رأينا هنالك فبركة معدّة لنشر الخشب، وبمجرّد دخولنا جاء المعلّم بحبل عظيم وربطه في عود عظيم من خشب، وجعل الحبل في مخطاف وأدار المكينة ورفع في الهواء وحده في الظّاهر، حتّى وصل إلى محلّ فخرج من شقّ خشبتين قدر ما تخرج الإبرة، ونشر في الحين الخشبة على نصفين، ثمّ لمحلّ آخر، فخرج منشار آخر من بين خشبتين، وبمجرّد الفراغ من النّشر، يدخل لمحلّ بحيث لا يرى له أثر أصلا، وهذا كلّه في نحو الدّقيقتين».**[3] وذلك في مقابل وضع الصناعة المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي يتصف بالبدائية إذ تغلب عليها الصناعات التقليدية المرتكزة على العمل اليدوي.

د– معمل الزّجاج:

يبدو من خلال الوصف الذي أورده الفاسي لهذا المعمل أنّ العمل فيه يتمّ بصورة يدويّة، أي قبل إدخال الآليّة في مجال صنع الزّجاج وهو يعتمد أساسا على حرفيّة الصنّاع ومهارتهم في تشكيل الزّجاج وتمويهه وتزيينه . « **وبعد هذا دخلنا لدار صنعة الزّجاج، من كؤوس وغيرها فوجدناه محلاّ عظيما، وبه من العملة عدد كثير،**

---

[1] المصدر نفسه ،ص: 27.

[2] م. ن، ص: 20.

[3] م. ن، ص:29.

وبه محلّ شبيه بفرينة الأجور[1] العظيمة وبه نار لا يقدر الرّائي أن يتمّكن من النّظر فيها لشدّة اضطرامها وهيجانها، يدخل قضيبا من صفر[2] مجعوبا ويخرج من ذلك المحلّ قطعة لازقة، فينفخ في ذلك القضيب فينفتح وسط تلك القطعة ثمّ يدفعها لصائغ آخر فيصنع منها إمّا كأسا أو غيره أو ما شاء من الأواني، ثمّ إذا أرادوا تمويهه دفعوه لمحلّ آخر فيه صنّاع معدّون للتّمويه، وهذا التّمويه إمّا أن يكون من ذهب وإمّا أن يكون بلا شيء».[3]

2- النّظام الماليّ الأنجليزي:

يتميّز النّظام الماليّ الأنجليزي بالتّنظيم والتّدقيق في صحّة العملات الورقيّة والنقديّة. وقد قام الفاسي بزيارة البنك المركزيّ بلندن وشاهد المخزون الهائل من الذهب والفضّة الذي تملكه بريطانيا، ممّا يعكس الرّخاء الاقتصادي الذي كانت تعيشه في تلك الفترة بفضل تطوّر الإنتاج الصناعيّ والثروات القادمة إليها عبر البحار من مستعمراتها الممتدّة عبر أرجاء العالم. وقد عاين الفاسي كيفيّة طباعة الأوراق الماليّة التي استعملها الأنجليز لتعويض العملة الفضيّة والذهبيّة – على أن يوجد ما يوازيها ذهبا في خزينة البنك حفاظا على الاستقرار الماليّ- وذلك لتسهيل المعاملات الماليّة والتجاريّة » .**ثمّ بعد هذا دخلنا لمحلّ هنالك يسمّى عندهم بالبانكو[4] (Banco) وهو معدود من ديار السّكة عندهم، ومررنا بمحلّ مظلم وجدناه مملوءا بالقطع من الذهب والفضّة، لا يقدر على حمل الواحدة الرجل الواحد، وهذا المحلّ قدر الدّار المتوسّطة. ثمّ صعدنا لمحلّ آخر فوقه يطبعون بالآلات كاغيد السكّة[5] ،يبيعون به ويشترون به، فإذا أراد الشخص من له حق مثلا أن يأخذ كاغيدا مطبوعا، يذهب به إلى الصّيرفيّ، يصرفه له، يعطيه في الحين ذلك القدر المصطلح عليه فيه.»** [6]

V- وصف المعمار:

لقد ركّز الفاسي في وصفه لمدنيّة " اللّندريز" على الجوانب التي رآها تشكل لبنات للتّحديث الذي تتطلّع إليه نفوس

---

1) فَرِينَةُ الأَجُورِ: أي الفرن الذي يطبخ فيه الطّين لصنع الآجر .

2) الصِّفْرُ: هو النّحاس الأصفر.

3) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: 35.

4) البانكو(Banco): كلمة إسبانية تعني مصرف المال.

5) كاغيد السكة: يقصد بها الأوراق المالية والبنكية.

6) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، صص: 34،35.

المغاربة، ومن ضمنها الجانب المعماري. فليس العمران مجرّد دور وأبنية يتفنّن قوم في تشييدها والعناية بها. بل إنّه معلم من معالم التحضّر والتمدّن كما أنّ النّمط المعماريّ يحمل نظرة خاصّة إلى الوجود والإنسان ويحدّد طبيعة العلاقات الاجتماعيّة السّائدة، وفي هذا الإطار يعدّ المعمار اللّندني فضاء حديثا يعكس احتفاء بجودة الحياة وبفنّ تأثيث المكان وهو يختلف عن مدن المغرب آنذاك والتي كانت عبارة عن فضاءات بدائيّة مهملة، وقد عكس هذا مقدار التفوّق الحضاريّ القائم بين موطن "الذات" وموطن "الآخر".[1] وقد أنبهر الفاسي بمقدرة الأنجليز على استثمار المكان واستصلاح الأرض بعد أن شاهد كثرة العمران من مدن وقرى وبساتين ومصانع وامتداده على طول الطّريق الرّابط بين الميناء البحريّ "بورسموت" ولندن عاصمة أنكلترا، حتّى إنّ الفاسي لاحظ أثناء سير القطار الذي أقلّه أنّه لا تمرّ أكثر من خمس دقائق حتّى يلوح مظهر من مظاهر العمران والإنجاز البشري. « **فسرنا وكلّما مررنا قسما[2] نجد مدينة صغيرة أو قرية وبساتين وديار الصناعات** [3] **وغير ذلك، حتّى وصلنا في السّادسة من النّهار لمحلّ اجتماع البابورات وهي مبدأ قاعدة " اللّندريز " ومسافة ما بين المرسى المذكورة و" اللّندريز "، 160 ميلا.**» [4]

1- وصف مدينة " اللّندريز" عاصمة أنكلترا:

لقد أعجب الفاسي أيّما إعجاب بمظاهر العمران وهندسة البناء والتّزويق بمدينة لندن والتي تدّل على ترف وبذخ بالغين، بفضل الازدهار الاقتصادي الذي كانت تعيشه الإمبراطورية الأنجليزيّة في ذلك الوقت (النّصف الثاني من القرن 19). فقد عرفت لندن في الفترة الممتدّة ما بين 1830م و1930م كأكبر مدينة في العالم متجاوزة بذلك سائر المدن والعواصم الأوروبيّة[5].« **وهذه المدينة من المدائن العظام، ما رأيت أعظم منها ولا أحظى، حتّى تكرّر على أسماعنا أنّ طولها ستّة أيّام، وعرضها كذلك، وبها سلطانة الجنس النجليزي وغالب بنائها بالحجر المنحوت ويبطّنون الحيطان من داخل بالخشب، ويجعلون عليه كاغيدا (ورق) مموّها، ويفرشون الأرض ببسط وزرابي جيّدة، وكان نزولنا بمحلّ يسمّى عندهم بالبسطة[6] وهو محلّ لنزول الأكابر، في أرضه بسط من بابه إلى منتهاه، وهو مشتمل على صالات متعدّدة، وبوسطه براح متّسع، وفيه من أنواع الفرش والحرّير**

---

[1] محمد ودغيري، "الآخر في مرآة الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية".

[2] القِسْمُ هنا معناه: خمس دقائق والمغاربة يقسمون الساعة إلى 12 قسما.

[3] دِيار الصناعات: المعامل والصانع عموما.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:9.

[5] Voir: Francis Sheppard. London A history, First published, Oxford University Press, 1998, p :309.

[6] البَسْطَةُ(Posta) : لفظة إسبانية ومعناها: المحل المعد لنزول المسافرين ويستعمل هنا بمعنى فندق أو نزل.

والثريّات وأواني الذّهب والفضّة وغير ذلك ما لا يحصى كثرة.» [1]

كما أعجب الفاسي بتخطيط مدينة لندن الذي يتميّز بالتنظيم، حيث أن البيوت مرقّمة بأعداد على أبوابها ليسهّل الاهتداء إليها، كما يوجد وسط هذه المدينة متنزّهات وحدائق للتّجوال والرّاحة، تتميّز بالتأنّق والذّوق الرّفيع. « **والدّيار بهذه المدينة كلّها متشابهة إلاّ ما قلّ وتتميز بالأعداد على أبوابها، ووسط هذه المدينة كلّه بساتين وحدائق وغير ذلك، وفي وسط هذه البساتين من أنواع النوّار ما لا يوصف، على ترتيب غرسه ومباشرة أمره وفي وسطها أيضا كراسي عديدة، معدّة للجلوس عليها بقصد النّزهة والفرجة، وعادتهم أنّهم لا يحمون البساتين بالحيطان، وإنّما يحدقونها بقصب من حديد واقف، وبرأسه شيء شبيه بالحربة».**[2]

وقد انبهر الفاسي بمشهد الشوارع الواسعة والمنّظمة لمدينة لندن، ذلك أنّ وسط الطّريق مخصّص للعربات بينما الأرصفة الجانبيّة للمترّجلين، كما لاحظ استخدام فنّ النّحت لتزيين هذه المدينة من خلال التماثيل ونوافير المياه المنحوتة والمزخرفة التي تنتشر في أرجاء هذه المدينة. « **ثمّ إن طريق هذه المدينة وشوارعها متسّعة، وكلّها مرصّفة، إلاّ أنّ الوسط معدّ للكرّوصات والخيل والرّكاب، والجانب من ناحية اليمين والشمال معدّ للرجّالة**[3] **وبينهما تمييز ظاهر، ورأيت في محلّ هنالك بالمدينة سقايه ماء وبأعلاها صورة الأسد، حالاّ فمه يخرج الماء منه، وينزل لتلك السّقاية**[4]**».**[5]

2- وصف قصر الملكة:

يتميّز هذا القصر الملكي بالبذخ وفخامة البناء وعلوّ الأعمدة والسّواري المرمريّة الملوّنة، وقد زيّن بالتماثيل وفرش بالزّرابي المختلفة الألوان، ورصّع السّقف بثريّات مذهبّة. وهو يوجد وسط بستان يحوي أنواعا نادرة من الطّيور ويجري به نهر فيه مراكب للنّزهة. وهذا يدل على مدى المهابة والتعظيم التي يحضى بها الحكم الملكي بأنجلترا. « **وأمّا دارها (قصر الملكة) فهي من العجائب، مشينا في مشايات متّسعة مفروشة بالزّرابي، وكلّ ما تذهب شيئا إلاّ وترى تماثيل على أشكال سود وبيض، وفيها قباب عظام، كلّ واحدة مفروشة بلون من الدّيباج، وفيهنّ سواري وأحجار رفيعة كالمرمر المنحوت، وهناك سواري من الأبنوس وهذه القباب مطلّة على بستان لها عجيب فيها حيوانات كالدّجاج**

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: 10.

[2] المصدر نفسه، صص:10،11.

[3] الرَّجَّالَةُ: ج/ رَاجِلٌ أو مُتَرَجِّلٌ أي الذي لا مركوب له ويمشي على قدميه.

[4] السَّقَّايَةُ: (بتشديد القاف) وهي في الاصطلاح المغربي صِهريج يُتَّخذ عادة على الحائط وتكون له أنابيب يتدفق منها الماء.

[5] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:14.

الهندي والنّسر والطّاوس، وغير ذلك، وفيه نهر بإزائه قبة فيها مراكب للفرجة ».[1]

3– وصف قنطرة لندن :

انتبه الفاسي إلى وعي الأنجليز المبكّر بأهميّة شبكة الطّرقات في تسهيل المواصلات والتنّقل داخل مدينة لندن، حيث تتشابك الطّرق البريّة بالبحريّة والحديديّة، فقد انبهر الفاسي بنفق لندن الذي سمّاه قنطرة، وقد حفر تحت نهر التّايمز. ويربط بين شطري مدينة لندن، ويتميّز هذا النّفق بطوله وجودة بنائه ويسمح بمرور المتّرجلين وفي الآن نفسه المراكب التي تمرّ فوقه وهو كذلك مركز تجاري هامّ، إذ تقع على جوانبه الدّكاكين والمحلاّت التجاريّة.« **وممّا رأينا بهذا البلد من العجائب أنّ محلاّ هنالك يهبطون له بمائة وأربعين درجة، وفي طرفه الآخر المقابل له درج كذلك، فنزلنا له، ورأينا هنالك بناء عظيما مقوّسا طويلا جدّا قدر مادّة البصر، وبه حوانيت على قدر طوله، يبعون، ويشترون، وفوق هذا المحلّ واد عظيم أشبه بالبحر تمرّ عليه المراكب العظام، إلاّ أنّ هذا المكان مظلم، يستضيئون فيه نهارا، وهذه القنطرة يعجز الواصفون عن وصفها لطولها وجودة بنائها.**» [2]

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، صص:12،13.

[2] المصدر نفسه، ص:37.

المبحث الثاني: السّمات السياسيّة للمدنيّة الأنجليزيّة

تعود الجذور التاريخيّة للنظام السّياسي البريطاني إلى بدايات القرون الوسطى، فهي ملكيّة دستوريّة تتميّز بدستورٍ غير مدوّنٍ (رغم وجود بعض الوثائق الدستوريّة المرجعيّة المدوّنة) فالقواعد الدستوريّة البريطانيّة نشأت عن طريق العرف. واكتسبت عبر الزّمن قيمتها القانونيّة والإجرائيّة، وقد ساهم استقلال بريطانيا عن سلطة الفاتيكان الذي كان يمثّل المذهب الكاثوليكي المتّهم بمحاربة الأفكار العلميّة والفلسفيّة الجديدة، وتبنّيها للمذهب البروتستانتي في ظهور موجة من الحريّة العلميّة والثقافيّة والسياسيّة التي كان لها انعكاس إيجابيّ مباشر على طبيعة نظام الحكم، وتتمثّل أهمّ المؤسّسات في السياسة البريطانيّة في: التاج، الوزارة والبرلمان.[1]

1- التاج : هي ملكيّة تملك ولا تحكم ويتمّ اعتلاء العرش بالتوارث سواء بين الذكور أو الإناث والملك يعتبر غير مسؤول لا جنائيّا ولا سياسيّا تطبيقا لقاعدة "أن الملك لا يمكن أن يقوم بعمل ضارّ (الملك لا يخطئ)." ويتمتّع الملك نظريّا بصلاحيّات واسعة في المجال التشريعيّ والتنفيذيّ: كحقّ المصادقة على القوانين أو رفضها وكذلك تعيين رئيس الوزراء، لكنّه من جهة أخرى مقيّد بقواعد اللّعبة البرلمانيّة التي تقضي بتعيين زعيم الأغلبيّة الفائزة في الانتخابات، وله أيضا اختصاص تعيين كبار الموظّفين ومنح الألقاب والأوسمة مثل لقب: لورد (Lord) ودعوة البرلمان إلى الانعقاد أو حلّه وله حقّ العفو. لكنّ كلّ هذه الاختصاصات يملكها الملك نظريّا فقط فالذي يتولاّها عمليّا هو مجلس الوزراء أو الوزارة.[2]

2- الوزارة: وتتولّى مهامّ السّلطة التنفيذيّة، مثل تحديد السياسة العامّة للدّولة، والإشراف على تنفيذها، وتسيير ومراقبة الجهاز الإداري، واقتراح مشاريع القوانين، ويتمّ مساءلتها من طرف البرلمان.

3- البرلمان: ويمثّل السلطة التشريعيّة والمرجع القانونيّ الأعلى في البلاد ويتألّف من مجلسين:

أ- مجلس اللّوردات(House of Lords) : أو مجلس الشيوخ ويمثّل الطبقة الأرستقراطيّة البريطانيّة. وهو يتكوّن من حوالي ألف عضو: خمسمائة عضو بالوراثة، والباقي يتألّف من كبار رجال الدّين والقضاة ومن اللّوردات، بعضهم معيّن من طرف الملك والبعض الآخر منتخبون من طرف زملائهم وقد تضاءلت مع الزّمن مهام هذا المجلس وأصبحت سلطاته محدودة جدّا.

ب- مجلس العموم (House of Commons): أو مجلس النوّاب وهو السّلطة التشريعيّة الحقيقيّة ويتألّف

---

[1] محمد لطفي زكريا الشيمي، النظام البرلماني الأنجليزي نموذجا، (جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، 2009) ،الصفحات: 2، 3 ،4.

[2] المرجع نفسه، صص: 5،6.

من: 650 نائبا ينتخبهم الشعب لمدّة أقصاها خمس سنوات ويتمثّل اختصاص هذا المجلس في التشريع واعتماد الميزانيّة وإقرار الضرائب ومراقبة الحكومة وتوجيهها (ممارسة السّلطة الرقابيّة عن طريق الأسئلة أو إنشاء لجان تحقيق أو سحب الثّقة.(

وقد زار الفاسي بريطانيا في العهد الفيكتوري (1837م-1901م) وقد كانت على عرش أنكلترا، آنذاك الملكة فيكتوريا (Reine Victoria) وهي من أعظم ملوك أوروبا في القرن 19. وقد حكمت لفترة زمنيّة طويلة (64 سنة) حيث توّجت ملكة وهي في سنّ الثامنة عشر، وخلال فترة حكمها قامت بتغيير مجموعة من القوانين التي أدّت إلى إصدار "دستور الشعب" الذي نصّ على ستّة بنود هامّة، من أبرزها حقّ الاقتراع العامّ والانتخابات النيابيّة السنويّة.[1]

نستنتج من خلال ما سبق، أنّ الفاسي لم يتعمّق في وصف النظام السياسي البريطانيّ في النّصف الثاني من القرن 19، ربّما لجهله لهذا المجال بحكم ثقافته الفقهيّة التقليديّة، أو تحاشيا منه التّصادم مع سلطة المخزن آنذاك والتي كانت قائمة على الاستبداد وغياب الحريّات، فاكتفى ببعض الإشارات السطحيّة العابرة، فقد لاحظ أن ملكة الأنجليز تحظى بالتّقدير والتّبجيل منذ صعوده على ظهر الباخرة التي أقلّته من طنجة إلى أنجلترا، حيث توجد في صدر إحدى غرف الباخرة صورة لملكتهم « **وفيها (أي الغرفة) صورة لملكتهم من أين رأيتها قابلتك كأنّها ضاحكة**».[2]

كما لاحظ الفاسي أن الجوانب البروتوكوليّة تشكّل أكثر أعمال الملكة، بحكم أن الملكة تملك ولا تحكم وأن إدارة دواليب الحكم أمر تختصّ به الوزارة. وتتميّز "المدوّنة البروتوكوليّة" في لندن بالدقّة والعناية بأدقّ التفاصيل وباحترام المراسم المرعيّة في اللّقاءات الدبلوماسية الرّسميّة على وجه الخصوص، من: احترام البرنامج الزّمني وتوفير وسائل النّقل وطقوس الاستقبال والسلام والإقامة والمأدبة وتبادل الزيارات فتقديم الهدايا والوداع. « **تجدر الإشارة إلى أن البروتوكول يشكّل سننا تواصليّة(Code de communication) ويبرز فيه الطّرفان من خلال اللّباس الرّسمي والهدايا والهيئة والحركات المقنّنة انتماءاتهما لمجال ثقافيّ معيّن له مواصفات، ترسّخه في تقاليد عريقة مميّزة**».[3] وقد أعجب الفاسي بحرص الملكة على التقيّد بالبروتوكول، حيث تكلّف موظّفين ينوبونها في استقبال الضّيوف والقيام بشؤونهم، وقد وصف الفاسي ذلك عند حلوله وصحبه بميناء "بورسموت" بأنكلترا. « **فمشينا قليلا وإذا بناظر المصاريف الخارجيّة واسمه كبطان لنج(Capitaine Lange) يتكلم بكلام عربيّ، أتى**

---

[1] محمد لطفي زكريا الشيمي، النظام البرلماني الأنجليزي نموذجا، صص:7، 8.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: 4.

[3] عبد القادر الجمّوسي، أوروبا في مرايا الرحّالين العرب: المعرفة الحداثة الآخر، ص:247.

لملاقاتنا، وسلّم علينا بكلام عربيّ وقال: أخبرتني الدّولة بقدومكم، ووجّهتني لملاقاتكم وللقيام بأموركم.»[1] كما تشرف الملكة على الاحتفالات الرسميّة واستعراضات الجيوش.« **وخرجت الملكة راكبة في كرّوصة هي وزوجها وبنتاها. ثمّ وجهت ورائنا عسكرا. فذهب بنا نخترق الصّفوف حتّى وقفنا بإزائها. لأنّها أمرت بذلك، فسلمت وسلّمنا إيماء، ومكثنا واقفين نحو السّاعتين وأزيد وهي تسألنا، هل عييتم أم لا؟ ونحن نجيبها: أن لا، حتّى تسرّد** [2] **العسكر».**[3] ويتميّز القصر الملكيّ بلندن بمراسم خاصّة لاستقبال الضّيوف وإكرامهم.« **فلمّا دخلنا لمحلّ الملكة كانت جالسة على كرسيّ، وحين رأتنا قامت للقائنا بعد أن نزلت من كرسيّها وسلّمنا عليها وسلّمت علينا ضاحكة، وكلّ ذلك إيماء بحضرة قائد مشورها**[4] **ووزرائها وزوجها وكبير العسكر وبنتيها. ولها سمت حسن، وخلق مستحسن وأظهرت لنا المحبّة والسّرور، فمكنّاها من كتاب مولانا أمير المؤمنين أدام الله له النصر والتمكين، فقبضته بملاطفة وأدب وجعلته بين يديها تعظيما له، وإجلالا لجنابه العليّ، ومقامه السنيّ».**[5]

أعجب الفاسي كذلك بالبروتوكول الخاصّ بالمآدب الرسميّة بالقصر الملكي، وانبهر بما شاهده من حسن تنظيمٍ وترتيبٍ وبذخٍ وذوقٍ رفيعٍ في مأدبة العشاء التي دُعى إليها وصحبه من طرف الملكة، وقد لفتت انتباهه ظاهرة اختلاط الرّجال بالنّساء في المناسبات الرسميّة على عكس الفصل بين الجنسين القائم في بلده المغرب، وكذلك احترام الأنجليز لمعتقدات الآخرين، لأنّهم تحرّوا أن يقدّموا للفاسي وصحبه في هذه المأدبة أكلا حلالا يتماشى مع ضوابط الدّين الإسلاميّ.« **جاء رسولها (أي الملكة) يستدعينا للمبيت عندها، وأخبرنا الرسول أنّ هذه اللّيلة تستعملها الملكة من السنة إلى السنة، وقد وافق مجيئكم هذه اللّيلة فلابّد من الذّهاب إليها، فأجبناه لذلك، وفي السّاعة العاشرة من اللّيل، ذهبنا لدارها، فوجدنا عظماء الدّولة هنالك مع نسائهم، ووجدنا هنالك من الحرّاس والحجّاب والخدمة، ما لم نجده وقت الملاقاة، ووجدنا أيضا من الأواني الرفيعة، والثريّات من الذّهب والفضّة والكراسيّ المفروشة بالحرير والمرصّعة بالذّهب ما لا يحصى ولا يعدّ، ولمّا طال جلوسنا، وأردنا الخروج من محلّها فاستأذنّاها، فطلبتنا للدّخول لمحلّ الأكل فدخلنا، وذهبت معنا إليه ومعها جميع عظماء الدّولة، وجعلوا يمكّنوننا بأيديهم ممّا هو مباح أكله، كالفواكه وأنواع الحلاوي، وأمور يابسات.»** [6]

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:4.

2) تَسَرُّدَ العَسْكر : أي استعرضته الملكة.

3) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:15.

4) قَائِدُ مَشُورِهَا : رئيس التشريفات.

5) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:12.

6) المصدر نفسه، ص: 13.

نلاحظ أنّ هذا التّواضع لكسب القلوب، وهذه اللّطافة التي لقيها الفاسي في البلاط الأنجليزي غير متوفّرين في الرحلة التي قام بها ابن الخوجة إلى فرنسا، ولعل هذا يعود إلى خاصية يتميز بها الأنجليز عن غيرهم من الشعوب، وهي استعمال اللباقة والكياسة والدهاء لخدمة أغراضهم السياسية، وقد تنبّه المصلح التونسي محمد البشير صفر إلى ذلك وأشار إليه في مقال له بعنوان "السياسة الأنكليزية"، حيث يصف أساليب هذه السياسة المتّصفة بالمداراة والمصانعة، قائلا:« **وفي جميع هذه التلوّنات تظهر مهارة الأنكليز ودهاؤهم في جلب الدول إلى خطتهم واستمالة الأمم إلى سياستهم بما كادت أن تبلغ به الحكومة البريطانية حد الإعجاز** ».[1]

[1] محمد البشير صفر، مقالات في الإصلاح، تحقيق: علي العربي، (تونس: مطبعة المغرب للنشر، 2004)، ط 1، ص:382.

المبحث الثالث: الملامح الإجتماعيّة والثقافيّة للمدنيّة الأنجليزيّة

يبدو أنّ هناك علاقة جدليّة بين التطوّر التقني والارتقاء الفكري والثقافي للأمم والشعوب فكلاهما مؤثّر ومتأثّر، لأنّ التطوّر التقنيّ يعتبر نتيجة للارتقاء الفكريّ، كما أنّ التطوّر التقنيّ يساهم بدوره في عمليّة التعديل والتكييف السّلوكي للنّاس منتجا بذلك أنماطا سلوكيّة وقيميّة جديدة تعدّ معيارا مهمّا من معايير التمدّن والتحضرّ. وقد أدّت الاكتشافات والاختراعات العلميّة إلى إحداث تغييرات اجتماعيّة وثقافيّة هائلة داخل أنجلترا في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر وأحدثت انقلابات واضحة في الحياة اليوميّة للإنسان الأنجليزي وقد انعكست على الملامح الاجتماعيّة والثقافيّة لمدنيّة "اللّندريز".[1]

I- الملامح الاجتماعيّة:

1- أنجلترا بلد النظام:

أعجب الفاسي أيّما إعجاب بأخلاق قبطان الباخرة التي أقلّته من مدينة "طنجة " إلى لندن عاصمة أنجلترا، فهو يتميّز بلطفه وأدبه الجمّ – وكأنّه لم يتوّقع في أوّل لقاء له مع الحضارة الغربيّة أن يتميّز غير المسلمين بهذه الأخلاق الرفيعة – وهذا يعكس صورة نمطيّة راسخة في ذهنه لا ترى الأدب والأخلاق إلاّ مقترنيْن بالإسلام، لكنّ معرفة "الآخر" عن قرب كفيلة بإزاحة ركام هذه الصّور النمطيّة التي تربّى في ضوئها الرحّالة، لتبني وشيجة إنسانيّة مشتركة بين عالمين ونسقين ثقافتين مختلفين، وتتمثّل في القيم والأخلاق الإنسانيّة الجامعة.[2] « **واسم رئيسه بلغتهم، كبطن شلصى يوارط (Capitaine Chelse Youwarte) وهذا الرّئيس – مع كفره – تعجّبنا من إحسانه وحسن شيمه وأدبه ومساعدته لنا وملاطفته، ودِدنا لو كان مسلما.**»[3] كما أعجب الفاسي بحسن تنظيم جنود البحريّة الأنكليزيّة في المركب، وبدقّة انضباطهم، وكثرة نشاطهم، وانصراف كلّ فرد منهم إلى إنجاز المهمّة التي أنيطت به .« **وجميع من به من البحريّة فرح بنا، وما قصر في جانبنا، وبمجرّد دخولنا للمركب، أشار إليهم كبيرهم بلغته، فجعلوا يتسابقون للصّعود فوق الصّواري، ويضربون الصّفوف هناك طبقة فوق طبقة، وجلعوا شماريرهم[4] بأيدهم وهذا العدد – أعني ستّمائة – كلّ واحد مكلّف بعمل، ولا يجلس واحد منهم البتّة.**» [5]

---

1) Voir : Francis Sheppard.London A History, p : 289-290.

2) محمد ودغيري. الآخر في مرآة الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، الرّابط :www.almothaqaf.com تاريخ التصفّح: 06/09/2016.

3) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:5.

4) الشماريز: م /شمريز: وهو القبعة وأصلها من الإسبانيّة: (Sombrero).

5) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 5.

لقد انتبه الفاسي إلى سرّ تقدّم الأنجليز، وهو النظام والتخطيط ورسم الأهداف القريبة والمتوّسطة والبعيدة المدى والسعي إلى تحقيقها وتجسيمها باعتماد طرق وأساليب ناجعة، وهو ضرب من الاستشراف مغيّب في الشرق. إنّه النظام والتخطيط الاستراتيجي الذي يفتقده الرحّالة الفاسي في بلده حيث سيادة الفوضى والارتجال، وهما سببان رئيسيان وقفا وراء الانحطاط الذي صار إليه المسلمون عموما والمغاربة خصوصا.

2- السلوكيّات والعادات الاجتماعيّة :

أ- وصف عادات النوم في المركب الأنجليزي: وتتميّز بالنّوم على الفرش المعلّقة بسقف السفينة للاقتصاد في المساحة وربح الوقت ».**ثمّ يهيء كلّ واحد فراشه للنّوم، وعادتهم يعلّق كلّ واحد فراشه بسقف السفينة وينام فيه».**[1]

ب- وصف عادات الأكل عند الأنجليز: وقد لفت انتباه الفاسي أنّ الأنجليز يحدّدون أوقاتا ومواعيد معلومة للأكل، كما أنّهم يستعملون أدوات للأكل، على عكس ما يوجد ببلده المغرب، حيث يأكل النّاس بأيديهم وأصابعهم دون تنظيم. « **ومن عادتهم ينصبون خوان الأكل في الساعة الثانية والثالثة من النّهار، ويجلسون كلّ واحد على كرسي صغير، ويجعلون للأكل آلات، ويحضرون من أنواع الحلاوي والفواكه وغير ذلك.**»[2]

ج- عادة السلام بالإيماء عند الأنجليز: على خلاف بلدان الشرق، يسلّم الأنجليز على بعضهم البعض بطريقة الإيماء، وقد لاحظ الفاسي ذلك عند استقبالهم (هو وأصحابه) من طرف أعيان البلد بمرسى "بورسموت" (Portsmouth) وكذلك عند استقبالهم من طرف الملكة.« **وسلموا علينا وسلّمنا عليهم، كلّ ذلك إيماء باليد».**[3]

د- تشابه الدّيار بمدينة لندن: تتشابه الدّيار بمدينة لندن، ولا تتميّز إلاّ بالأرقام على أبوابها ليسهل الاهتداء إليها. وهذا يدلّ على انخفاض حدّة التفاوت الطبقي والاجتماعي بين سكانّها ويتأتّى ذلك من رسوخ مبادئ الحكم الرشيد وشيوع العدالة الاجتماعيّة القائمة على التوزيع العادل للثّروة».**والدّيار بهذه المدينة كلّها متشابهة إلاّ ما قلّ، وتتميّز بالأعداد على أبوابها».**[4]

هـ- تعظيم أهل لندن لأبطالهم:

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:7.

2) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

3) م. ن، ص:8.

4) م، ن، ص: 10.

يتميّز اللّندنيّون بتعظيمهم وتمجيدهم لأبطالهم وذلك بتخليد ذكرهم، عبر نصب تماثيل منحوتة تجسّدهم بساحات المدينة وحدائقها. وقد شاهد الفاسي عدّة تماثيل حجريّة ونحاسيّة لرجل بعينه، مرّة متقلّدا سلاحه ومرّة أخرى راكبا على فرسه – وقد نصبت هذه التماثيل بساحات المدينة وحدائقها – ممّا يدّل على عظم شأنه وعلوّ منزلته.[1] وهذا التّمثال يمثّل الجنرال الأنجليزي الشهير: ولنكطن (Wellington) ويُعدّ بطلا قوميّا لدى الأنجليز لأنّه هزم "نابليون بونابرت" (Napoléon Bonaparte) امبراطور فرنسا في موقعة واترلو(Waterloo) سنة 1815 حيث أُخذ أسيرا ووُجه إلى جزيرة القديسة هيلانة (Saint-Helene) حيث ظل منفيّا إلى حدّ وفاته سنة 1921.

II– الملامح الثقافيّة للمدنيّة الأنجليزيّة:

1– المعارض وحدائق الحيوان:

أ– وصف معرض النباتات:

يهتمّ أهل لندن بإقامة المعارض للتعريف بإنتاج بلدهم الفلاحي والنباتي، وقد زار الفاسي معرضا للنّباتات والمنتوجات الفلاحيّة يقام بصفة سنويّة في مدينة لندن وسط بستان كبير، ويجتمع فيه الفلاّحون والمزارعون لعرض إنتاجهم من الغلال والأشجار والأزهار والتعريف به لدى الزّائرين والمستهلكين. كما أنّ الملكة تقوم بمنح المزارعين الذي يعرضون منتوجا جيّدا منحا سخيّة قصد تشجيعهم على الاعتناء بتحسين جودة المنتوج.[2]

ب– وصف حديقة الحيوان :

يحرص أهل لندن على إنشاء حدائق الحيوان ويقومون باستجلاب الحيوانات والطّيور من سائر أنحاء العالم ويضعون كلّ حيوان في بيئة اصطناعيّة مكيّفة مشابهة لبيئته الأصليّة، وذلك من أجل المحافظة على الثروة الحيوانيّة العالميّة وحفظ بعض الأنواع المهدّدة بالانقراض، وكذلك من أجل تعريف مواطنيهم بالتنوّع الحيوانيّ الكبير الموجود بالعالم » .**وبعد هذا بأيّام وجّهتنا الملكة لبستان لها بالمدينة فذهبنا حتّى وصلنا لبابه، وبابه مشتملة على قباب متعدّدة وبها رجل من عظمائهم واقف هناك لا يترك أحدا يدخل إلاّ بإذن الملكة، أو أعطى عددا معلوما عندهم من أحد النقدين، فدخلناه فرأينا فيه من الحيوانات البريّة والبحريّة العجب العجاب، وما حيّر العقول والألباب، فمن الحيوان الطّائري: الباز والنّسر والطاوس والنعام، ومن الحيوان البهيميّ: الفيل والأسد والجمل الذي له سنامان والنّمر والضّبع والأسد ومن الحيوانات البحريّة: الحوت العظيم والصغير والسلحفاة**

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: 14.

[2] المصدر نفسه، صص: 32 ،33.

والضفادع، وغير ذلك كلّ واحدة منها لها محلّ فيه الماء، وكلّ نوع من هذه الحيوانات يستعملون قبّة، فما كان من جنس الطّيور جعلوا له قبّة من سلك وما كان من جنس السبع وكل ما له ناب كالفيل والأسد استعملوا له قبّة من طين أو آجر أو حديد».[1] وقد استرعت انتباه الفاسي بعض الحيوانات الغريبة بالنّسبة إليه، لأنّها لم تكن معروفة في بيئته مثل: الحيوان الذي سمّاه "باللّين" ويقصد به "الأيل" ويتميّز بكثرة قرونه الشبيهة بالشجرة وحيوان "الكنغر" الذي له جراب لاصق ببطنه يحمل فيه جرائه. [2]

2- المتاحف :

يعدّ الاهتمام بالمتاحف وزيارتها من سمات التمدّن والرقيّ الحضاري والذوق الرفيع، وقد تميّز الأنجليز وخاصّة أهل لندن – حاضرة أنجلترا – بعنايتهم بالمتاحف بأنواعها المختلفة لأنّها تساهم في حفظ الذاكرة الوطنيّة والتراث الإنساني وتنشر الثقافة العلميّة والتاريخيّة وتنمّي الحسّ الجماليّ والذوق الفنّي لدى زوّارها وفي هذا الإطار زار الفاسي متحفا عظيما بضواحي لندن يسمّى "بدار البلّور"، وقد وصفها الفاسي بأنّها :« **قرية عظيمة حيطانها من بلّور وقبابها من بلّور ما عدا أرضها فإنّها من الخشب وهي مشتملة على عجائب وغرائب أزرت بالفراعنة السالفة فيما مضى من القرون** ».[3]

وفي هذا المتحف أقسام متنوّعة: إذ نجد قسما خاصّا بالحيوانات المحنّطة مثل: الفيل والأسد والنّمر والزرافة وقسما آخر تعرض فيه التماثيل والمنحوتات القديمة من كافة العصور والحضارات. ويتميز هذا المتحف الأنجليزي – على خلاف المتاحف الفرنسية – بأسلوب عرض التاريخ بطريقة حية تشعر الزّائر بأنه يعيش في هذه العصور القديمة، إذ شاهد الفاسي قسما ثالثا يجسّد أنماط الهندسة المعماريّة القديمة من مختلف أنحاء العالم من خلال عرض بناءات مجسّمة لقصور فرنسيّة وفرعونيّة وأندلسيّة، ومن الغرائب التي شاهدها الفاسي بوسط هذا المتحف : « **شجرة عظيمة مقلوعة مجرّدة من أغصانها، باطنها منحوت، وهي واقفة هنالك وبأصلها باب، دخلت إليها، فوجدت أصلها المنحوت يسع عشرة من الرّجال جالسين**».[4]

كما زار الفاسي متحفا للسّلاح، يعرض أنواع الأسلحة المستعملة قديما وحديثا كالبدلات الحديديّة التي كان يرتديها الفرسان في العصور الوسطى إلى المدافع والبنادق الحديثة.« **ورأينا فيها من السّلاح القديم عددا كثيرا،**

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، صص : 21 ،22.

[2] المصدر نفسه، ص: 22.

[3] م، ن، ص :29.

[4] م. ن، ص: 30.

حيطان هذا المحلّ كلّها مملوءة، والسّقف كذلك وهناك سلاحات كثيرة من كلّ إقليم، وكلّ عدد بمحلّ عليه زجاجة، ورأينا أشياء اغتنموها من جنس الفرنصيص منها: نواقيس وسرج ومدافع ومكاحل وغير ذلك».[1] وقد أُعجب الفاسي بحسن بتنظيم هذه المتاحف، حيث أن هناك موظّفا مكلّفا باستقبال الزوّار واقتطاع التذاكر بباب المتحف، كما أنّ هناك موظّفين آخرين مكلّفين بالتنظيف والعناية بالمعروضات داخل المتحف. [2]

3– الفنّ والرياضة :

تتّصف الشعوب المتمدّنة بالاعتناء بالفنّون وممارسة الرّياضات المتنوّعة، لما في ذلك من أهمية في تهذيب للذّوق وترقية للفكر وصقل للجسم وتنمية لطاقاته ومواهبه. وقد تميّزت المدنيّة الأنجليزيّة باعتنائها بهاته الجوانب الحضارية.

أ– الفنّ:

أعجب الفاسي بعادة عزف الموسيقى لدى جنود البحريّة الملكيّة الأنجليزيّة، ذلك أنهم يستعملون آلات موسيقيّة متنوّعة لإنتاج ألحان متناسقة وأنغام شجيّة. تطرد السّآمة وتثير الحماسة والانشراح في النّفس. « **ومن عادتهم، إذا قرب غروب الشمس، اجتمع عدد بيدهم آلات الموسيقة ونصبوا شيئا مثل القبّة، وجعل كلّ واحد بيده ورقة، وجعل يضرب في تلك الآلات، وينظر في الورقة وهذه الآلات، منها ما هو كالطّبل، ومنها ما هو كالبوق، ومنها ما هو كالطّنبور**[3] **ومنها ما هو كالهندقة.**[4] **فإذا ضرب الجميع تجتمع من ذلك نغم يستحسنه السّمع** ».[5]

ب– الرّياضة:

* **ركوب الخيل:** تميّزت أنجلترا منذ أقدم العصور برياضة ركوب الخيل وترتيبها وحسن ترويضها وهذه الرّياضة بالنّسبة إلى الأنجليز مظهر من مظاهر النّبل والشرف وهي عادة متوارثة في العائلات الأرستقراطيّة النبيلة، ومازالت الخيول الأنجليزيّة الأصيلة معروفة، حتى يومنا الحالي، برشاقتها وانضباطها وبالنّتائج الباهرة التي تحقّقها في المسابقات الدّوليّة. وقد انتبه الفاسي لهذه الظّاهرة وسجّلها في رحلته إلى"اللّندريز":« و**لأهل هذا البلد خيول عجيبة مؤدّبة،**

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص: 32.

2) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

3) الطُّنْبُورُ: يعني الطّبل والكلمة مستعملة في المغرب بهذا المعنى أخذا عن اللّغات الأوروبيّة.

4) الهُنْدَقَةُ: صحنان صغيران من عاج أو من حديد يركّب أحدهما في الإبهام والآخر في الوسطى ويضرب بهما في بعض الأجواق الموسيقيّة، وهي في العربيّة : الصّنج ويجمع على صُنُوج.

5) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص:6 ،7.

ومن أدبها لا تصهل عند الاجتماع ولا تمهمه،مع أنّها فارهة، وعلى الركض شارهة.» [1]

* **الرّماية:** لاحظ الفاسي أنّ أهل لندن مولعون بممارسة تدريبات الرّماية بالبنادق، ويعدّ ذلك عندهم من علامات النّبل والشرف والبطولة، كما يعكس ذلك النّزعة الحربيّة للأمّة الأنجليزيّة. وقد زار الفاسي ناديا للرّماية بلندن، وهو عبارة عن ميدان متّسع تمارس فيه هذه الرّياضة ويكافأ الفائزون بأوسمة وعطايا سخيّة.« **ذهبنا لمحلّ هنالك متّسع، يرمون فيه بعدّة المكاحل الجديدة التي أبطلت العدّة القديمة، فوجدناهم يرمون فيه، بإذن من الدّولة، في الساعة الثالثة من النّهار، وبنوا إشارات متعدّدة على بعد كثير، بحيث يراها حادّ البصر، وعيّنوا محالاّ كثيرة للجلوس،كلّ جماعة تجلس على حدتها، وهنالك رؤساء واقفون على ذلك بيدهم كنانيش.**[2] **ثمّ يؤذن لهم في الضرب فيضربون على الترتيب وأرباب الكنانيش ينظرون، وهم يتنافسون في ذلك، فمن أصاب منهم قيّدوا اسمه وأعطوه في الحين نيشانا.**[3] **وأعطوه عطاء جزيلا.**»[4]

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:11.

[2] كَنَانِيشُ: جمع كَنَّاشٌ: وهو الدّفتر.

[3] نِيشَانٌ: كلمة تركيّة بمعنى: وسام.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:31.

خاتمة الفصل

لقد تطرّقنا في هذا الفصل الثالث إلى خصائص المدنيّة في " اللّندريز" في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خلال كتاب :"الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة" لأبي الجمال الفاسي، فتبيّنا أوّلا الخصائص العلميّة لهذه المدنيّة، حيث تميّزت لندن في هذه الفترة بتطوّر وسائل النّقل البريّة والبحريّة من قطارات بخاريّة وسفن حديثة ساهمت في تسهيل وتسريع المواصلات داخل بريطانيا وخارجها، إذ مكّنها أسطولها البحريّ الضّخم والمتطوّر من بسط هيمنتها ونفوذها على مناطق شاسعة من العالم فأصبحت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، كما ظهرت في هذه الفترة كذلك تقنيات واختراعات جديدة مثل آلة: ميزان الطّقس التي تمّكن من السّيطرة على عوامل الطبيعة من خلال التنبؤ بأحوال الطّقس المختلفة وكذلك الرّسائل البرقيّة التي سهّلت الاتصالات واختصرت المسافات. كما لاحظنا الاهتمام الكبير الذي أولاه الفاسي للجيش البريطاني بحكم رغبته الملّحة في معرفة أسرار القوّة العسكريّة الضاربة "للآخر". وقد عاين تحوّل الجيش البريطاني إلى مؤسّسة حديثة تُخصّص لها ميزانيّة ضخمة وتعتمد على أساليب وطرق عصريّة في التّدريب والتّكوين والتّصنيع والتّسليح، كما ترتكز على الخطط العسكريّة والإستراتيجية المتطوّرة.

وقد حرص الفاسي على تبيّن مواطن قوّة الاقتصاد الأنجليزي، وقد تمثّلت أساسا في تعويض العمل اليدوي بالعمل الآلي عن طريق استعمال الآلات والمكننة ونظام تقسيم العمل، ممّا ساهم في زيادة الإنتاج ومكّن بريطانيا من تحقيق نهضة صناعيّة ورخاء اقتصاديّ كبير، كما انبهر الفاسي بالمعالم المعماريّة الموجودة بمدينة لندن والتي تعكس مستوى عال من التمدّن والتحضّر والذوق الرّفيع.

ثمّ انتقلنا ثانيا إلى تبيّن السّمات السياسيّة للمدنيّة اللّندنيّة، فلاحظنا أنّه رغم عراقة النظام السّياسي الديمقراطي الأنجليزي وتميّزه في العالم، فإنّ الفاسي لم يخصّص له حيّزا كافيا من الاهتمام في رحلته جهلا منه بهذا المجال أو تحاشيا للاصطدام مع سلطة المخزن القائمة على الاستبداد وغياب الحريّات. وقد اكتفى بوصف الجوانب البروتوكوليّة والمراسم الملكيّة في الاستقبال والسلام والمآدب والتي تتميّز بالدقّة والعناية بأدقّ التفاصيل واحترام العرف والتقاليد الدبلوماسية. ثمّ عملنا في القسم الأخير من هذا الفصل على تبيّن الملامح الاجتماعيّة والثقافيّة للمدنيّة اللّندنيّة، فلاحظنا تركيز الفاسي على ملامح اجتماعيّة مخصوصة لدى الأنجليز. يرى فيها سبيلا لإخراج بلده (المغرب) من الواقع الاجتماعي المتردّي الذي يعيشه،

فأنجلترا هي بلد النظام بامتياز: في العمل والحرب وفي العادات اليوميّة من أكل ونوم. وسرّ تقدّم الأنجليز يكمن أساسا في النظام والتخطيط الاستراتيجي على عكس بلدان الشرق التي تسود فيها الفوضى والارتجال

وغياب الخطط المستقبليّة. كما لاحظنا أن التطوّر الاجتماعيّ للشعب الأنجليزي، رافقه ارتقاء ثقافيّ وفكريّ، وقد تمثّل في الاعتناء بالمعارض وحدائق الحيوان وإنشاء المتاحف المتنوّعة لحفظ التراث الوطني والإنساني، وتتّصف المدنيّة اللّندنيّة كذلك بالعناية بالفنون والرّياضة من خلال تكوين فرق لعزف الموسيقى وممارسة رياضة الرّماية وركوب الخيل من أجل تنمية الحسّ الفنّي والمواهب والطّاقات الإبداعيّة، كما استنتجنا أن هناك علاقة جدليّة وثيقة بين التطوّر التقني والعلمي والارتقاء الفكري والثقافي والسياسي للأمم والشعوب، حيث أنّ النهضة العلميّة والصناعيّة بلندن كانت نتيجة مسيرة طويلة من الإصلاح الدّيني والسياسي، والتي ستنتج بدورها أنماطا سلوكيّة وقيميّة مدنيّة جديدة (نظام – تفكير منطقي – تخطيط) ستساهم بدورها في تنامي سيرورة التمدّن والتحضّر.

V-الفصل الرّابع:

الائتلاف والاختلاف في صورة "باريز" و"اللّندريز" ومواطن الطرافة والتطرّف في الرّحلتين

مقدّمة الفصل

سنسعى في هذا الفصل الرّابع من بحثنا إلى إبراز مظاهر الائتلاف والاختلاف ومواطن الطرافة أو التطرّف في صورة "باريز" و"اللّندريز" من خلال رحلة محمّد بن الخوجة: "سلوك الإبريز في مسالك باريز" ورحلة أبي الجمال الفاسي: "الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة". ومردّ اختيارنا المقارنة بين هاتين الرّحلتين إلى عدّة أسباب منها أوّلا: أن كِلي الرحّالتين ينتميان إلى منطقة المغرب العربي، بما تتميّز به هذه المنطقة من خصوصيّة جغرافيّة وتاريخيّة جعلتها ملتقى للثقافات والحضارات المتعاقبة وفضاء لأحداث تاريخيّة خطيرة وهامّة وثانيا لأنّ كُلاّ منهما قد قام برحلته في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد شهدت هذه الفترة التاريخيّة العديد من الأحداث والمستجدّات الهامّة والمؤثّرة، سواء على المستوى المغاربي أو العالمي مثل استكمال الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1871 واحتلال فرنسا لتونس سنة 1881 والهزائم المتلاحقة التي تعرّض إليها المغرب في" إيسلي" سنة 1844 أمام الجيوش الفرنسيّة المتمركزة بالجزائر وفي حرب " تطوان " أمام الجيوش الإسبانيّة سنة 1860 وقد نتج عن ذلك إرغام المخزن المغربي على توقيع معاهدات نالت من سيادته الوطنيّة وكانت أولى هذه المعاهدات: "اتفاقيّة الصّلح والهدنة" مع أنجلترا سنة 1856. وقد ضمّت بنودا واشتراطات مجحفة في حق المغرب وكذلك معاهدة الصّلح التي وقعها المغرب مع إسبانيا سنة 1860 في مقابل قبول جملة من التنازلات الموجعة لفائدة الإسبان.

أمّا على المستوى العالمي فقد أعلنت في فرنسا سنة 1870 الجمهوريّة الثالثة في أعقاب الهزيمة السّاحقة التي مُني بها الامبراطور"نابليون الثالث" (Napoléon III) أمام الجيوش الألمانيّة، ورغم خسارة مقاطعتي "الألزاس" و"اللّورين" لصالح ألمانيا فقد شهدت هذه الفترة إقرار النظام الدستوري الديمقراطي وحرية الصّحافة والحريّات النقابيّة وعرفت فرنسا نهضة علميّة وصناعيّة وتجاريّة كبيرةٍ. وأمّا في بريطانيا فقد تميّز النصف الثاني من القرن 19 بحكم الملكة فكتوريا (امتدّ العهد الفيكتوري من سنة 1837 إلى سنة 1900). وقد عرفت بنزعتها الإصلاحيّة، وفي عهدها أصدر "دستور الشعب" الذي أقرّ حق الانتخاب والمشاركة الديمقراطيّة في الحكم، وبرزت المملكة المتّحدة باعتبارها القوّة العالميّة العظمى بحريّا واقتصاديّا .

ويعود السبب الثالث لاختيارنا المقارنة بين رحلة ٱبن الخوجة إلى باريس ورحلة الفاسي إلى لندن إلى انتماء كلّ من الرحلتين إلى فضاء ثقافيّ مخصوص، داخل الحضارة الغربيّة الأوروبيّة، فباريس تمثّل عاصمة الثقافة والمدنيّة الفرنكفونيّة، أمّا لندن فهي رمز للثقافة الأنجلوفونيّة وهذا ما سيسمح لنا بتبيّن الخصائص المميّزة لكلّ من هاتين المدنيّتين في النصف الثاني من القرن 19 من خلال نظرة ابن الخوجة والفاسي إليهما.

سنعمل في المبحث الأوّل من هذا الفصل على إبراز مواطن الائتلاف والتشابه بين صورة "باريز" و" اللّندريز" في المجالات العلميّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. أمّا في المبحث الثاني فسنرّكز على استخراج نقاط الاختلاف والتقابل بين الصورة التي رسمها ابن الخوجة لباريس، والصّورة التي رسمها الفاسي للندن في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر في مختلف المستويات: العلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة. وسنعنى في المبحث الثالث بإبراز مواطن الطّرافة أو التطرّف في هاتين الرّحلتين من خلال تعاليق الرحّالتين وأسلوبهما المعتمد في الوصف ونقل الأحداث.

المبحث الأوّل: مواطن الائتلاف

I- في المجال العلمي والاقتصادي:

1- المجال العلمي :

يشترك كلّ من محمّد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي في الإعجاب والانبهار بتطوّر وسائل النّقل في كلّ من باريس ولندن، وهي وسائل نقل جديدة ومستحدثة لم يألفاها في البلدان الشرقية. فقد وصف ٱبن الخوجة العربات ذات الدّواليب الأربعة التي تجرّها الخيول وسمّاها "الكرّوسة" (Carosse) وكذلك: الطّوموبيل(automobile) وهي عربة مستقّلة الحركة تسير بالطّاقة البخاريّة وكذلك التّرامواي الكهربائي(Tramway Eléctrique) والقطار السّريع، الذي كان يعدّ في تلك الفترة من أسرع القطارات في أوروبا.[1] ووصف أبو الجمال الفاسي، كذلك العربات التي تجرّها الخيول. وسمّاها (الكرّوصات)، والقطارات البخاريّة التي سمّاها البابورات البريّة. وقد أعدّت لها محطّات مجهزّة للوقوف وصعود المسافرين.[2] وكذلك اهتمّ كلّ من ٱبن الخوجة والفاسي بوصف الاختراعات والاكتشافات الجديدة التي شاهداها بكلّ من باريس ولندن. فقد وصف ٱبن الخوجة دار الرّصد وهي مركز علميّ يحتوي على المناظير والآلات الفلكيّة لدراسة الكواكب والنجوم وكذلك "قصر الكهربائيّة" وهو مولّد كهربائيّ ضخم لإنتاج الطّاقة الكهربائيّة التي تستخدم للإضاءة وتسيير بعض وسائل النّقل، وأعجب كذلك بآلة العرض السينمائي والطّريق الصّناعيّ السّيار وهما اختراعان حديثان شاهدهما بمعرض باريس الدّولي. [3]

أمّا الفاسي فقد انبهر باختراعات علميّة أخرى شاهدها بلندن مثل: ميزان الطّقس. وهي آلة تقيس الأحوال المختلفة للطّقس. وتستطيع التنبؤ بالتغيّرات المناخيّة قبل حدوثها وتستعمل في الملاحة البحريّة وفي المجال الفلاحيّ وكذلك أعجب الفاسي"بالمبراق" أو "التلغراف". وهي آلة ترسل رسائل برقيّة بسرعة ودقّة متناهية وقد ساهمت هذه الآلة في تطوير الاتصالات واختصار الوقت والمسافات بين البلدان.[4] وقد استغلتها الدول الاستعمارية ، أيّما استغلال في مستعمراتها ومن بينها فرنسا التي حرصت على مدّ خطوط "التلغراف" بين تونس والجزائر تسهيلا للتواصل بين جيوشها في هاتين المستعمرتين.

---

[1] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 42 ،43.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص: 8، 9.

[3] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 66 ،67.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزية إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 9.

2- المجال الاقتصادي:

أ- الصّناعة: نجد نقاطا مشتركة بين ابن الخوجة والفاسي من خلال وصفهما للصناعة في كلّ من باريس ولندن في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد ركّز كلاهما على وصف الآلية والمكننة التي طغت على المجال الصناعي في كلتي المدينتين بفضل الثورات الصناعية المتتالية، فقد عُوّض العمل اليدوي التقليدي بعمل الآلات ذات المحرّكات البخاريّة أو الكهربائيّة. فتضاعف الانتاج مرات كثيرة. وبرزت نهضة صناعيّة واقتصاديّة كبيرة. وقد عاين ابن الخوجة في طريقه من مرسيليا إلى باريس مقدرة الفرنسيين على استصلاح الأراضي وتنمية الإنتاج الفلاحي، بفضل استعمال الآلات وتوظيف التقنيات الحديثة[1] كما تنبّه إلى فوائد تحديث قطاع النسيج في فرنسا باستعمال الآلات الميكانيكيّة فأصبح من دعائم النّهضة الصناعيّة الفرنسيّة،.[2] وركّز الفاسي كذلك على جانب الآليّة والمكننة وأسلوب تقسيم العمل وتتابعه في وصف الصناعة الأنجليزيّة وخاصّة في مصنع الخشب ومصانع السّلاح التي تتميّز باستعمال الآلات المتنوّعة، بحيث تقوم كلّ آلة بوظيفة معيّنة. فيسهل العمل ويزداد الإنتاج.[3] كما لاحظ كلّ من الرحّالتين: اهتمام الباريسيّين واللّندنيّين بإقامة المعارض المتنوّعة للتّعريف بالاختراعات العلميّة والتّقنيات الجديدة والمساهمة في ترويج الإنتاج وتحسين جودته، فقد زار ابن الخوجة معرض باريس الدّولي الذي نُظّم سنة 1900 وأعجب كثيرا بتنوّع معروضاته وثرائها وتتمثّل خاصّة في عرض الاختراعات والآلات الحديثة مثل المولّدات الكهربائية العملاقة والمناظير الفلكيّة وآلات قطع الخشب وتصنيعه.[4] وزار الفاسي كذلك معرضا للمنتوجات الفلاحيّة. يقام بصفة سنويّة بمدينة لندن تحت إشراف الملكة ويجتمع فيه الفلاّحون والمزارعون لعرض إنتاجهم من الغلال والأزهار والتعريف به. ويساهم هذا المعرض في ترويج المنتوجات الفلاحيّة، وزيادة جودتها عبر منح مكافآت سخيّة للمنتوج الجيّد. [5]

ب- القطاع المالي والبنكي: كان لكلّ من ابن الخوجة، والفاسي اهتمام مشترك بتطوّر القطاع المالي والبنكي في كلّ من باريس ولندن باعتباره المحرّك الأساسي للاقتصاد الحرّ. فقد انتبه ابن الخوجة إلى تنوّع اختصاصات البنوك بباريس: فهناك بنك مركزي يختصّ بضرب السكّة وإصدار النقود وبنك عقاريّ يختصّ بتمويل المشروعات العقاريّة والأشغال البلديّة، ولاحظ كذلك ازدهار الأسواق الماليّة (البورصة) ودورها في تنمية الثّروة عبر المضاربة

---

1) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:2.

2) المصدر نفسه، ص:3.

3) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيةّ، صص: 24 ،29 .

4) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:66،67.

5) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزية إلى الدّيار الأنجليزيةّ، صص: 32 ،33.

بالأسهم والسّندات الماليّة.[1] وقد أعجب الفاسي كذلك بالنظام المالي الأنجليزي، وذلك عند زيارته إلى البنك المركزي بلندن. ووصف ثراء خزينة البنك واحتوائها على رصيد ضخم من الذهب والفضّة الذي يمثل احتياطيّا هامّا للدولة، وكذلك بمدى التنظيم والتّدقيق عند إصدار العملات الورقيّة والنقديّة حفاظا على الاستقرار المالي والاقتصادي. [2]

ج– العمران:

أعجب كلّ من ابن الخوجة والفاسي بالازدهار العمراني الكبير بكلّ من باريس ولندن باعتباره ثمرة للتطوّر العلمي والتقنيّ والرّخاء الاقتصادي. فقد أطنب ابن الخوجة في وصف المعالم المعماريّة الفخمة والبارزة لمدينة باريس مثل: كنيسة "سانت مادلين" (Saint-Madelaine) وقوس النصر وبرج إيفل (Tour-Effel) وشارع "الشانزليزيه" (Av.Champs-élysées). وكذلك فعل الفاسي عندما وصف جمال هندسة البناء بمدينة لندن. وانبهر بمنظر شوارعها الواسعة وحدائقها الغنّاء وبفخامة قصورها وعظمة بناءها. لكنّه أهمل وصف العديد من المعالم المعمارية الأخرى الهامة بمدينة لندن، ومن بينها: الساعة العملاقة بلندن "ساعة بيج بن" (Big-Ben).[3] ويبدو أن هذا يعود إلى تركيزه التّام على آداء مهمته الدبلوماسية التي كلّفه بها السلطان المغربي، لذلك لم يشارك هو وصحبه في الكثير من الزيارات الاستطلاعية الأخرى التي نظّمتها لهم الملكة ."**وكان نظرنا وفكرتنا مجموعة على قضاء غرض مولانا أمير المؤمنين، إذ هو الأهم المقصود بالذات، وليس لنا فيما سواه التفات، فساعدناهم على رؤية هذا النزر اليسير، يعد أن أضربنا على مواضع كثيرة ورؤية عجائب أخرى.**" [4] وهذا يكشف عدم رغبة أو عدم قدرة الرحالة الفاسي على التعمّق في فهم الجوانب الحضارية والثقافية للمدنية الأنجليزية، فاكتفى بزُخرفها وبمظاهرها السطحية من قوة عسكرية وبروتوكولات ومراسم ملكية.

---

[1] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:22– 23.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزية، صص: 34 ،35.

[3] ساعة "بيج بن(Big Ben) ": تعتبر ساعة "بيج بن" التي تبلغ من العمر قرنا ونصفا من الزمان من أشهر معالم لندن وهي أشهر جهاز لقياس الزمن في العالم، وتشتهر بالدقة المتناهية في قياس الوقت، وهي مثبتة في برج لندن.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، ص:37.

II- في المجال الاجتماعي:

يمكن أن تستنتج من خلال الصّورة التي رسمها كلّ من ابن الخوجة والفاسي للملامح الاجتماعيّة لكلّ من باريس ولندن في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، تميّز كلّ من الشخصيّتين: الباريسيّة واللّندنيّة بسمات وخصائص مشتركة. مثّلت دافعا قويّا للتقدّم والتطور وتتمثل في الحرص على النظام وحب العمل وحسن الأخلاق، الوفاء وحبّ الوطن والاهتمام بالتّرفيه والثقافة. وقد مثّلت المرأة قطب الرحى في التحول الاجتماعي، وقد تفطن إلى ذلك ابن الخوجة المدافع عن حرية المرأة.

1- النظام وحبّ العمل وحسن الأخلاق:

لاحظ ٱبن الخوجة ارتقاء السلوك المدني والاجتماعي لأهل باريس، إذ ينعدم التنازع والشجار بينهم. ويطغى عليهم النظام وحسن المعاشرة واحترام الآخرين، فرغم كثرة الزوّار والمتجوّلين في الحدائق والأماكن العامّة، ينعدم الخصام والعراك بينهم، إذ يتّصف الباريسيّون بدماثة الأخلاق واحترام قواعد العيش المشترك، كما لاحظ ٱبن الخوجة كذلك حسن تنظيم الوقت والقدرة على استثماره لدى أهل باريس، إذ يقسّمونه إلى وقت للعمل والكدّ والإنتاج ووقت للّهو والتّسلية والترفيه عن النفس دون تداخل بين هذا وذاك، كما أن قيمة العمل مقدّسة لديهم إذ يحرصون على إتقان أعمالهم وإجادتها. [1]

أعجب الفاسي كذلك بالظّاهرة نفسها الموجودة لدى أهل لندن، إذ يتميّزون بالتنظيم في العمل والنشاط والتركيز فيه دون تكاسل أو خمول، فقد لاحظ ذلك من خلال وصف أعمال البحّارة في المركب الذي أقلّه من طنجة إلى لندن، وقد استحسن الفاسي دماثة أخلاق الأنجليز ولطفهم من خلال وصفه لقبطان السفينة، وأعجب كذلك بكرم أهل لندن ولباقتهم في التواصل الاجتماعي من خلال وصف الاستقبالات والمآدب التي أقيمت على شرفه وصحبه، كما استحسن الفاسي العادات المنّظمة للأنجليز في الأكل والنّوم، إذ يحدّدون أوقات معلومة للأكل ويستعملون أدوات مناسبة لذلك. [2] ونستنتج من خلال ما سبق اشتراك كلّ من الرحّالتين في التركيز على وصف خاصّية مهمّة في المجتمعين: الباريسي واللّندني، وهي خاصّية النظام وتقديس قيمة العمل واحترام قواعد العيش المشترك التي تشكل دافعا قويّا للتقّدم والتطوّر، وهي ما يفتقده الرحّالتان في بلديهما (تونس والمغرب) حيث تسود الفوضى والارتجال والإهمال والغيبوبة عن الوقت وهي من الأسباب الرّئيسيّة لتخلّف هذه المجتمعات وتأخرّها.

---

[1] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:47، 53.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، صص:5، 7.

2- الوفاء وحبّ الوطن:

لاحظ آبن الخوجة قوّة نزعة حبّ الوطن والانتماء له لدى أهل باريس، حيث قاموا بإنشاء معلم ضخم، هو معلم البانتيون (Panthéon) وقد خصّصوه لدفن عظماء الأمّة الفرنسيّة من فلاسفة ومفكّرين وعلماء، وفي هذا اعتراف بالجميل لهؤلاء الذين صنعوا أمجاد الأمّة الفرنسيّة ورغبة في تخليد ذكرهم. كما أنّ الباريسيّين ظلّوا أوفياء لإمبراطورهم "نابليون الأوّل" الذي صنع الكثير من الأمجاد والمآثر للأمّة الفرنسيّة، فشيّدوا له ضريحا ضخما، ألحق به متحف تاريخيّ لتخيد أمجاده وانتصاراته. [1] كما لاحظ أبو الجمال الفاسي الخاصّية نفسها لدى أهل لندن، إذ يتميّزون بشدّة حبّهم لوطنهم من خلال تعظيمهم وتبجيلهم لملكتهم التي تعدّ رمزا وطنيّا لأنجلترا، ويتّصفون كذلك بوفائهم لأبطالهم وزعمائهم ورغبتهم في تخليد ذكرهم، فقد شاهد الفاسي خلال تجواله بمدينة لندن عدّة تماثيل حجريّة ونحاسيّة نصبت بساحات المدينة وحدائقها، وهي تجسّد الجنرال الأنجليزي الشهير: ولنكطن (Wellington) الذي يعدّ بطلا قوميّا عند الأنجليز لأنّه هزم "نابليون بونابرت" إمبراطور فرنسا في موقعة: واترلو (Waterloo) وأخذه أسيرا. [2]

3- الاهتمام بالتّرفيه والثّقافة:

يشترك كلّ من الباريسيّين واللّندنيّين في الاهتمام بالتّرفيه والتّرويح عن النّفس عن طريق ارتياد الملاهي والتّجوال في الحدائق والمتنزّهات العامّة من أجل تجديد النشاط وطرد السّآمة والملل والمحافظة على الصحّة العامّة. ويتميّزون كذلك بولعهم بممارسة الأنشطة الثقافيّة والرّياضيّة لتنمية المواهب والطّاقات البدنيّة والنفسيّة والفكريّة. وهي من السّمات المشتركة للعالم المتمدّن.

أ- التّرفيه والترويح عن النّفس: لاحظ آبن الخوجة ميل الباريسيّين إلى التّسلية والتّرفيه عن النّفس من خلال الجلوس في المقاهي الكثيرة المنتشرة على جنبات الشوارع الفسيحة والممتدّة، ويتميّزون كذلك بحبّ ارتياد الملاهي والتّجوال في المتنزّهات والحدائق الكثيرة المنتشرة في أنحاء باريس مثل: روضة الأصفياء شانزيلزي-Camps) élysées) وغابة بولونيا (Bois de Pologne) وهي فضاءات خضراء شاسعة مجهّزة بكلّ المرافق الضّروريّة لتيسير التجوّل وتوفير الرّاحة لزائريها من مقاعد وفوانيس وطرق معبّدة وحوانيت للباعة. [3] كما عاين الفاسي كذلك كثرة البساتين والحدائق والمناطق الخضراء بمدينة لندن التي يرتادها الزوّار للرّاحة والتّرفيه عن النّفس. ويهتمّ

---

[1] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:30.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:14.

[3] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز،الصفحات: 43، 44 ،142 ،143.

اللّندنيّون كذلك بإنشاء حدائق الحيوان التي تحتوي على أنواع كثيرة من الحيوانات والطّيور المجلوبة من كافة أنحاء العالم وذلك لإمتاع الزّائرين وتثقيفهم والمحافظة على التنوّع الحيوانيّ من الانقراض. ويتميّز الأنجليز كذلك بحبّهم لممارسة الهوايات والرّياضات المختلفة مثل ترويض الخيول وركوبها والرماية بالبنادق وتعدّ هذه الرّياضات – لدى الأنجليز – من علامات النّبل والشّرف والبطولة.[1]

ب– الأنشطة الثقافيّة: يشترك كلّ من الباريسيّين واللّندنيين في الاهتمام بالثقافة والفنّون وتنظيم المعارض المتنوّعة وإنشاء المتاحف وكثرة زيارتها وكذلك ممارسة الفنّون وحسن تذوّقها. فقد لاحظ ٱبن الخوجة مدى اعتناء البارسيّين بفنّ المسرح لأهميّته في الإصلاح الاجتماعي ونشر الفضيلة، حتى إنّ الدّولة تخصّص ميزانيّة معتبرة لدور المسرح والفنّون المختلفة.[2] كما يتميّز الباريسيّون بالاعتناء بالمتاحف والإكثار من زيارتها لأنّها تساهم في حفظ تراث الأمّة وذاكرتها الوطنيّة من التلاشي والنّسيان وتعمل على تنمية الذوق الفنّي والحسّ الجمالي لدى مرتاديها، ومن أبرز المتاحف التي وصفها ٱبن الخوبة بباريس "متحف اللّوفر(Musée de Louvre) " الذي يحوي العديد من المعروضات النادرة والذّخائر النفيسة. [3]

كما لاحظ الفاسي ولع اللّندنيين بالفنّون من خلال مشاهدة فرقة موسيقيّة للبحريّة الملكيّة وسماع عزفها، وكان أفرادها يستعملون آلات موسيقيّة متنوّعة لإنتاج ألحان متناسقة وأنغام شجيّة تطرد السّآمة وتثير الحماسة والانشراح. ويتميّز اللّندنيّون كذلك بإنشاء المتاحف المتنوّعة والحرص على زيارتها ويعدّ ذلك من سمات التمدّن والرقيّ الحضاريّ. وقد زار الفاسي متحفا عظيما بضواحي لندن يسمّى "دار البلّور" يحتوي على أقسام متنوّعة بها معروضات من كافة العصور والحضارات مثل : الحيوانات المحنطّة والبناءات التاريخيّة المجسّمة لقصور فرنسيّة وفرعونيّة وأندلسيّة .كما زار الفاسي متحفا آخر خاصّ بالأسلحة بأنواعها المختلفة : القديمة والحديثة. [4]

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، الصفحات :11، 21، 22، 31.

[2] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص: 22، 23.

[3] المصدر نفسه، ص: 27.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزية، الصفحات: 6، 7 ،29 ،32.

المبحث الثاني: مواطن الاختلاف

I- المجال العلمي:

1- وسائل النّقل:

ركّز محمّد بن الخوجة على وصف وسائل النّقل البريّة الموجودة بباريس في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر مثل: الطّوموبيل (Automobile) والترامواي (Tramway) والقطار السّريع الرّابط بين مرسيليا وباريس[1] وفي مقابل ذلك اهتمّ أبو الجمال الفاسي في وصفه لوسائل النّقل بأنجلترا، في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر بوسائل النّقل البحريّة من سفن ومراكب، وذلك بحكم الخصوصيّة الجغرافيّة للمملكة البريطانيّة، فهي جزيرة تحيط بها المياه من كلّ الجوانب، كما أنّها إمبراطورية بحريّة بامتياز لأنّ عماد قوّتها العسكريّة والاقتصاديّة يرتكز بالأساس على أسطولها البحريّ: العسكريّ والتجاريّ الضّخم والمتطوّر ممّا سمح لها بالتوّسع وامتلاك مستعمرات عديدة في كافة أنحاء العالم (أميركا وإفريقيا وأستراليا وآسيا). وقد انبهر الفاسي بكثرة السّفن والمراكب الرّاسية بموانئ لندن، وكذلك بضخامة بنائها وبالتقنّيات الحديثة التي تستخدم في تسييرها والتي تمنحها مزيدا من السّرعة وتحميها من التعرّض للأعطاب.

2- الاختراعات الحديثة:

عندما زار الفاسي مكتب البرق بمدينة لندن. وشاهد آلة المبراق أو التلغراف. وعاين قدرته على إرسال الرّسائل بسرعة ودقّة بين البلدان. انبهر أشدّ الانبهار. وعبّر عن حيرته وعجزه عن فهم كيفيّة اشتغال هذه الآلة العجيبة لأنّها كانت شيئا مجهولا بالنسبة إليه لم يعرفه في بيئته المغربيّة التقليديّة. « **والحاصل أنّ هناك محلاّ عظيما متّسعا مشتملا على آلة في باطنها أسباب ومسبّبات غائبة عن الحسّ، وهي ممّا يدقّ وصفها ويصعب ذكرها**».[2]

ولكن في المقابل كانت آلة التلغراف اختراعا معلوما بالنسبة إلى ٱبن الخوجة، لأنّ المملكة التونسيّة في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر – رغم خضوعها تحت الاحتلال الفرنسيّ – كانت بلادا ساعية إلى التمدّن والأخذ بأسباب التقدّم، إذ أُدخل إليها استعمال التلغراف بمساعدة الدّولة الفرنسيّة:« **ولكنّ التلغراف السّلكي نصب بتونس في سنة 1276 هـ/ 1859م، إثر ولاية المشير محمّد الصّادق باي، حيث أمضى اتفاقا مع الدّولة**

---

1) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص:42، 43.

2) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:4.

الفرنساويّة في تخويلها منحة إحداث التّلغراف من حلق الوادي إلى حدود الجزائر».[1] ولم ينتبه محمد الصادق باي إلى المقاصد البعيدة لفرنسا، إذ كانت تخطط لاحتلال تونس انطلاقا من التراب الجزائري، وقد ساعدها التلغراف كثيرا على ذلك.

3- المعمار: وصف ٱبن الخوجة المعالم المعماريّة لمدينة باريس وصفا مدقّقا ومفصّلا، حيث يقدّم اسم المعلم ويصفه وصفا هندسيّا من ناحية الشكل ونوعيّة الموّاد المستعملة في البناء والنقوش والصّور والكتابات. كما يقدّم معلومات تاريخيّة حول المعلم: تاريخ بنائه، تكلفته، بانيه أو مصمّمه، مدّة بنائه، الأحداث التاريخيّة المرتبطة به،[2] وذلك بحكم اتّساع معارفه التاريخيّة فقد كان كاتبا مؤرّخا ينشر مقالاته التاريخيّة بمجلّة الرّوزنامة التونسيّة، وكذلك بحكم تعدّد زياراته إلى باريس واطّلاعه على كتابات الرحّالة التونسيّين الذين سبقوه إلى زيارة هذه المدينة من أمثال خير الدّين وٱبن أبي الضّياف وبيرم الخامس ومحمد السنوسي، مما يدل على توفر مرجعية ووعي مشترك ومتناسق بالآخر. أمّا بالنسبة إلى أبي الجمال الفاسي فقد ورد وصفه للمعالم العمرانيّة بمدينة لندن وصفا عامّا وباهتا وسطحيّا. يفتقر إلى دقّة الوصف الهندسي. ويخلو من المعلومات التاريخيّة والعلميّة.[3] ويعود ذلك بالأساس إلى محدوديّة ثقافته العلميّة وعدم إلمامه بالتاريخ الأنجليزي، بحكم ثقافته المخزنيّة المغربية التقليديّة.

4- عوامل التقدّم: ٱهتمّ ٱبن الخوجة بوصف مكانة التعليم وأهميّته بباريس في النّصف الثاني من القرن 19، لأنه كان واعيا ومتحمسا لما حدث في عهد المشير أحمد باي من مأسسة التعليم وتعصيره من خلال إحداث المكتب الحربي ببارادو (سنة 1840م) وإصلاح التعليم بالزيتونة (سنة 1842م). وقد شهد التعليم بباريس في هذه الفترة التاريخية ازدهارا كبيرا. وكثر عدد المتعلمين. وأُقيمت مركّبات تعليميّة تحوي عديد المدارس في مختلف الاختصاصات.« **ومن الشوارع الجامعة طريق القدّيس (سان جرمان) القريب من شارع القديس (سان ميشال) وحواليه يوجد مدارس التعليم التي يأهلها عشرات الألوف من التلاميذ ويسمّون هذه المحلّة بالحارّة اللاّطينيّة(Qartier Latin)** ».[4]

---

[1] محمّد بن الخوجة. صفحات من تاريخ تونس، تحقيق :حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي ،(بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1986)، ط 1، ص: 159.

[2] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، الصفحات:21 ،22 ،29 ، 30 ، 32 ، 35 .

[3] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزية، صص: 10، 11.

[4] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، صص : 23 ،24.

كما قام ٱبن الخوجة بوصف المكتبة الوطنيّة بباريس التي تحتوي على مخزون ثريّ من الكتب والمخطوطات في كافة مجالات العلوم والمعرفة المأخوذة من كلّ الحضارات والبلدان[1]. ويمكن أن نتبيّن من خلال ذلك إيمان ٱبن الخوجة بأنّ إصلاح التعليم والتشجيع على البحث العلمي هما الحلاّن النّاجعان لمقاومة التخلّف وتحديث البلدان، خاصّة وأنّ محمّد بن الخوجة، كان من المشاركين في لجان إصلاح التعليم بجامع الزيتونة بتونس والدّاعين إلى تنظيمه وتحديثه عن طريق الجمع بين العلوم الشرعيّة والعلوم الحديثة. [2] لأنّه يعتبر أنّ العلوم الشرعيّة لم تعد وحدها كافية لتحقيق التقدّم واللّحاق بركب المدنيّة الغربيّة. « **إنّ سبب تأخّر المسلمين في القرون الحديثة هو جهلهم بالعلوم الكونيّة التي أشرقت أنوارها على أنحاء أوروبا بفضل أسلافهم الذين ضربوا فيها بسهم مصيب، لأنّ مباحث الأديان وحدها أصبحت غير كافية لمجاراة الأمم التي بلغت أوج الحضارة بفضل الاكتشافات العلميّة والمستجدّات العصريّة ولا سبيل لتدارك ما فات إلاّ بالنهوض بالأمّة التونسيّة من مدارك الحضيض إلى مستوى السّؤدد والمجد بنشر العلوم في ربوعها سواء كانت قديمة أو عصريّة.**» [3]

لئن كان ٱبن الخوجة يرى أنّ التقدّم والتحديث يعتمد أساسا على قوّة العلم والمعرفة والفكر. فإنّ الفاسي يعتبر أن التقدّم يرتكز أساسا على قوّة الجيش والعسكر، فقد أولى في رحلته اهتماما وعناية خاصّة بوصف الجيش الأنجليزي وصفا مدقّقا ومفصّلا: تدريبا وتنظيما وتسليحا وذلك بحكم ظروف المرحلة التاريخيّة التي كان يعيشها بلده وملابساتها: المغرب في النّصف الثاني من القرن 19، فقد مُني بهزيمتين عسكريّتين ساحقتين: الأولى في "إيسلي" سنة 1844 أمام الجيش الفرنسي بسبب مساندة المغرب للقبائل الجزائريّة في حربها ضدّ فرنسا والثانية في " تطوان" سنة 1859 أمام إسبانيا وقد نتج عن ذلك إلزام المغرب بتنازلات مهينة ودخوله تحت وصاية دوليّة مذّلة حتّى أصبح مهدّدا بالاحتلال الوشيك من طرف القوى المتكالبة عليه،[4] في ظلّ كلّ هذه الظّروف العصيبة، اعتبر الفاسي أنّ امتلاك القوّة العسكريّة يعدّ أولويّة مطلقة بالنسبة إلى بلده المغرب من أجل استعادة سيادته الوطنيّة وهيبته المفقودة، لذلك نلاحظ أنّه خصّص الحيّز الأكبر من رحلته لوصف الجيوش الأنجليزيّة بمختلف أنواعها وتشكيلاتها البريّة والبحريّة كما وصف عتادها الحربيّ الحديث من بنادق ومدافع وبوارج حربيّة وكذلك صناعتها العسكريّة التي تتميّز بالمكننة واستعمال الآلات.

---

[1] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:24.

[2] محمّد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، تحقيق: الجيلاني بن الحاج يحي وحمّادي السّاحلي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ط 2، ص: 83.

[3] محمّد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، صص: 309، 310.

[4] Voir : Kalide Ben Srhir. Britain and Morocco during the embassy of Drummond Hay, (1845-1886),(Translated by Malcolm Williams and Gavin Waterson), British: Routledge. Curzon, 2005.

كما وصف الفاسي أساليب التدريب العسكري التي ترتكز على التكوين التطبيقي والميداني، وعلى المناورات الحربيّة الدّوريّة التي تضمن الجاهزيّة القتاليّة الدّائمة للجيش والقدرة على إتقان الخطط العسكريّة والإستراتيجية، ولعلّ غايته من كلّ ذلك الوصف التفصيلي الذي أورده في كتابه، هي تبيّن مواطن القوّة في الجيش الأنجليزي من أجل الاستفادة منها في تحديث جيش بلده (المغرب) وتعصيره.

5- المصطلحات العلميّة عند محمد بن الخوجة وأبي الجمال الفاسي :

سلوك الإبريز في مسالك باريز	الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية
- السفن التجارية (ص8)	- بابور عظيم (ص4)
- حوافل تسير بالكهرباء (ص13)	- النّواعير/ناعورة (ص4)
- قطار الحديد الطيار (ص14)	- الرفّاس(آلة يدفع بها المركب)- (ص4)
- العجلات (ص14)	- المدافع العظام (ص5)
- المدينة الكهربائية (ص16)	- القوس(آلة لتحديد الوقت اعتمادا على الشمس)- (ص5)
- نور الكهربائية (ص23)	- آلة مُعدّة لهذا المعنى شبه المجانة(الساعة) لمعرفة أحوال الطقس (ص6)
- دار البورس (ص23)	- آلات الموسيقى:الطبل،البوق،الطنبور (صص6،7)
-أسهام البنوك وقراطيس المالية الدولية (ص23)	- كرّوصات(عربة تجرها الخيول)-(ص8)
- الكتبخانة العمومية (ص24)	- البابورات البريّة(السيّارات)- (ص9)
- الأيقونات (ص26)	- ديار الصناعات(المصانع) – (ص9)
- مسكوكات فرنسويّة (ص34)	- فبركة (Fabrica)كلمة إسبانية تعني مصنع (ص24)
- دار سكة فرنسا (ص34)	- مكينة (ص24)
- المرآة المكبّرة (ص38)	- قالب (ص24)
- الكرّوسة ذات الأربعة دواليب (ص42)	- مطرقة عظيمة (ص24)
- الطوموبيل (ص42)	- تبريم(تدوير)- (ص24)

سلوك الإبريز في مسالك باريز	الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية
- التراموای الكهربائي (ص43)	- الوشاك(زنبرك)- (ص24)
- الماكينات البخارية (ص60)	- جعبة (قناة صغيرة أو كبيرة من حديد أو خشب أو زجاج)- (ص289
- التلغراف (ص60)	- زجاجة(واجهة بلّورية)- (ص32)
- التلفون (ص60)	- محلّ شبيه بفرينة الآجرّ (ص35)
- المنطاد (ص60)	- محلّ السّلك(مكتب البرق)- (ص36)
- الصيدلة والعقاقير (ص60)	- آلة باطنها أسباب ومسبّبات (ص37)
- قنديل كهربائي (ص65)	-المدافع،المهاريس،الصواعق،صناديق البارود (ص38)
- قصر الكهربائية (ص66)	- المكاحل (ص18)
- ماكينة خشب ذات دواليب متعددة (ص66)	- البَنْبُ (القذيفة التي تجعل في المدفع) (ص23)
- قصر الضوء (ص67)	- الخفيف(الرصاص)- (ص23)
- المرآة المكبّرة (ص67)	- أكركة (رافعة:Cric)- (ص23)
- البوارج القوية الهائلة (ص68)	- الشواقر، الفؤوس (ص18)
- الطريق الصناعي السيّار (ص68)	- الكراريط/م:كريطة (Carreta) بالاسبانية: وهي عربة ذات عجلتين (ص17)
- بنورما: السينما الصامتة (ص68)	- طائر رأسه مثل رأس الذئب (ص21)
- السفينة البخاريّة (ص75)	- مهاريس/م: مهراس: نوع من المدافع يشبه شكله المهراس (ص27)
- فنون الطبيعيّات (ص7)	- كاغيد السكة (الأوراق المالية)- (ص34)

نلاحظ من خلال الجدول المقارنيّ السابق، نوعا من الدقة والنضج في استعمال المصطلح العلميّ عند محمّد بن الخوجة، ذلك أنّه استعمل مفردات تقنية عربيّة مناسبة لوصف المخترعات والآلات الجديدة التي شاهدها بباريس، مثل استعماله لكلمة: سفينة أو حافلة أو قطار أو قنديل كهربائي، وعندما يتعذّر عليه إيجاد المرادف العربي المناسب، يقوم ابن الخوجة بإيراد اللّفظ الأجنبيّ، ويستعمله بطريقة دقيقة ووظيفيّة مثل: دار البورس أو التراموای

الكهربائي أو الماكينات البخاريّة. وهو يدلّ على فهم ودراية بالمستحدثات التقنية التي مكّنت الحضارة الغربيّة من الارتقاء والتقدّم. ونلاحظ في هذا الصدد القدرة الكبيرة التي كان عليها جيل خير الدين ثم جيل ابن الخوجة في تبني الألفاظ الأعجمية وترويضها وإدخالها في قاموس الاستعمال اللغوي، دونما تحرج أو تردد، الأمر الذي لا نجده في سائر الأقطار الشرقية المحافظة على صفويّة اللغة. وفي المقابل لم يستعمل الفاسي مفردات تقنية دقيقة نظرا إلى محدوديّة ثقافته العلميّة وعجزه عن فهم هذه الآلات المستحدثة التي شاهدها بلندن، حيث عمد إلى تعريب اللّفظ الأجنبيّ كما هو وارد في لغته الأصليّة، نطقا وتركيبا مع تحوير بنيته اللّغويّة ليلائم قواعد اللّغة العربيّة مثل كلمة " بابور" التي استعملها للدّلالة على المركب أو السيّارة أو كلمة " فبركة " وتعني : مصنع أو كلمة مكينة وتعني: آلة . وفي بعض الأحيان يستعمل الفاسي الجملة عوضا عن اللّفظ للدّلالة على المعنى المطلوب مثل قوله عند وصف ميزان الطّقس "آلة معدّة لهذا المعنى شبه المجانة" أو تشبيه شيء معلوم له بشيء مجهول عند وصفه لأفران المصانع « محلّ شبيه بفرينة الآجر". وفي بعض الأحيان يعجز عن إيجاد معادلات لغويّة للمرئيات والآلات الغريبة عن بيئته وثقافته، فيقول: « **آلة في باطنها أسباب ومسبّبات**» أو يحيل القارئ إلى مصنّفات العلماء مثل قوله عند وصف الحيوانات الغريبة عنه التي شاهدها في حديقة الحيوان بلندن. « **ومنها ما عرفناه ومنها ما لم نعرفه، ولعلّ الدّميري في حياة الحيوان يلمّ بأسمائها وببيانها وبخواصّها والله أعلم** ».[1] كما نلاحظ أن الفاسي قد ركّز في وصفه لمظاهر التقدّم التقنيّ والعلميّ في لندن على استعمال المفردات والكلمات الدّالة على الأنواع المختلفة للأسلحة البريّة والبحريّة، وذلك لأنّ اهتمامه الأساسي كان متّجها ومنصبّا على السّعي إلى تبيّن مظاهر التقدّم الحربي والعسكريّ لبريطانيا.

II- المجال السّياسي والاجتماعي:

1- المجال السّياسي:

لم يجد ٱبن الخوجة حرجا أو صعوبة في وصف خصائص النظام السّياسي بفرنسا عامّة وباريس خاصّة، وذلك بفضل اتّساع أفقه الفكري والثقافي نتيجة كثرة المطالعات والرّحلات التي قام بها إلى أوروبا وبلدان شمال إفريقيا (الجزائر ،المغرب، فرنسا، موريتانيا)، وكذلك إتقانه وتمكّنه من اللّغة الفرنسيّة ومشاركته في العديد من اللّجان والمؤتمرات والمجامع العلميّة وتعدّد المناصب الإداريّة والسياسيّة التي تقلّدها. كما أنّه اتّبع أسلوب التعايش والتّساكن مع الاحتلال الفرنسي لتونس حيث اعتبره نوعا من الحماية والرعاية وتبادل المصالح، إذ يرى أن فرنسا هي قوّة صاعدة في أوروبا، لا نملك إلّا الخضوع والاستسلام لها واقتباس أسباب التقدّم والتمدّن منها.« **تلك الحالة الرّاقية**

---

[1] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزية، ص:23.

التي كانت عليها المملكة التونسيّة في القرون الوسطى وما قبلها وهي حالة أعقبها الفشل والضعف لسوء الحظّ، في الثلاثة القرون الأخيرة، حتّى آل أمرها للانحطاط الدفعيّ وسقوطها في حجر فرنسا التي مدّت لها يد المساعدة حتّى أصبحت تونس متعلقة بها تعلّق البنت البارّة بأمّها الحنينة.» [1]

وقد تطرّق ابن الخوجة إلى وصف خصائص النظام الجمهوري الفرنسي، فبيّن أنّه يتكوّن من سلطة تنفيذيّة على رأسها رئيس جمهوريّة منتخب وسلطة تشريعيّة تتوّزع على مجلسين وهما : مجلس الشيوخ "سينات"(Senat) ومجلس النوّاب، وقد لاحظ أنّ السّلطة التشريعيّة الحقيقيّة هي بيد مجلس النوّاب المنتخب من طرف الشعب، إذ تحدّث عنه قائلا:« **ولا يخفى أنّ هذا المجلس هو الذي يدبّر بفرنسا– مع مجلس الشيوخ– كلّ أمر ذي شان ولا نبالغ إذا قلنا أنّ بيده سعادة الأمّة وشقاوتها، ولكن لمّا كانت أصول الجمهوريّة شوريّة كانت أعمال النوّاب سائرة على صراط قويم.**»[2] كما تنّبه ٱبن الخوجة إلى مظاهر العلمنة وفصل الدّين عن الدّولة الموجودة بباريس من خلال وصف التحوّل في وظائف كنيسة "سانت مادلين" التي كانت معدّة في القديم للاحتفال بتتويج ملوك فرنسا، لكنّها في الوقت الحالي أصبحت مقتصرة على إقامة الصلوات والشعائر الدينيّة.[3]

أعجب ٱبن الخوجة بقوّة النّزعة الوطنيّة لدى الفرنسيّين والمتجسّدة في حبّ الوطن والذود عنه والعمل من أجل نهضته.[4] وقد أبرز قيم العدل والإنصاف التي يتميّز بها نظام الحكم في فرنسا من خلال وصف طريقة تعامل رجال الشرطة مع المواطنين والتي تعتمد على العدل وعدم الأخذ بالشبهة واحترام الحريّات الشخصيّة.[5] كما بيّن أهميّة الحكم الرّشيد والالتزام بالحقّ في تطوّر الحضارة والعمران في مقابل داء الظّلم والاستبداد الذي يؤدّي إلى التخلّف والانحطاط. [6]

أمّا أبو الجمال الفاسي فلم يكن قادرا على استيعاب منظومة الحكم المتطوّرة القائمة ببريطانيا في النّصف الثاني من القرن التسع عشر وفهمها، وهي ملكيّة دستوريّة عريقة تقوم على ثلاث مؤسّسات رئيسيّة: التاج، الوزارة والبرلمان، ولعلّ ذلك يعود، إمّا إلى محدوديّة ثقافته السياسيّة بحكم تكوينه الفقهي التقليدي، وإمّا إلى تحاشيه عمدا التطرّق إلى هذه المواضيع خشية إغضاب سلطة المخزن، عبر إبراز المفارقة الكبيرة بين النظام الديمقراطي القائم ببريطانيا والنظام الاستبدادي السائد بالمغرب، فاكتفى بوصف الجوانب البروتوكوليّة للقصر الملكي بلندن دون النّفاذ إلى جوهر هذا

---

1) محمد بن الخوجة، الرحلة الفلياريّة بالمملكة التونسية، (تونس: المطبعة الرسمية التونسية، 1912)، ط 1، صص: 279.

2) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص: 33.

3) المصدر نفسه، صص:21 ،22.

4) م، ن. ص: 51.

5) م، ن، ص: 52.

6) م، ن، ص، ن.

النّظام السياسي: فقد لاحظ أنّ المدوّنة البروتوكوليّة في لندن تتميّز بالدقّة والعناية بأدقّ التفاصيل وباحترام المراسم المرعيّة في اللّقاءات الدبلوماسية الرسميّة وذلك من خلال وصفه لطقوس الاستقبال والوداع والمآدب وتقديم الهدايا، فقد لاحظ أنّ ملكة أنجلترا تكلّف موظّفين ينوبونها في استقبال الضّيوف الرسميّين والقيام بشؤونهم.[1] كما تشرف على الاحتفالات الرسميّة والاستعراضات العسكرية.[2] وتنظّم مآدب في القصر الملكي على شرف ضيوفها تتميّز بالبذخ والكرم والفخامة.

2- المجال الاجتماعي :

تتجلّى نقطة الاختلاف الأساسيّة في المجال الاجتماعيّ بين ٱبن الخوجة والفاسي في موقف كلّ منهما من المرأة ومدى الاهتمام بدورها في المجتمع.

أ- موقف ابن الخوجة من المرأة الباريسيّة:

يعدّ ٱبن الخوجة صاحب فكر تحرّري نابذ للانغلاق والتحجّر ومقاوم للبدع والخرافات مثل ظاهرة " **تقديس السّبحة**". فقد تطرّق إليها في إحدى مقالاته، وهو بصدد الحديث عن تاريخ المسبحة في الإسلام. فاعتبر أنّها أداة مساعدة على ذكر الله تعالى وتسبيحه وتقديسه. وليست مصدرا للقداسة.[3] وذلك بحكم انفتاحه على الثقافة الغربيّة وانتمائه إلى المذهب الحنفي الأقلّ تشدّدا من المذهب المالكي.« **والمعروف أنّ الحنفيّين بتونس كانوا يتعاملون مع الإسلام بأكثر مرونة من المالكيين الذين يشكلون أغلبيّة الشعب التونسيّ** ».[4]

وقد ساهمت كلّ هذه العوامل في صياغة نظرة محمّد بن الخوجة إلى المرأة، فقد دعا إلى تمكينها من حقّ التّعليم لكي تحسن تربية أبنائها لأنّها تُعدّ المدرسة الأولى للطّفل. « **لكي تحسن المرأة توجيه تربية طفلها يجب أن لا تفوّت الفرصة لتكون هي نفسها متعلّمة.**»[5] كما دعا ٱبن الخوجة إلى الاكتفاء بالزوجة الواحدة، معتبرا أنّ ذلك يتماشى مع العقل والمنطق السليم. « **شقاء الإنسان أن يطيع هواه ولا يتبع حكم العقل بالاقتصار على الزوجة الواحدة**».[6] وٱعتبر ٱبن الخوجة المرأة شريكا حقيقيّا للرّجل داخل البيت وخارجه من خلال إبراز إعجابه بالنّساء المشتغلات بفرنسا وقدرتهنّ على المساهمة في تطوير الاقتصاد الفرنسي.[7] كما أعجب ٱبن الخوجة بجوّ الحريّة الذي تعيش فيه

---

1) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:4.

2) المصدر نفسه، ص: 15.

3) محمّد بن الخوجة، "تاريخ السبحة في الإسلام" ،الرّوزنامة التونسيّة، العدد العاشر،(تونس- المطبعة الرّسمية: 1910)، صص: 32،37.

4) أشواق .عوي .الرّوزنامة التونسيّة لمحمّد بن الخوجة (1901- 1917) مصدر من مصادر تونس المعاصرة، رسالة ماجستير، إشراف: الأستاذ: الهادي التّيمومي، نوقشت بكليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، جوان 2011.

5) Voir: Mohamed Ben Khouja. La femme arabe et l'instruction, Revue Tunisienne, p:430-445.

6) محمّد بن الخوجة، الرّوزنامة التونسيّة ،1910، ص:57.

7) محمّد بن الخوجة، الرّزنامة التونسيّة، ص: 125.

النّساء الباريسيّات وبقدرتهنّ على مخالطة الرجال والتّجوال في الحدائق دون خشية من التعرّض إلى المضايقات. «**وليس هناك منظر أجمل من مشاهدة عدّة آلاف من الكرّوسات تسير في علن واحد بين ظلال بستان واحد وفوقها بنات الجنس اللّطيف متكئات، كأنّما هنّ على نمارق وفرش، وعلامات الانبساط والتيه تتلألأ على وجوههنّ.**» [1] وأشار ٱبن الخوجة كذلك إلى براعة المرأة الباريسيّة في ممارسة الفنّون المتنوّعة من رقص وغناء وتمثيل من خلال تقديم عروض فنيّة في المتنّزهات العامّة أو في المسارح والملاهي. ونستنتج من خلال ذلك، أنّ ٱبن الخوجة مقتنع بأهميّة مشاركة المرأة للرّجل في تحقيق التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة والارتقاء الفكريّ والثقافيّ.

ب– موقف الفاسي من المرأة اللّندنيّة:

على عكس اهتمام ٱبن الخوجة بالمرأة الباريسيّة، وإبرازه لخصالها ومواهبها. لا نجد في رحلة الفاسي حضورا للمرأة اللّندنيّة، باستثناء بعض الإشارات السّطحيّة العابرة، فقد لاحظ أنّ الأنجليز تحكمهم ملكة وهي: «سلطانة الجنس الأنجليزي.»[2] وتحضُر معها بنتاها مجلس الحكم. وهذا يعني أنّ المرأة الأنجليزيّة تشارك في الحياة السياسيّة لبلادها، إذ وصلت إلى أعلى هرم السلطة (منصب الملك). ويمكن لها – بحكم الدستور– أن تورّث الملك لبناتها لأنهنّ يحضرن معها في مجلس الحكم للتدرّب على تسيير شؤون الدّولة. « **وحين رأتنا (أي الملكة) قامت للقائنا بعد أن نزلت من كرسيّها. وسلّمنا عليها. وسلّمت علينا ضاحكة. وكلّ ذلك إيماء، بحضرة قائد مشورها ووزرائها وزوجها وكبير العسكر وبنتيها. ولها سمت حسن، وخلق مستحسن.**» [3]

كما أشار الفاسي إلى أنّ توارث النّساء للملك عادة شائعة في أنجلترا. فقد كانت هناك ملكة سابقة للملكة الحاليّة.« **ورأينا هنالك صورة زعموا أنّها كانت ملكة (سابقة) على جنسهم، عليها من الحليّ والجواهر واليواقيت، ما ينيف على الثلاثة ملايين.**» [4] ولكنّ الفاسي، القادم من بيئة مغربيّة مخزنيّة محافظة، لم يعبأ بدور المرأة القائدة والناشطة في المدنيّة اللّندنية، أو لعلّه تحاشى الخوض في ذلك، خشية من فتح باب يعسر غلقه. وقد تعجّب الفاسي من ظاهرة اختلاط النّساء بالرّجال في المناسبات الرّسميّة بلندن، مقابل حجب المرأة في البيت وإقصائها عن المشاركة في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة العامّة كما كان سائدا في الشرق وخاصة ببلده (المغرب). « **وفي السّاعة العاشرة من اللّيل، ذهبنا لدارها، فوجدنا عظماء الدّولة هناك مع نسائهم.**»[5] ولعلّ انصراف الفاسي عن الاهتمام بوصف المرأة اللّندنيّة، يعود إمّا إلى العقليّة الدينيّة المحافظة التي يتميّز بها، باعتبار تكوينه الفقهي

---

1) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:43.
2) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:10.
3) المصدر نفسه، ص:12.
4) م. ن، ص:32.
5) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 13.

التقليدي أو لسيطرة الاهتمامات العسكريّة والحربيّة على ذهنه، ممّا جعله غير متحمّس للبحث في الأمور الاجتماعيّة، أو لعلّ ذلك يعود إلى طبيعة المجتمع الأنجليزي المحافظ باعتبار أن نسائه أكثر ميلا إلى الحياء والحشمة وقلّة الظهور من النّساء الفرنسيّات، وقد عاين الرحّالة المغربي"محمّد بن الحسن الحجوي"، الذي زار لندن سنة 1919 هذه الظاهرة فقال:« **المعلوم في أخلاق الأنجليز، شدّة الحشمة والوقار وقلّة التهتّك في نسائهم ورجالهم، باعتبار الغالب فيهم بخلاف غيرهم.**» [1]

3- المصطلحات السياسيّة والاجتماعيّة عند آبن الخوجة وأبي الجمال الفاسي:

سلوك الإبريز في مسالك باريز	الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة
- الأمّة (ص2)	- باشدور:كلمة إسبانيّة معناها : سفير(Embajador)، (ص1)
- المعارف الإنسانيّة (ص2)	- المداراة (بذل الدنيا لأجل صلاح الدّين والدّنيا)، (ص2)
- الجهالة والبربريّة الحضارة والمدنيّة (ص 2)	- المداهنة (بذل الدّين لأجل صلاح الدنيا)، (ص2)
- المدنيّة الأوروبيّة (ص4)	- الاستخارة النبويّة (ص1)
- المستجدّات الحديثة (ص7)	- المخزن (الدّولة) ، (ص8)
- التمدّن العصري الأوربّاوي (ص7)	- ناظر المصاريف الخارجيّة (ص8)
- الحضريّة الفرنسويّة (ص7)	- سلطانة الجنس النجليزي (ص10)
- مهد العمران (باريس)،(ص18)	- وزير (ص11)
- البنك العقاري الفرنسيّ (ص22)	- كتاب سيّدنا (ص11)
-الإدارة البلديّة (ص22)	- محلّ الملكة (ص12)
- تياتر (ملهى– مسرح)،(ص22)	- قائد مشور الملكة (ص12)
- مجاري السّياسة وتجدّد الحوادث (ص29)	- صاري عسكر (قائد الجيش)، (ص12)
- مجلس المشورة (ص29)	- ميران البحر (أميرال البحر) (ص12)
- الجمهوريّة (ص32)	- الرّاعي والرعيّة (ص12)

[1] محمّد بن الحسن الحجوي. الرّحلة الأوروبيّة، تحقيق: سعيد الفاضلي ،(أبو ظبي: دار السّويدي للنّشر والتوزيع، 2000) ،ط 1، ص: 58.

سلوك الإبريز في مسالك باريز	الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة
– الحريّة/ الملك المطلق (ص32)	– عظماء الدّولة (ص13)
– مجلس نوّاب الأمّة (ص33)	– المؤمن/ الكافر (ص13)
– مجلس الشيوخ (ص33)	– القوانين الجارية (ص13)
– أصول الجمهوريّة الشوري (ص33)	– الدّيوان (ص13)
– توادد الشعوب (ص42)	– أعيان المدينة (ص14)
– محلاّت النّزهة والملاهي (ص44)	– سلطان طاغية الفرنصيص (ص14)
– فنّون الرّقص والغناء (ص44)	– الكسرة (الهزيمة)، (ص19)
– تشخيص رواية (ص45)	– العقل الظلماني/ العقل النّوراني (ص28)
– التّرقيات الفكريّة (ص47)	
– الحريّة المقيدة والمعتدلة (ص51)	
– الحريّة المتطرّفة، الاشتراك (ص51)	
–الإنصاف، التباعد عن المظالم (ص52)	
– مصالح الجمهور (ص53)	
– داء الاستبداد (ص56)	
– أسباب الرّفاهيّة (ص57)	
– التربية والتهذيب (ص60)	
– الرياضة البدنيّة (ص60)	
– العقل الإنسانيّ (ص61)	
– قوّة العلم (ص61)	
–الدّولة الجمهوريّة (ص63)	
–الملك الاستبدادي،شهاوي الإرادة المطلقة (ص70)	
– الحريّة والمساواة (ص70)	

الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة	سلوك الإبريز في مسالك باريز
	– البرلمان – انتخاب – رئيس الجمهوريّة (ص72)

نستنتج من خلال الجدول المقارني السابق، تطوّر المصطلح السياسيّ والاجتماعي لدى محمّد بن الخوجة، إذ استعمل مفردات سياسيّة حديثة ودقيقة تدلّ على اتّساع ثقافته السياسيّة مثل: مجلس نوّاب الأمّة ومجلس الشيوخ والجمهوريّة الشوريّة والانتخاب والحريّة والمساواة كما استعمل مصطلحات فكريّة معبّرة تدلّ على فهم عميق للحضارة الأوروبيّة عموما والفرنسيّة خصوصا من قبيل: الجهالة والبربريّة في مقابل الحضارة والمدنيّة وكذلك استعمل عبارات تدّل على إيمانه بقدرة العقل الإنساني على الخلق والابتكار حيث يتسلّح بالعلم والمعرفة وبضرورة التواصل والحوار بين الحضارات والثقافات من أجل تطوير المعارف الإنسانيّة. ويبدو من خلال كل هذا أن غزارة المصطلحات "الخوجية" دليل على سعة الاطلاع والمعرفة والاستيعاب لتجليات المدنية.

بينما نلاحظ أنّ أبا الجمال الفاسي ما زال أسيرًا ضمن نطاق المصطلح الفقهي التقليدي، حيث يستعمل مفردات لوصف المفاوضات السياسيّة من قبيل: المداراة والمداهنة أو يقتصر على ترجمة حرفيّة للمصطلح السياسيّ الأجنبيّ دون بحث وتنقيب على مرادفه العربي الصّحيح، مثل استعماله لكلمة "باشدور" الإسبانيّة وتعني: السّفير، كما وظّف كلمة: "مخزن" للدّلالة على معنى: الدّولة في أنجلترا رغم التباين والتباعد الحضاريّ الكبير بين الدّولة الأنجليزيّة الحديثة والسّلطة المغربيّة المخزنيّة التقليديّة التي تتولىّ خزن المؤونة والطعام وتوزيعه. كما يتحدّث عن مفهوم: الرّاعي والرعيّة ضمن دولة أنجليزيّة حديثة ترسّخ فيها مفهوم المواطنة والمشاركة الديمقراطيّة في الحكم. كما أنّ استعماله لمفردات وثنائيّات من قبيل: المؤمن/الكافر والعقل النّوراني/العقل الظّلماني، يكشف نظرته الإقصائيّة للآخر، وعدم قدرته على الاعتراف به، رغم ما حقّقه من إنجازات علميّة وحضاريّة هائلة.

المبحث الثالث: مواطن الطرافة والتطرّف في الرّحلتين

I- مواطن الطّرافة في رحلة محمّد بن الخوجة:

1- المستوى الأسلوبي :

أ- أسلوب الكتابة الصّحفيّة:

لقد امتهن محمّد بن الخوجة العمل الصّحفي منذ بداية شبابه، فقد كان من مؤسّسي جريدة "الحاضرة" ومن أبرز محرّريها بالاشتراك مع زميليه علي بوشوشة والبشير صفر. وقد كان ينشر مقالاته بركن أسبوعيّ قارّ خاصّ به وعنوانه: "حوادث داخليّة." ويهتمّ بنقل نشاط المقيم العامّ ونشاط الباي ووليّ عهده وكذلك بتغطية زيارات المسؤولين الفرنسيّين إلى تونس وبنشاطات العمّال التونسيّين (الولاة) داخل جهات المملكة التونسيّة وفي هذه الصّحيفة، نشرآبن الخوجة رحلته "سلوك الإبريز في مسالك باريز" في شكل مقالات صحفيّة متتالية، كما أصدر عند توليه إدارة المطبعة الرّسميّة مجلّة " الرّوزنامة التونسيّة "، وهي عبارة عن تقويم سنويّ يحتوي على معلومات هامّة تعرّف بالدّواوين الحكوميّة وتاريخها ووظائفها، وبالمشاريع التربويّة والاقتصاديّة التي أقيمت في البلاد التونسيّة، وتحتوي هذه المجلّة كذلك على بحوث تاريخيّة ذات قيمة علميّة مثل تراجم الأعلام وإحصاء للأقليّات التي توافدت على تونس بعد الاحتلال الفرنسيّ ،كما تحتوي على مقالات علميّة تهتمّ بأحدث الاختراعات والاكتشافات بالإضافة إلى النّوادر والطّرائف الشيّقة، وإضافة إلى ذلك نشر آبن الخوجة مقالات أخرى "بالمجلّة التونسيّة" و"المجلّة الزيتونيّة" وبمجلّة "شمس الإسلام".[1]

انعكست الشخصيّة الصّحفيّة لمحمّد بن الخوجة على أسلوب كتابته في رحلته إلى باريس "سلوك الإبريز في مسالك باريز،" إذ اتبّع أسلوبا تسجيليّا يقوم على التحقيق الصّحفي الميداني الذي يعتمد على المشاهدة والمعاينة المباشرة أو السّماع عن طريق نقل الرّوايات الموثوق بصحّتها، ويقول في هذا الإطار:« **فلخصت في عجالة أو عجلات أهمّ ما رأيته أو وقفت عليه أو رويته عن الثّقات، وتقدّمت بصحائفي لمدير صحيفة الحاضرة البهيّة راجيا منه نشرها بجريدته الأدبيّة، فتلقّى سؤالي بالقبول، ولذلك ترى الرحلة منقسمة لعدّة رسائل أو مقالات حسب ما أدرجته تلك الصحيفة من العجالات.**» [2] كما تتّصف هذه الكتابة الصّحفيّة بالإيجاز وعدم الإطناب والتركيز على الأمور الهامّة والمتميّزة » **هذا وحيث انتهى بنا المقام من نقل زبدة رحلتنا مع التحرّي**

---

[1] علي العربي، محمّد بن الخوجة : المؤرّخ والرحّالة، الصفحات: 25، 26 ،34 ،37.

[2] محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:1.

في نقل الأفيد والمهمّ، ضاربين صفحا عن المفيد والمهمّ خوفا من التطويل الذي كلّت منه الهمم.» [1] وقد اعتمد آبن الخوجة في كتابة رحلته إلى باريس التي وردت منجّمة على عدّة مقالات صحفيّة نشرت بجريدة الحاضرة على أسلوب التفاعل مع القرّاء من أجل تعديل أو تجويد أسلوب كتابته الصّحفيّة، حيث يتوجّه بخطابه إلى مدير جريدة الحاضرة قائلا:« **لا جناح عليّ إذا قلت أنّ ما تفضلتم بنشره من خلاصات رحلتي قد استجلب لي كثيرا من مظاهر التنشيط والوداد ومن هذا القبيل الالتفات الزّائد الذي حظيت به من طرف مولاي الأمير الجليل عضد الملّة ويمين الملك سموّ وليّ العهد الأفخم، إثر بروز مقالتي الثانية، وإن كنت تلقيت بعد نشر تلك المقالة ملاحظات رشيقة من بعض المستطلعين لأحوال باريس، إذ هم رأوا منّي التقصير في التعريف بمعالم عاصمة التمدّن الفرنسويّ، حيث أنّي لم أذكر إلاّ ما اشتهر منها وهو القليل، وضرورة أنّه لا يخلو واحد من اعتراض في جميع الأغراض. تلقّيت ملحوظاتهم بوجه طلق وقلب سليم وجئت مستمنحا منكم توسعة في المجال بهذا العدد لكي أقوم نحو مخاطبي بتدارك ما رأوه منّي تقصيرا، وإن لم أحط بكلّ شيء علما.**» [2]

ب– أسلوب الكتابة التاريخيّة:

لقد شغف محمّد بن الخوجة منذ بدايات شبابه بالتّاريخ إذ كشفت مقالاته الأولى بصحيفة الحاضرة عن توّجهه إلى الكتابة التّاريخيّة وخاصّة تاريخ تونس وحضارتها وذلك بحكم انتمائه إلى عائلة عريقة تقلّد أفرادها مناصب دينيّة وسياسيّة سواء في البلاط الحسيني أو لدى إدارة الحماية ، فقد كان والده "محمّد البشير بن الخوجة " (توّفي سنة 1911) موظّفا ساميا بالكتابة العامّة وقد ترك له مكتبة تزخر بالوثائق وبالتّقييدات الشخصيّة للأحداث والمطالعات ذات القيمة التاريخيّة الهامّة.[3] وقد تبلورت كتابته التّاريخيّة عبر مقالاته بمجلّة "الرّوزنامة التونسيّة" و"المجلّة الزيتونيّة" وكتابه المهمّ الذي ألّفه في آخر حياته " تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد"، حتّى أصبح يعرف: بابن الخوجة المؤرّخ ،بفضل غزارة معلوماته التاريخيّة وإلمامه بشتّى الموضوعات والأحداث، وقد انعكست ملكة الكتابة التّاريخيّة على أسلوب الوصف ونقل الأحداث في رحلته "سلوك الإبريز في مسالك باريز" أين نلحظ حسّه التّاريخي وولعه بالنّظر والتّحقيق، إذ نجده يعرّف بالأماكن الجغرافيّة الموجودة بفرنسا بالاعتماد على التّاريخ الإسلامي ».**إنّ التّاريخ الإسلامي حفظ لبعض البقاع الفرنساويّة كثيرا من أسمائها على عهد السّلطة العربيّة، ومن ذلك مدينة أفنيون واسمها بالعربي: صخرة أونون.**» [4] كما يقوم ببحث تاريخيّ حول اسم السفينة الفرنسيّة

---

1) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:73.

2) المصدر نفسه، ص:37.

3) علي العريبي، محمّد بن الخوجة : المؤرّخ والرحّالة، صص:41.

4) محمّد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:24.

التي أقلّته من تونس إلى مرسيليا. « **من غريب الاتّفاق أنّ السّفينة التي حملتنا من تونس لمرسيليا تسمّى: (طفنة) نسبة لوادي طنفنة الواقع ببلاد الجزائر الذي تمّ على ضفافه إمضاء المعاهدة الشهيرة باسمه المنعقدة في 30 ماي 1837 بين حكومة الجزائر والأمير عبد القادر.**» [1]

ونجده كذلك يقدّم نبذة تاريخيّة عن كنيسة (سانت مادلين) الموجودة بباريس:« **وقد كان أمر بإنشائها الملك لويز الخامس عشر في سنة 1764 مسيحيّة، إلاّ أنّها لم يتمّ بناؤها إلاّ في عهد لويز فيليب عام 1843 وهو الذي قرّر تخصيصها لأن تكون معبدا دينيّا، بعد أن كان في عزم نابليون الأوّل جعلها هيكلا للفخر.**»[2] وعرّف بتاريخ بعض التّحف الموجودة بالمتحف الملحق بالمكتبة الوطنيّة بباريس ":**كما اطّلعنا على وعاء مطرّز بالذهب وبالحجارة الكريمة من نوع الزّبرجد كان أهداه الخليفة هارون الرّشيد للإمبراطور شارلمان مع رقعة شطرنج بقيت منها بقية لهذا العهد.**» [3]

كما يقدّم معلومات تاريخيّة هامّة حول معلم البانتيون (Panthéon) الموجود بباريس:« **ومن المعالم التي يتحتّم على الغريب زيارتها بباريس مشهد (البانتيون) نسبة للهيكل المقام لجميع الآلهة برومة القديمة، وكان بناؤه على أطلال كنيسة عتيقة في عهد الملك لويز الخامس عشر. وجرى فيه بانيه مجرى التقليد على شكل الكنيسة العظمى برومة. وفي سنة 1781 أذن مجلس المشورة بتخصيصه لأن يكون مدفنا لعظماء الأمّة الفرنساويّة.**» [4] وقد آتّبع آبن الخوجة أسلوب البحث والتحقيق الميداني اعتمادا على الآثار والوثائق التاريخيّة من أجل التوصّل إلى اكتشاف حقائق تاريخيّة لم تكن معروفة وهذا ما يبيّن حضور حسّ المؤرّخ المحقّق لديه فقد لاحظ عند زيارته لمتحف المسكوكات التاريخيّة الملحق "بدار سكّة فرنسا" بباريس »:**أنّه يوجد به نقود ذهبيّة وفضيّة من سكّة عمر بن عبد العزيز والأمويّين والحجّاج والي العراق، وكنّا نظنّ قبل ذلك أنّه لم يبلغ في ولايته بطريق النيابة مع الخطبة لعبد الملك بن مروان إلى حدّ ضرب السكّة باسمه فحقّق لنا العيان غير ما كان بظنّنا.**» [5]

2- المستوى المضموني:

---

1) المصدر نفسه، ص:16.

2) م. ن، ص:21.

3) م. ن، ص:27.

4) م. ن، ص:29.

5) م، ن، ص:34.

أ- الدعوة إلى التسامح الدّيني:

اجتمع ٱبن الخوجة بالقسّ المسيحيّ "لوازون" (Loison) في باريس. وأعجب بأفكاره لأنّه يدعو إلى التقارب والتّسامح والتّوادد بين الأديان، وذلك من خلال خطابه البليغ الذي ألقاه سنة 1895 بتونس حول موضوع: السّعي في التّقريب بين من يعمر المساجد (المسلمون) ومن يعبد بالكنائس والبيع (المسيحيّون واليهود).[1] ويعتبر ٱبن الخوجة أن التعدّدية الدينيّة ظاهرة طبيعيّة عرفتها البلاد الشرقية منذ القديم حيث اعتبرها «**مهد المعابد والأديان المختلفة**».[2] مستشهدا بآية قرآنيّة: ﴿ **لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**﴾.[3]

ب- التعايش والتّواصل الحضاريّ:

نستشفّ من خلال رحلة "سلوك الإبريز في مسالك باريز" إيمان محمّد بن الخوجة بفكرة التّعايش والتمازج بين الشعوب والثقافات ممّا يخلق ثراء اجتماعيّا وحضاريّا كبيرا، وذلك من خلال وصفه لتعدّد الأجناس والأديان واللّغات والأزياء بمدينة مرسيليا، وقد أوجد شبها كبيرا بينها وبين حومة باب البحر بتونس العاصمة في النّصف الثاني من القرن 19 التي تتميّز بالتعدّدية الإثنيّة والثقافيّة لمتساكنيها» .**إنّها من جهة سكّانها أشبه شيء بالحارات الأروباويّة المختصّة بالإفرنج بكبار مدن البلاد الإسلاميّة، بحيث أنّه لم نجد عظيم فرق بينها وبين حومة باب البحر بتونس، إذ هناك يصادف المارّ في طريقه زيادة على العنصر الأوروبّاوي، الذي هو السّواد الأعظم كثيرا من النّاس بأشكال مختلفة وزيّ غريب ولغة غير اللّغة الفرنساويّة.**» [4]

كما نلحظ دفاع ٱبن الخوجة القويّ على فكرة التّواصل والحوار بين الحضارات، فليس هناك، في نظره، حضارة شرقيّة أو غربيّة. بل هي حضارة إنسانيّة جامعة لكل البشر، وتمرّ بمراحل متعاقبة اعتمادا على نفس السنن والنّواميس، إذ يقول مقارنا بين الحضارة العربيّة والحضارة الغربيّة:« **ورجعت القهقري للنّظر في حضريّتنا السالفة ومقابلتها بحضريّتهم، ثم بما نحن عليه الآن، فوجدت أن أسباب تقدّمهم هي أسباب تقدّمنا في القديم، وأنّ العلوم التي ارتقت بهم اليوم لأوج المعالي، هي التي ساد بها أسلافنا مدّة المئين الطّولى من السّنين.**» [5]

لقد كان ٱبن الخوجة مقتنعا بأنّه سليل حضارة عريقة، قدّمت إضافة نوعيّة وكميّة في مختلف مجالات المعرفة

---

1) محمد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:42.

2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3) سورة الرعد، آية: 31.

4) محمد بن الخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، ص:.11

5) المصدر نفسه، ص: 47.

والفكر البشري، سواء في بعدها العربي الإسلامي أو في بعدها القطري (التونسيّ). وقد انعكس هذا على طريقة تعامله مع المجتمع الباريسيّ، فقد تجاوزآبن الخوجة حالة الانبهار والصّدمة الحضاريّة ليبلغ مرحلة التعامل النقدي الواعي مع الحضارة الغربيّة، وذلك بالاعتماد على مثاقفة ذكيّة: تقتبس الفضائل والقيم الإنسانيّة والحضاريّة البنّاءة، وتنبذ الرّذائل الأخلاقيّة الهدّامة، شعاره في ذلك أن الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أينما وجدها.

II– مواطن التطرّف في رحلة الفاسي:

1– المستوى الأسلوبي :

تميّز الخطاب اللّغويّ لأبي الجمال الفاسي بالتذبذب وعدم الاستقرار والعجز عن إيجاد المصطلح الملائم والمناسب وذلك بسبب محدوديّة ثقافته الفقهيّة التقليديّة وعجزه عن العثور على معادلات لغويّة للمرئيّات الجديدة التي شاهدها بلندن، وهي مرئيّات غريبة عن بيئته وعن مرجعيّه اللّغويّة، ممّا جعل خطابه اللّغوي يتخلخل ويتصدّع ويضطرّ إلى البحث عن مفردات مستقاة من لغات وثقافات مختلفة ومتنوّعة، فقد لجأ في أحيان كثيرة إلى استعمال "مزيج لغويّ" يتشكّل من كلمات إسبانيّة وفرنسيّة وفارسيّة وتركيّة وأخرى عاميّة مغربيّة، علّها تسعفه في الإبلاغ وإيصال المعنى المنشود.

أ– كلمات ذات أصل إسبانيّ:

- بابور (ص4): (Vapor) وتفيد معنى باخرة
- القامرة (ص3): (Camera) وتعني الحجرة أو القاعة
- باشدور (ص1) : (Embajador) معناها سفير
- كروصة (ص8): (Carrosa) وهي عربة بأربع عجلات تجرّها الخيل
- المكينة (ص7): (Maquina) بمعنى آلة
- فبركة (ص23): (Fabrica) وتعني المصنع
- البانكو (ص34):(Banco) معناها الأوّل كرسيّ مستطيل من خشب ثمّ صارت تطلق على مصرف المال
- كراريط: م/كرّيطة (ص17): (Carreta) وهي عربة ذات عجلتين لحمل الأحجار والأسلحة
- البرطال (ص21): (Pardal) وتعني العصفور

ب– كلمات ذات أصل فرنسي:

- كنبيّات (ص4) : م/كنبة (canapé) وتفيد معنى سرير للاستراحة
- اللّين (ص22): (Elan) وتعني حيوان الأيل

- أكركة (ص24): جمع لكلمة (cric) الفرنسيّة وتعني رافعة

ج- كلمات ذات أصل فارسيّ:

- سراجيب: م/ سرجب (ص4) وتعني النافذة
- الكمخة (ص4): نوع من النسيج الحريري السّميك
- صاري عسكر (ص12): جنرال
- شرسمة (ص25): حشو يجعل في الأسلحة الناريّة لينفجر بشدّة

د- كلمات ذات أصل تركيّ:

- بقرج (ص28): الإناء الذي يغلى فيه الماء لتحضير الشاي
- نيشان (ص31): بمعنى وسام

هـ - كلمات من العاميّة المغربيّة:

- الحلقة (ص3): الفضاء الذي تدخل منه الشمس والنّور إلى المنزل
- خلفة (ص5): هي الخطوة
- مري (ص6): عقرب السّاعة
- السّلك(ص8): البرق أو التلغراف
- الزّاج (ص9): هو الزّجاج في اصطلاح المغاربة اختصارا
- بيت النّار (ص24): الفرن
- الوشاك (ص25): زنبرك
- زاوق (ص26): الزئبق
- القرطاس (ص26): قذائف الرّصاص التي تجعل في المسدّسات والبنادق
- الصّفر (ص35): النّحاس الأصفر

2- المستوى المضموني: على نقيض آبن الخوجة الذي كان مؤمنا بالتواصل بين الحضارات وبالتسامح بين الأديان في تعامله مع الحضارة الغربيّة بصفة عامّة والفرنسيّة بصفة خاصّة، طغت على ذهنيّة الرحّالة الفاسي وعلى تفكيره فكرة الصّراع والصّدام بين الحضارتين: الغربيّة والمتمثّلة في الحضارة الأنجليزية والشرقيّة التي يمثّلها بلده المغرب. وقد اتّخذ هذا الصّراع والصّدام تجليّات متعددة: عسكرية ودينية وثقافية.

أ- الصّراع العسكريّ:

تمّت رحلة الفاسي إلى أنجلترا في ظرف تاريخيّ مشحون بالتوّتر وبالتهديدات الخارجيّة لبلده المغرب. فقد توالت عليه الهزائم العسكريّة القاسية: من هزيمة "إيسلي" سنة 1844 أمام الجيوش الفرنسيّة إلى هزيمة "تطوان" أمام إسبانيا سنة 1859. وأعقب هذه الهزائم معاهدات مذلّة ومهينة للمملكة المغربيّة. وقد ترسّخ هذا الوضع بفرض وصاية دوليّة على المغرب جرّدته من كلّ سيادة. وجعلته عرضة للاحتلال العسكري الوشيك من طرف القوى المتكالبة عليه، وغدا المغرب محاصرا من كلّ الجهات: الجيوش الفرنسيّة المتمركزة بالجزائر من الشرق، وإسبانيا التي تحتلّ جزءا من أراضيه من الشمال، وحوصر كذلك من طرف الإمبراطورية البريطانيّة التي تمتلك قاعدة عسكريّة "بجبل طارق". وتجوب أساطيلها المتوّسط والمحيط الأطلسي.« **لقد أصبح المغاربة على وعي تامّ بالمخاطر التي تلاحق مصير بلادهم، وتيقنوا بتفوّق أوروبا، وجاءت رحلات السّفراء المغاربة انعكاسا صادقا لهذا الواقع الجديد الذي عاشه المغرب خلال القرن 19**.» [1]

إنّ انفتاح المغرب على حضارة الغرب في عصر الفاسي (النّصف الثاني من القرن19)، لم يكن انفتاحا فكريّا أو تلاقحا ثقافيّا، وإنّما كان في إطار مواجهات عسكريّة ضارية رسّخت صورة الغرب الغازي والمحتلّ في الذهنيّة المغربيّة. وقد دعّم هذه النّظرة ما يملكه الغرب من جيوش جرّارة وأسلحة حديثة للقتل والتدمير. وقد كان لهذه الظّروف والملابسات التاريخيّة المخصوصة تأثيرها القويّ على ذهنيّة الفاسي ونظرته إلى الغرب، وبالأخصّ أنجلترا التي زارها. وعاين مظاهر قوّتها العسكريّة بصفة مباشرة، حتّى إنّنا نجده أثناء مشاهدة الاستعراض العسكري بمدينة لندن، يدعو على هذا الجيش بالإبادة والهلاك لأنّه يرى فيه محتلاّ غازيا. وشرّا يوشك أن يقع ببلاد المسلمين وخاصّة ببلده المغرب. "**والله يهلك القوم الكافرين وينصرنا عليهم**. " [2]

كما ينظر الفاسي إلى حسن التنظيم والانضباط السّائد بين عسكر الأنجليز نظرة خشية وإشفاق، لأنّها قوّة يمكن أن تتسلّط في أي وقت على بلده المغرب، رغم الصّلح والتقارب الظّاهريّ بين البلدين.« **ورأينا ترتيبا عجيبا وأسلوبا غريبا، ربّما اندهش رائيه، وهال بغتة ملاقيه.**»[3] كما أنّ تطوّر الأسلحة وأساليب الحرب وفنون القتال لدى الأنجليز أثارت في نفس الرحّالة الفاسي الخوف والجزع حتّى قال: «**والحاصل أنّهم – دمّرهم الله – يستعملون أشياء تدهش، سيّما من رآها فجأة، وربّما اختلّ مزاجه من أجل ذلك**».[4] كما أنّ "الآخر" الأنجليزيّ في نظر الفاسي. هو رمز للشرّ المطلق والعدوان المتربّص، لا يملك إلاّ الاستجارة والاستعاذة بالله منه.

---

[1] عبد المجيد القدوري، سفراء عرب في أوروبا (1610-1922) الوعي بالتفاوت، صص: 42 ،43.

[2] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:17.

[3] المصدر نفسه، ص: 15.

[4] أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة ،ص:19.

« **نعوذ بالله من شرورهم وشرور غيرهم وجعل كيدهم في نحورهم.**» [1]

ب– الصّراع الدّيني والثقافيّ:

إنّ حدّة الصّراع العسكري الذي كان يخوضه المغرب ضدّ القوى المتكالبة عليه والطّامعة في غزوه واحتلاله – في النصف الثاني من القرن 19– وقوّة الصّدمة الحضاريّة التي أحسّها الرحّالة الفاسي، وهو يعاين عن كثب مظاهر الارتقاء والتفوّق للحضارة الأنجليزيّة ،ستؤثر على ذهنيّته وتفكيره، وستولّد مظاهر ومستويات مختلفة من الصّراع. وفي هذا الإطار اعتبرت نازك سابايارد أن فنّ الرّحلة هو:" **من أهمّ الفنّون التي صوّرت احتكاك العربي بالغرب، وما نجم عن هذا الاحتكاك من مؤثرات صدمت الذهنيّة العربيّة والمجتمع العربي وأدّت إلى صراع سياسيّ واقتصاديّ وفكريّ وحضاريّ. ما يزال من الأسباب التي تقلق الهويّة العربيّة حتّى اليوم.**»[2]

كما أنّ الخوف والريبة من "الآخر" الذي يجسّد في نظر الفاسي عدوانا وشيكا، وشرّا قادما، جعلا الرحّالة الفاسي عاجزا عن استيعاب معالم الحضارة الأنجليزيّة، وعن فهم الأسباب الحقيقيّة التي أدّت إلى تطوّر هذا المجتمع. فاكتفى بالوصف الظّاهري المشوب بالدّهشة والحذر للمدنيّة الأنجليزيّة، دون النفاذ والارتقاء إلى مستوى التقصّي وتفسير العوامل والأسباب العميقة للتمدّن والتحضّر. فبقي أسيرا للنظرة الفقهيّة التقليديّة التي تقسّم العالم إلى دار إسلام ودار كفر وترفض الانفتاح على"الآخر" المختلف عقائديّا وفكريّا. " **فمضت الملكة ومضينا لحال سبيلنا، والله يهلك القوم الكافرين وينصرنا عليهم.**» [3] كما يقول في موطن آخر واصفا حال الأنجليز:« **فسبحان من قضى عليهم بالكفر. وحتّمه عليهم حتما، ومن كان في هذه (الدنيا) أعمى فهو في الآخرة أعمى.**» [4]

وقد اعتبر الفاسي أن مظاهر التحديث والعصرنة والتمدّن، ليست سوى تسخير من الله لشعب الأنجليز – رغم كفرهم – مع ما في هذا الرّأي من إغفال لقيمة العلم والعمل والحثّ على السّعي إلى إعمار الأرض".**فسبحان من سخّر لهم الأشياء مع اتّباعهم الأهواء ليظهر صنع الله في العكس والطّرد، وليعلم العاصي أنّه لا غرض له في القرب والبعد.**»[5] كما اعتبر الفاسي أن التطوّر العلميّ والتقنيّ الهائل للأنجليز، والتمكين لهم في الأرض يعدّ نوعا من الاستدراج الإلهي، عقابا لهم على تعنّتهم وكفرهم، فأعطاهم الله نعيما دنيويّا زائلا، مقابل حرمانهم من النعيم

---

1) المصدر نفسه، ص:28.

2) نازك سابايارد، الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النّهضة العربيّة الحديثة، (بيروت: مطبعة نوفل، 1992)، ط 2، ص:7.

3) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص:17.

4) المصدر نفسه، ص:39 .

5) أبو الجمال الفاسي، الرّحلة الإبريزيّة إلى الدّيار الأنجليزيّة، ص: 11.

الأخروي الخالد. « **ويزيدهم ذلك تعنّتا في كفرهم – دمّرهم الله – قال بعض العلماء: إنّ النصارى حرموا جنّة الأخرى، فأعطاهم الله جنّة الدّنيا بستانا متّصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج قسطنطينيّة.**»[1] ونلحظ في هذا القول تبريرا وتعزية " للذّات" عن وضع التخلّف والتّقهقر الحضاري الذي تعيشه.

لقد اتخذ الفاسي موقفا اتّسم بالتناقض الوجداني من حضارة أنجلتر، حيث تتنازعه مشاعر الإعجاب والكراهية في الآن ذاته: الإعجاب بتنظيمات هذه الحضارة وبمنجزاتها التقنية العديدة والكراهية "لضلالها وكفرها" وعدوانها واحتلالها للشعوب الضّعيفة، واعتبر أنّ حضارتها الماديّة ما هي إلاّ نتاج " عقل ظلمانيّ " يزيدها إيغالا في الكفر وبعدا عن "العقل النوراني" الذي به يهتدي المؤمنون، غافلا عن كون العقل البشري أداة فكر وإبداع وخلق لا تتجزّأ، وعلى أنّ الدّين الإسلامي دين علم وعمل وسعي إلى التمكين في الأرض، وتطويع المادة لصالح الإنسان.« **لأنّ العقل على قسمين: ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانيّة، ويزيدهم ذلك توغّلا في كفرهم، والنّوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنويّة، كالإيمان بالله وبملائكته ورسله وكلّ ما يقرّب من رضى الله، ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكّر، وبعدم الفقه.**» [2]

إنّ عدم قدرة الرحّالة الفاسي على تحديد موقف واضح من الحضارة الغربيّة عامة والأنجليزيّة بصفة خاصّة – فهي الدّاء والدّواء وهي رمز للنّور وللظّلمات في آن واحد– جعله يعيش قلقا نفسيّا وتمزّقا شعوريّا حادّا، أفضى به إلى نقمه عارمة على الآخر "الكافر،" ولّدت لديه قطيعة ورفضا مطلقا للتّواصل والحوار الحضاري معه. « **اللّهم أحص القوم الكافرين عددا، وشتّتهم بددا ولا تبق منهم أحدا.**» [3]

---

[1] المصدر نفسه، ص: 34.

[2] م. ن، ص: 28.

[3] م. ن، ص:31.

– رسم بياني عدد 1: مراحل التمدن عند محمد بن الخوجة

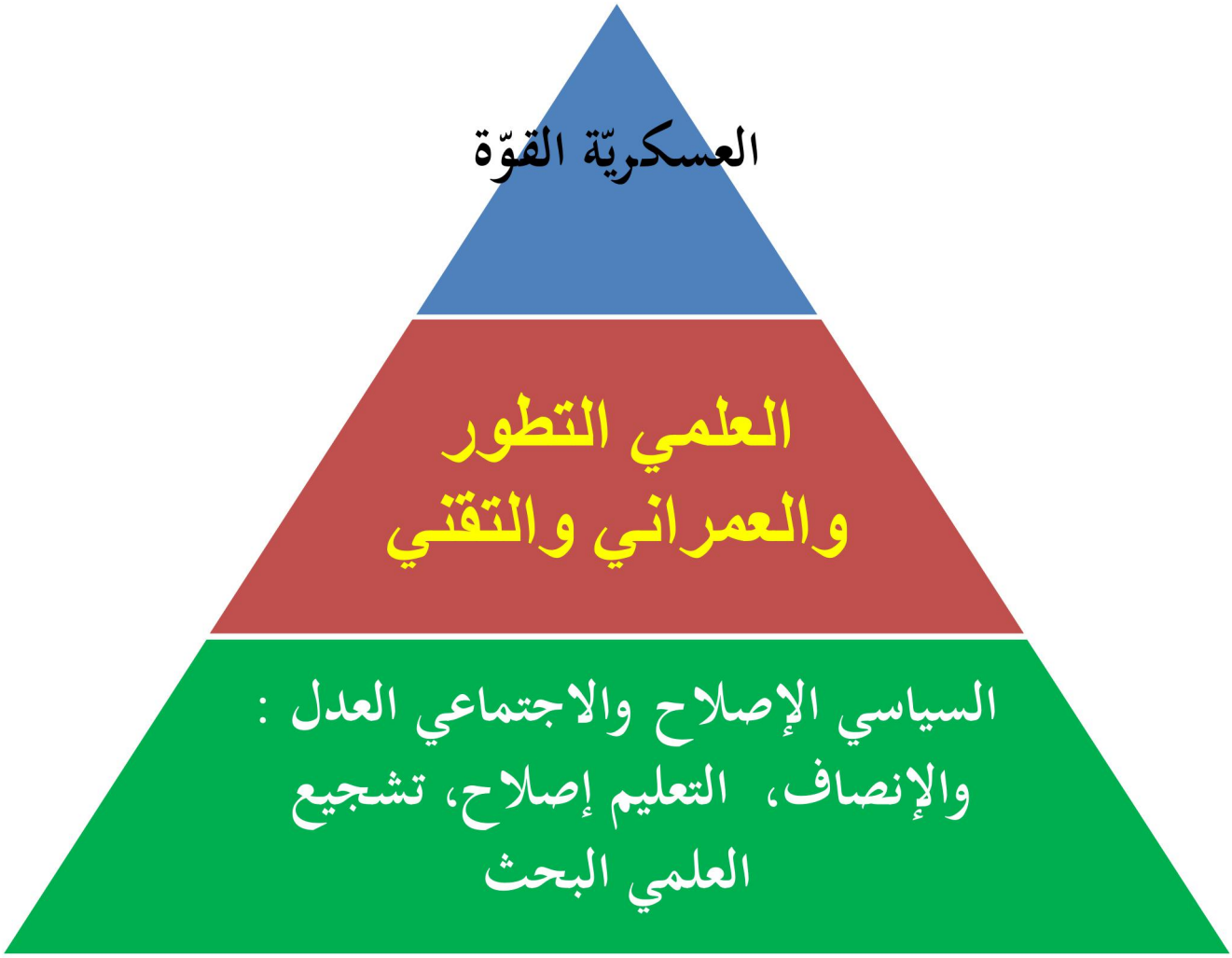

– رسم بياني عدد 2: مراحل التمدن عند أبي الجمال الفاسي (الهرم المقلوب)

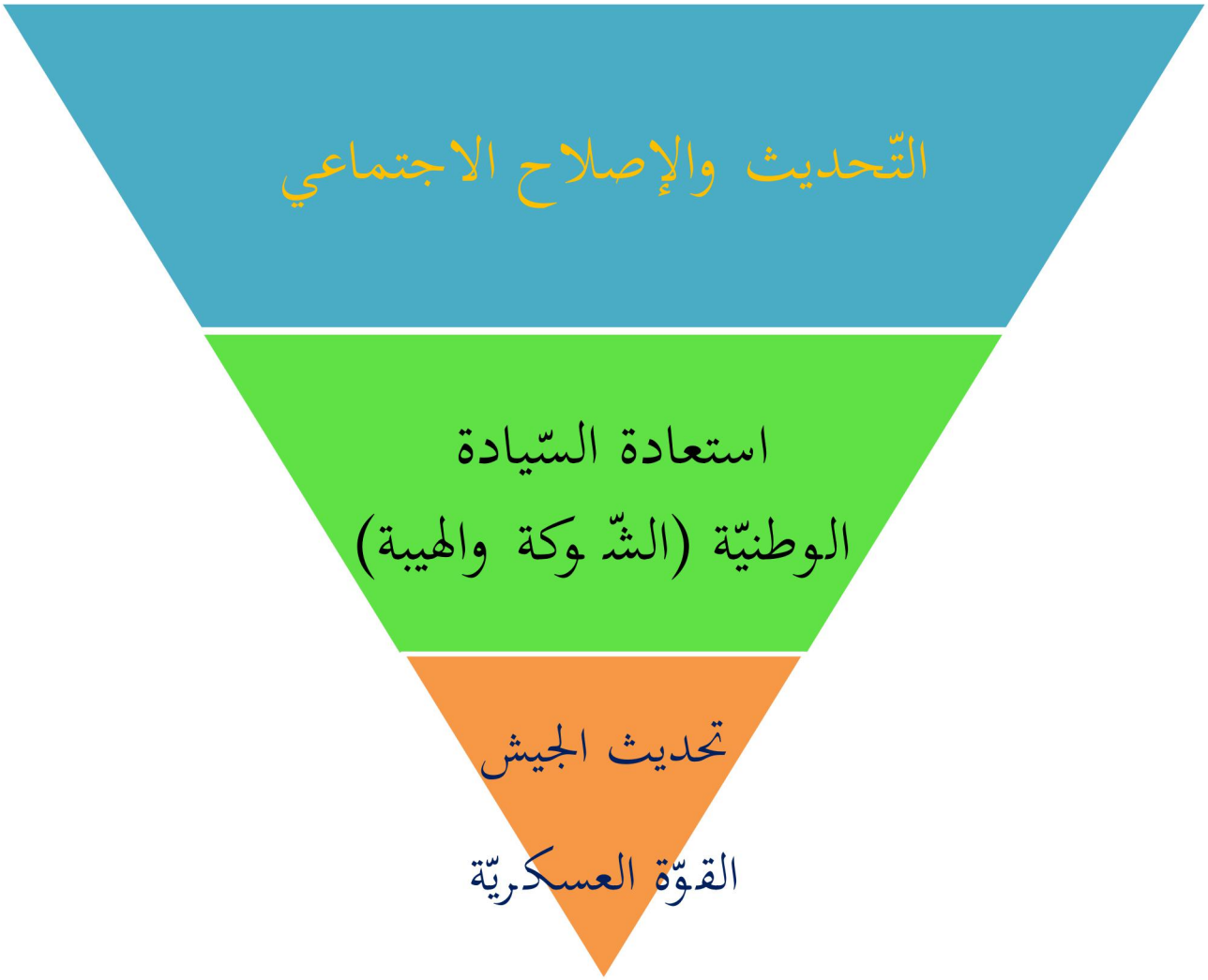
التّحديث والإصلاح الاجتماعي
استعادة السّيادة
الوطنيّة (الشّوكة والهيبة)
تحديث الجيش
القوّة العسكريّة

خاتمة الفصل

تبدو نظرة الرحالة الفاسي إلى المدنية الأنجليزية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظرة سطحية، تكتفي بزُخرف المدنية وبهرجها، دون النفاذ إلى جوهرها ودوافعها الأساسية: الفكرية والثقافية والاجتماعية. فقد انبهر الفاسي بقوة الجيش الأنجليزي وكثرة عتاده وتطور صناعته العسكرية، وكذلك بفخامة القصر الملكي بلندن وحسن تنظيم المراسم والاستقبالات فيه، دون النفاذ إلى فهم أن هذه المظاهر المدنية، ما هي إلا نتاج لسلسلة من الثورات الفكرية والعلمية والصناعية التي عرفتها بريطانيا، وقد أدت في النهاية إلى بروزها كإمبراطورية قوية شاسعة الأطراف. وقد طغى على تفكير الفاسي – بسبب مرجعيته الدينية التقليدية – التقسيم الفقهي التقليدي للعالم إلى: دار إسلام ودار كفر، وتعمّقت هذه القطيعة مع الآخر "الكافر" نتيجة حدّة الصراع العسكري والاقتصادي الذي كان يخوضه بلده المغرب ضد القوى الدولية الطامعة به والمتآمرة عليه (فرنسا، إسبانيا وأنجلترا) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ممّا ولّد في ذهن الرحالة الفاسي نقمة عليه، وعدم قدرة على التواصل معه، وفهم الأسباب الحقيقية لمدنيّته. فطغى على الرحلة هاجس الصراع: الصراع العسكري والصراع الديني والثقافي بين "الأنا" المتخلف والضعيف والمهدد بالاحتلال الوشيك و"الآخر" المتفوق والمدجّج بأعتى الأسلحة والجيوش.

ولكن في مقابل ذلك استطاع الرحّالة ابن الخوجة الذي تشبّع بالإرث العريق للمدرسة الإصلاحية التونسية، أن ينفذ إلى فهم مكامن المدنية وأسبابها الحقيقية، وتتجلى أساسا في الإصلاح الفكري والاجتماعي الذي يمثّل مرتكزا صلبا لأي تطور حضاري منشود، وذلك عن طريق اهتمامه بوصف مكانة التعليم والبحث العلمي بباريس. كما أشار إلى أهمية تحرير المرأة ومشاركتها للرجل في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، من خلال وصف خصال المرأة الباريسية وتعدّد مواهبها ومساهماتها في تنمية بلدها. أما فيما يخصّ نظام الحكم فقد تعمّق ابن الخوجة في وصف وتحليل خصائص النظام السياسي الجمهوري الفرنسي، وتنبّه إلى أهمية قيم العدل والإنصاف والحكم الرشيد في تحقيق الرخاء الاقتصادي والرّفاه الاجتماعي .

إنّ اقتناع ابن الخوجة بأنه سليل مدنية عربية عريقة، سادت العالم في فترات سابقة، وكذلك إحساسه بالانتماء إلى مدرسة إصلاحية "زيتونية"، تقوم على الفكر المقاصدي للشريعة، جعلاه يتعامل مع "الآخر" بانفتاح ونضج كبيرين ،فدعا إلى التسامح الديني والتواصل الحضاري بين الشرق والغرب القائم على مثاقفة ذكية تقتبس الفضائل وتنبذ الرذائل.

تكشف لنا هذه المقارنة بين نظرة الفاسي إلى المدنية الأنجليزية ونظرة ابن الخوجة إلى المدنية الفرنسية عن وجود مدرستين فكريتين مختلفتين: مدرسة مغربية مخزنية تقليدية منطوة على ذاتها، لا تعترف للآخر بالفضل وتكرّس القطيعة وتعجز عن فهم فلسفة التطور، حتى وإن عاينته جهارا وأبصرت بصفة مباشرة فتوحات العلم وإنجازات الإنسان ومدرسة تونسية منفتحة على الآخر ومتشبعة بمصادر هويتها، ومطلعة اطلاعا عاقلا ومسؤولا على تاريخ الحضارات والشعوب، وقد تجرّدت من ثنائية: دار الكفر ودار الإسلام، وآمنت بكونية المدنيّة وحتميّة التّسامح والتّواصل مع الآخر.

خاتمة البحث

توصلنا من خلال بحثنا إلى أنّ مفهوم المدنية قد نشأ تاريخيا مع بدايات ظهور المدن والتجمّعات السكانية الكبيرة، وقد اقترن هذا المفهوم بدلالات الخضوع للقوانين والانضباط والتنظّم وفق عقد مدني متفق عليه. ومفهوم المدنية وثيق الصلة بمصطلح حضارة(civilisation) والذي يعني نمط الحياة في المدينة، وكل ما يتعلق بها من قيم وسلوكيات ونظم ومؤسسات، وتعد عملية التمدّن والتحضّر عملية ديناميكيّة نامية ومتطورة، لأنها تنتج تغييرات فكرية واجتماعية، نتيجة التّفاعل المستمر بين سكان المدينة، وهي تشمل جميع الظواهر المادية والفكرية والأخلاقية وكذلك الإنجازات والمبتكرات التي تميّز طابع الحياة في المجتمعات الحضرية والصناعية الحديثة.

لقد حدّدنا مجموعة من المقاييس والمعايير التطورية لقياس درجة التمدن لدى الشعوب والمجتمعات. وتتمثل في: معيار التحضر والتعقيد ومعيار درجة استعمال التقنيات ومعيار العوامل الفكرية والأخلاقية. وقد استنتجنا أن المدنية هي في الأصل مجموعة مدنيّات متعاقبة عبر التاريخ الإنساني. وقد مثلت المدنية الغربية ذروتها وسنامها نظرا إلى استفادتها من التراكم العلمي والمعرفي للمدنيّات السابقة: اليونانية، الرومانية والإسلامية. وتعدّ الرحلة جسر عبور وتواصل، ييسّر الاطّلاع على ثقافات ومدنيات جديدة، بغية استكشافها ومعرفة خصائصها والاستفادة من منجزاتها. وفي هذا الإطار عملنا في بحثنا على تبيّن خصائص المدنية عند رحّالتين مغاربيّين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهما: محمد بن الخوجة من تونس، من خلال دراسة رحلته إلى باريس "سلوك الإبريز في مسالك باريس" وأبو الجمال الفاسي، من المغرب من خلال رحلته إلى لندن "الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية " واستنتجنا عند المقارنة بين خصائص المدنية لدى كلّ من ابن الخوجة والفاسي وجود نقاط ائتلاف واختلاف بينهما ومظاهر طرافة أو تطرّف تميّز نظرة كل منهما، وذلك بحكم تباين الملابسات والظروف التاريخية لكلتي الرّحلتين واختلاف المرجعية الفكرية والثقافية لكلي الرحّالتين.

لقد انبهر كلّ من ابن الخوجة والفاسي بالارتقاء الحضاري الهائل للمدنية الأوروبية (الفرنسية والإنجليزية) في المجال العلمي، من خلال وصف الاختراعات العلمية والاكتشافات الجديدة بكل من باريس ولندن، مثل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وبواخر متطورة وآلات مستحدثة لاستكشاف الفضاء والسيطرة على الطبيعة، وتسخيرها لصالح الإنسان، وكذلك بالازدهار العمراني الكبير الذي عرفته كلّ من العاصمتين: باريس ولندن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال إبراز فخامة البناء وجودة الهندسة ودقة تخطيط المدن والشوارع، كما رسم كل من ابن الخوجة والفاسي سمات مشتركة للشخصية الأوروبية (الباريسيّة واللّندنية (

والتي مثلت دافعا قويا للتقدم والتطور. وتتجلّى في الحرص على النظام وتثمين قيمة العمل واحترام القانون وحقوق الإنسان ومبادئ العيش المشترك، وكذلك في الاهتمام بالنّواحي الثقافية والفنية والترفيهية، مثل زيارة المسارح والمتاحف والمتنزهات وممارسة الأنشطة الرياضية.

لقد تجاوز ابن الخوجة –بفضل تنوّع مصادر ثقافته وانفتاحه على الحضارة الغربية– مرحلة الصدمة والانبهار بحضارة الآخر إلى النّظر بعين البصيرة في الأسباب العميقة لتقدّمه وارتقائه. فتوصل إلى أن قيم العدل والإنصاف والحكم الرشيد القائم على الشورى والمشاركة الديمقراطية، هي الأساس في تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهة الاجتماعية. وتفطّن كذلك إلى أهمية إصلاح التّعليم وتطوير البحث العلمي في مقاومة التّخلف وتحديث البلدان. كما تنبّه إلى ضرورة تحرير المرأة من الظّلم والحيف الاجتماعي المسلّط عليها كي تصبح عنصرا فاعلا ومنتجا في المجتمع يشارك الرجل في تحقيق الارتقاء الاقتصادي والفكري .

ولكن في مقابل ذلك لم يستطع الفاسي تجاوز حالة الصدمة والانبهار الحضاريين "بالمرئيات العجيبة " التي شاهدها بلندن، فاكتفى بوصف المظاهر السّطحية للمدنيّة اللندنيّة. ولم ينفذ إلى الأسباب الحقيقية والعميقة لتحضّرها وتطوّرها، فلم يستطع فهم منظومة الحكم الديمقراطية العريقة القائمة ببريطانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إذ اكتفى بوصف الجوانب البروتوكولية للقصر الملكي بلندن، كما أولى كل اهتمامه لوصف مظاهر قوة الجيش والصناعة الحربية الأنجليزية، معتقدا أن القوّة العسكرية هي الكفيلة وحدها بتحديث البلدان وتطويرها.

لقد أدرك ابن الخوجة أن الاختلافات الحضارية والثقافية بين الشرق والغرب، لا تحول دون التّفاعل والتّثاقف وتبادل القيم والأفكار والمعارف، في إطار حضارة إنسانية جامعة، تقوم على التّراكم الكمّي والنّوعي للفكر والتجربة والمعرفة البشرية .وقد كان على وعي بأنّه سليل حضارة عربية إسلامية عريقة، ساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية في مرحلة سابقة. ومثلت نقطة ارتكاز للحضارة الغربية في ما وصلت إليه من تقدّم وارتقاء، وبأنّ الحضارة والمدنية الفرنسية قوّة قاهرة، لا يمكن الوقوف ضدّها أو مواجهتها. فاتّبع أسلوب المهادنة والتّعايش معها، بغاية الاستفادة من منجزاتها العلمية والتّقنية والتّنظيمية، والاقتداء بها، من أجل تحقيق الإصلاح والارتقاء ببلده تونس. وهو ما يكشف تميّز الخطاب الإصلاحي التونسي من زاوية الرّحلة وتقدّمه بالمقارنة مع نظيره المغربي، بينما عجز الفاسي على التّعامل مع هذه الاختلافات الحضاريّة والثّقافية بين الشرق والغرب نظرا إلى محدوديّة ثقافته الفقهية التقليدية، ولأنه كان محكوما بضغوطات وإكراهات المرحلة التاريخية المتأزّمة والتي تميّزت بالحروب والصراعات العسكرية المتتالية بين بلده المغرب والقوى الغربية الطامعة في احتلاله والسيطرة

عليه، مما ولّد في نفسه تمزّقا نفسيّا وشعوريّا تجاه الحضارة الغربية، فتراوح موقفه من المدنيّة اللّندنيّة بين الاستحسان والاستهجان والإعجاب والإنكار. وقد أفضى به ذلك في النّهاية إلى النقمة على "الآخر" والقطيعة معه، نظرا إلى عدم القدرة على فهم الأسباب العميقة لتقدمه وتطوره، وقد كان لهذا الموقف أصداء في نصّ رحلته إلى أنجلترا، حيث طغى عليها هاجس الصراع العسكري والثقافي والديني في مواجهة "الآخر/ الكافر" المتحفز للانقضاض والهيمنة على بلده: المغرب. ولكن رغم كلّ هذا، فإنّ رحلة الفاسي إلى لندن، لا تخلو من بعض مظاهر طرافة، تتمثل في كونها يمكن أن تُعدّ وثيقة تاريخية مهمّة، تصف الجيش والصناعة الحربية الأنجليزية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من زاوية رؤية رحّالة مغربي، وتسجل حيرة وتخبط "الذات المغربية" الباحثة عن سبل الإصلاح، في لحظة تاريخية مفصلية متأزّمة وقلقة، تتجاذبها إكراهات الواقع المتردّي وتحديات المستقبل المجهولة.

إنّ المقارنة بين خصائص المدنية في هاتين الرحلتين:"سلوك الإبريز في مسالك باريز" و"الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية،" قد مكّنتنا من تجلية مرحلة تاريخية مهمّة في تطور المدنيّتين: الفرنكفونية والأنجلوفونية في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر، وإبراز دعائم القوة والتفوق فيهما، ومظاهر تطوّرهما الهائل على المستوى العلمي والتّقني والعسكري، والتي ستتدعّم وتترسّخ في العقود اللّاحقة من خلال اختراعات علمية وإنجازات تكنولوجية متتالية، وكذلك من خلال حروب عالمية وصراعات دولية ملتهبة، ستؤثر في مجريات الأحداث العالمية والإقليمية، حيث ستبرز رغبتهما المتزايدة في التوسع والهيمنة والسيطرة على مناطق عديدة في العالم، وخاصّة على منطقة المغرب العربي نظرا إلى أهميتها الاقتصادية والإستراتيجية. وكنتيجة لذلك دار صراع سياسي واقتصادي بين فرنسا وبريطانيا حول السيطرة، خاصة على تونس والمغرب الأقصى – بعد الاحتلال المبكر للجزائر من طرف فرنسا – كانت نتيجته غلبة النموذج الحضاري الفرنكفوني، بفضل العديد من الاتّفاقيات والتّوافقات وتبادل المصالح بين القوى الدولية القائمة آنذاك. وقد أدّى ذلك إلى سيطرة هذا النموذج الحضاري والثقافي على الوعي المغاربي، بوصفه النّموذج الحضاريّ الواجب احتذاؤه، والاقتداء به، من أجل تحقيق التقدّم والتحديث، رغم هناته الظّاهرة والخفيّة، وسيكون لذلك العديد من الانعكاسات السياسية والاقتصادية والثقافية التي مازلنا نعيش تبعاتها إلى حدّ الآن.

يتجلّى لنا من خلال القراءة الحضاريّة المعمّقة أنّ الحاضر هو وليد الماضي، فالأحداث التي وقعت في الماضي، ما تزال تصنع الحاضر، وما يزال تأثيرها حاضرا إلى اليوم حاضرا وفاعلا في تشكيل المشهد السياسي والثقافي في المنطقة المغاربيّة ،وفي هذا الإطار كان للرّحلة دور هام في تحفيز الخطاب الإصلاحي وتطويره في بلدان المغرب العربي، وبالأخصّ في تونس والمغرب الأقصى، إذ تتشابه التجربة الإصلاحيّة بين البلدين –رغم نزعة

التّبكير والفرادة التي يتميّز بها الفكر الإصلاحي التونسي- فاحتكاك التّونسيين بفرنسا كان سابقا للمغرب بثلاثة عقود، كما أنّ المدرسة الإصلاحية التونسية، قد تميزت بعراقتها وبجذورها الضاربة في التاريخ، وكذلك بانفتاحها المبكّر على أوروبا مقارنة بدول المغرب العربي الأخرى، ممّا خلق لديها تراكما كميا ونوعيا في التجارب الإصلاحية، أدّى إلى إثرائها ونضوجها ومنحها خصوصية ومرونة كبيرتين في التّعامل مع المدنيّة الغربية، بغية الاستفادة من منجزاتها الفكرية والمادية.

إنّ الإرث الحضاري الثقيل والمتنوع الذي استوعبته الشبيبة التونسية، خصوصا تلك التي تخرجت من الصّادقية – وابن الخوجة أحد أفرادها – استطاعت باقتدار واعتدال أن تتشبّث بصادر هويّتها وقلاعها الحصينة، وفي الآن ذاته أن تقتحم بجرأة أسوار الحداثة الآتية من أوروبا، وشدت إليها الرحال، فأخذت منها ما يغذو ثقافتها، ويرأب الصّدع في البيئة التونسية التي خلخل الاحتلال الفرنسي أنساقها وقوّض بنيانها، وهي ساعية تلقائيا – منذ عقود- إلى فهم العلاقة بين الشرق والغرب في اتجاه التّواصل والمثاقفة والاقتباس والتماس أقوم مسالك الأخذ بناصية المدنية. أمّا من كان على شاكلة أبي الجمال الفاسي ممّن كرّس الإقصاء والتكفير وشيطنة الآخر وعدم الاعتراف بالفضل له، فهو غير قادر على فهم المدنيّة أو الانخراط فيها، دونما الذّهول عن هويته العربية الإسلامية، ولذلك لم يستفد أبو الجمال الفاسي من رحلته الوصفية إلاّ بعض زُخرف للمدنية الحديثة، بينما جعل ابن الخوجة رحلته مدخلا جيدا إلى التّعريف بالآخر في اعتدالٍ، والحثّ على التماس نهج التمدّن والتحديثِ بنضجٍ وحكمةٍ.

ويمكن أن نعتبر أن الرحلة إلى أوروبا والاطّلاع على مظاهر المدنية والتقدم بكلّ من باريس ولندن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد مثّلت على المدى البعيد رافدا من الرّوافد الهامة التي أحدثت صحوة في الوعي المغاربي، وساهمت في ظهور حركات التحرّر الوطني ومقاومة الاحتلال الفرنسي بكل من تونس والمغرب، وذلك من خلال الاطّلاع على مفاهيم وأفكار جديدة، والعمل على استيعابها وإعادة تمثلها وتشكيلها ضمن الأنساق المحلية، مثل فكرة الدستور وتحديد العلاقة بين التقليد والحداثة، وكذلك تشكل مفهوم الهوية والمواطنة ومدنيّة الدولة وضرورة بناء مؤسسات وطنية فاعلة، وكذلك أهمية التنظّم في إطار العمل الحزبي والنّقابي والجمعيّاتي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

أ– مصادر رئيسية :

- ابن الخوجة، محمد. سلوك الإبريز في مسالك باريز، ط1، تونس: المطبعة الرسمية التونسية، 1900.
- محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، أبو الجمال. الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، (تحقيق: محمد الفاسي)، ط1، فاس: مطبعة جامعة محمد الخامس، 1967.

ب– مصادر تكميلية:

- ابن الخوجة، محمد. صفحات من تاريخ تونس، (تحقيق: جمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى)، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986.
- ابن الخوجة، محمد. تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، (تحقيق: الجيلاني بن الحاج يحيى وحمادي الساحلي)، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.
- ابن الخوجة، محمد. الرحلة الفلياريّة بالمملكة التونسية، ط1، تونس: المطبعة الرسمية التونسية، 1912.
- ابن الخوجة، محمد. الرزنامة التونسية، تونس: المطبعة الرسمية، 1902– 1910، العدد: 2 – 10.
- ابن الخوجة، محمد. بحث تاريخي يتعلق بالقضاء الشرعي في الإسلام وبخطة شيخ الإسلام بتونس، تونس: المطبعة الرسمية، 1908 .

قائمة المراجع:

- الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط3، بيروت: دار الفكر للطباعة النشر، 1974.
- أندري، جوليان شارل. المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، (تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة)، ط2، تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع، 1985.
- بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية، (ترجمة: أمين فارس ومنير البعلبكي)، ط5، بيروت: دار العلم للملايين،(د.ت).

- البستاني، بطرس. قاموس محيط المحيط، ط2، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون،1993.
- بيرم، عبد الحسين. علاقة الحدائق والمتنزهات العامة بمفهوم الصحة الحديث، الثقافة العربية، 1977، العدد:3، صص:142-143.
- بيرم الخامس،محمد. صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط1، القاهرة: المطبعة الإعلامية،1885، ج4.
- بيلي، فرانك. معجم بلاكويل للعلوم السياسية ،(ترجمة مركز الخليج للأبحاث)، ط1، دبي-الإمارات العربية المتحدة، (د.ط)، 2004.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة. سنن الترمذي ،(تحقيق: محمد ناصر الألباني)، ط1 ،الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،(د.ت)،ج3.
- التراث الحضاري العربي والإسلامي خارج الوطن العربي. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إدارة الثقافة) ،(د.ط)، 1991.
- التواتي، مصطفى. أثر الثورة الفرنسية في فكر النهضة، ط1، تونس: العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، 1991.
- الجموسي، عبد القادر. أوروبا في مرايا الرحالين العرب، ط1، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2009.
- الحجوي، محمد بن الحسن. الرحلة الأوروبية، (تحقيق: سعيد الفاضلي)، ط1، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2000.
- خلدون، عبد الرحمان. مقدمة ابن خلدون،(تحقيق: عبد الله الدرويش)،ط1، دمشق: دار يعرب، 200، ج1.
- دبيش، لطفي. التواصل الحضاري في الثقافة العربية الإسلامية، تونس: مركز النشر الجامعي، 2010.
- روجرز، ب. ج. تاريخ العلاقات الإنجليزية- المغربية حتى عام: 1900، (ترجمة: يونان لبيب رزق)، ط1 ، الدار البيضاء: الشركة الجديدة (دار الثقافة)، 1981.
- الزمرلي، الصادق. أعلام تونسيون ،(تعريب: حمادي الساحلي)، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي،1986.
- زيادة، معن. الموسوعة الفلسفية العربية ،ط1، معهد الانماء العربي: مكتبة قريش، 1986، ج1.

- سابايارد، نازك. الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ط2، مطبعة نوفل، 1992.
- السويسي، محمد. الرحلة الحجازية، (تحقيق: علي الشنوفي)، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1976، ج1.
- الشيمي ،محمد لطفي زكريا. النظام البرلماني الأنجليزي نموذجا، القاهرة: جامعة القاهرة (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)، 2009 .
- صفر، محمد البشير. مقالات في الإصلاح، (تحقيق: علي العريبي)، ط1، تونس: مطبعة المغرب للنشر، 2004.
- ابن أبي الضياف، أحمد. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية)، تونس: الدار العربية للكتاب،(د.ت)،ج4.
- العريبي، علي. محمد ابن الخوجة المؤرخ والرحالة، ط1، تونس: مطبعة أوربيس، 2011.
- فهيم، حسن محمد. أدب الرحلات (عالم المعرفة)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989، عدد: 138.
- القدّوري، عبد المجيد. سفراء عرب في أوروبا (1610-1922) الوعي بالتفاوت، ط1، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2009.
- القروي، محمد. حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية، (تحقيق: الشاذلي بويحي) ،(د.ط)، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1984.
- القاسمي، فتحي. الشيخ المصلح: محمد بيرم الخامس (1840-1889)، الحياة الثقافية، سنة: 2007 ، عدد:180، صص:97 -103.
- الكيّالي، عبد الوهاب. موسوعة السياسة، (مراجعة: رشاد بيبي ومنير حمودة)، ط1 ،بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، ج2 .
- محفوظ، محمد. تراجم المؤلفين، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
- محمد الحسن ،إحسان. موسوعة علم الاجتماع، بيروت: الدار العربية للموسوعات ،1999.
- محمد حسن، زكي. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.
- ابن منظور، محمد. لسان العرب، القاهرة: دار المعارف،(د.ت)، ج6 .

- نوويل، سميث جيوفري. موسوعة تاريخ السنما في العالم، (ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد)، ط1 ،القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010، ج1.
- ودغيري، محمد. الآخرفي مرآة الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية، المثقف، السنة: 2013، العدد: 2575 . www.almothaqaf.com

قائمة المراجع الأعجمية:

- Bely, Lucien. Histoire de France :Èdition : Jean-paul Grisserot,2006.
- Berramdane, Abdelkhaleq. Le Maroc et L'occident (1800-1974)، Paris : Éditions Karthala,1987.
- Chebbi, Moncef. L'image de L'occident chez les intellectueles Tunisiens au 19ème siècle, Tunis : Arabesques Édition, 2010.
- Crouset, Francois. L'économie Français du 18 ème au 20 ème siecle.Paris : University de Paris-Sorbonne, 2000.
- Crouset, Francois. The victorian Économy, (Translated by Anthony forster), First published, Routledge library éditions,1982.
- Dupin, Charles. Voyages dans la Grande-Bretagne, Paris: Imprimerie de Fain, 1820, Première partie (Force militaire).
- Édward Brunett, Tylor. Primitive culture, Cambridge University Press, 2012, Part I.
- Encyclopaedia universalis. Paris : 1900, Corpus 5.
- Ben Khouja, Mohamed. La femme Arabe et L'instruction, Revue Tunisienne, 1896, N:11, p: 430-445.
- Sheppard, Francis. London A history, first published, Oxford university press, 1998.
- Ben Srhir, Kalide. Britain and Morocco during the embassy of Drummond Hay (1845-1886), (Translated by Malcolm Williams and Gavin waterson), British: Routledge Curzon, 2005.
- Vajda, Joanne. Paris ville de lumière: une transformation urbaine et sociale (1855-1937), Paris: Édition L Harmattan, 2015.

قائمة الأطروحات والأبحاث:

- الحاج ساسي، أميرة. صورة باريس في كتابات الرحالة التونسيين في القرن 19 ،رسالة ماجستير في اللّغة والأدب والحضارة العربية، إشراف الأستاذ: فتحي القاسمي، نوقشت في المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، السنة الجامعية: 2014-2015.
- عوي، أشواق. الرزنامة التونسية لمحمد بن الخوجة (1901- 1917) مصدر من مصادر تونس المعاصرة، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف الأستاذ: الهادي التيمومي، نوقشت في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جوان: 2011.
- العياري، العزيز. الفنون المستظرفة في أدب الرحلة العربي الحديث وعلاقاتها بمفهوم التمدن، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف الأستاذ: فرحات الدريسي،نوقشت في كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، السنة الجامعية: 1992-1993.
- القاسمي، فتحي. الجدل الديني في تونس (1875-1931) قراءة تحليلية نقدية،دكتوراه دولة، إشراف الأستاذ: كمال عمران، نوقشت في كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، السنة الجامعية: 2004-2005.

الفهـــارس

فهرس الآيات القرآنية

ر/ع	نص الآية	السورة	الآية	الصفحة
1	﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقُ ﴾	العنكبوت	20	15
2	﴿ هُوَ ٱلذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾	الملك	15	16
3	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ﴾	الإسراء	70	16
4	﴿ لَوْ يشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾	الرعد	31	111

فهرس الأعلام

أ

إدوارد برنات تايلور9

ألابوتيت قبريال23

أوغست فيليب49

الأول الحسن26

الأولى إيليزابيث60

إيفل أكسندر غوستاف39

ب

بروكلمان كارل67

البستاني بطرس6

باشا محمد علي41 ،18 ،7

باشا أحمد باي41 ،38 ،18

ابن بطوطة17

بوحاجب سالم19

بوشوشة علي108 ،27 ،23

بونابرت نابليون94 ،17

بوجو توماس روبارت74

باي الناصر23

بيرم محمد الخامس97 ،57 ،44 ،7

ت

الترجمان سلاّم17

التامكروني أبو الحسن30

التونسي خير الدين121 ،55 ،36 ،21

ث

الثالث مراد30

الثالث نابليون54 ،39 ،11

ج

جرمان سان120 ،60

ح

الحجوي محمد الحسن121

الحشايشي محمد26

خ

ابن خلدون عبد الرحمان6

الخامس عشر لويس117

ابن الخوجة محمد البشير26

د

دراموند هاي جون76

دي فانشي ليونار61

ذ

الذهبي أحمد منصور75

ر

الرابع هنري50

الرابع عشر لويس41

الرابع محمد23

الرشيد هارون118 ،41

روسو جون جاك54

روا برنار25

الرايس مرزوق75

س

سابايارد نازك114

سافري توماس86

السنوسي محمد55 ،40 ،36 ،26 ،23 ،22

ش

الشدياق أحمد فارس21

شارلمان138 ،41

ص

صفر محمد بشير115 ،98 ،26 ،25 ،8

الصادق محمد باي121

ض

ابن أبي الضياف محمد121 ،55 ،46 ،36

ط

الطهطاوي رفاعة رافع21 ،8

ع

ابن عبد العزيز عمر116 ،53

عبد الرحمان الفاسي الأمين31

عبد الرحمان محمد77 ،31 ،29

ابن عاشور الطاهر22

عبد الله الصفار التطواني محمد23

ابن عياد محمود21

غ

الغرناطي أبو حامد19

غريط محمد29

ف

الفاسي محمد29 ،28

ابن فضلان18

فكتوريا(Victoria) 95

فولتير(Voltaire) 54

فيليب لويس120 ،50

ق

القروي محمد9

القاسمي فتحي8

ك

كبطان لنج(Capitaine-Lange) 98

الكيالي عبد الوهاب10

ل

لاكلاند جون(John-Lacland) 75

لوازون(Loison) 139

م

المجدلانية مريم60

محمد الصادق باي22

محمد الحسن إحسان12 ،11

المطاع محمد31

معاوية محمد22

ابن منظور محمد6

منتسكيو(Montesquieu) 54

ميشال سان120 ،60

هـ

الهادي باي محمد27

ابن هشام عبد الرحمان31 ،23

و

الورداني علي26

ولنكطن(Wellington) 117 ،101

ي

أبو يوسف الحجاج56

يوسف مولاي27

يوارط شلصي (Chelse-Youwarte) 99

فهرس الأماكن

أ

أرض الخزر19

إسبانيا110 ،83 ،77 ،76 ،75 ،31 ،30

الإسكندرية18

أفنيون 117

إفريقية19

إفغانستان19

الأقصر50

ألمانيا22

الألزاس110 ،54

إيسلي122 ،123 ،110 ،84 ،77 ،23

إيطاليا22

إيسبلاند ديزنفاليد

(Esplandes des Invalides) 62

ب

بخارى 19

برسخان 19

بروسيا 54

برج إيفل(Tour Effel) 115 ،48

بستان الدوق "فندوم" 49

باستيل(Pastile) 50

بغداد19 ،18

بلاد البلغار19 ،18

بلاد الروس19 ،18

بلجيكيا22

بلاد الترك18

بلاد الصقالبة19

البندقية9

بنزرت27

البنتيون(Panthéon) 118 ،116 ،62 ،49

ت

تطوان123 ،110 ،77 ،31 ،30 ،23

تكدّا20

تمبكتو20

التايمز93

تياتر دي لوبيرا60

تياتر دي فاريتي60

ج

جبل طارق143

الجزائر123 ،122 ،110 ،77،37

الجمعية الخلدونية26

جمعية الأوقاف25

جامع الزيتونة122 ،22
جامعة القرويّين29

ح

الحجاز23
حديقة الحيوان 102
الحارة اللاّتينية122 ،60
حومة باب البحر 119

خ

خراسان 19
خوارزم19

د

دار البلّور119 ،103
دار السكة 116 ،52
دار الرصد112 ،71 ،41
دمشق 19
الدنمارك22

ر

رومة116
الريّ 19

س

ساحة الوفاق(Place de la Concorde) 50
ساعة بيج بن(Big-Ben) 115
سمرقند19
سوق عكاظ42
السويد22

ش

الشام19
شانزليه(Champs-Elysées) ،63 ،49
115 ،118

ص

صخرة جبل طارق76
الصين19

ط

طراز19
الطريق الصناعي السيّار45
طنجة116 ،99 ،79 ،76 ،19

ع

العراق116 ،53 ،19
عين ورقة21

غ

غابة بولونيا(Bois de Pologne) 118 ،63
غرناطة19
غاو19

ف

فارس19
فاس32 ،29
فلسطين19
الفولغا19

ق

قابس27

القسطنطينية19

قصور فرساي50

قصر الملكة93

قصر الضوء44

قصر الكهربائية112 ،43

القوقاز19

قنطرة لندن93

قوس النصر115 ،48

ك

الكاف27

كنيسة سانت مادلين(Sainte-Madlaine)

137 ،120 ،115 ،59 ،47

كنيسة نوتردام(Notre-Dame de Paris) 48

ل

اللّندريز111 ،106 ،99

اللّوران(Lorraine) 110 ،54

ليون52

م

متحف اللوفر(Louvre) 119 ،61

المدرسة الصادقية22

مرسيليا116 ،113 ،40

مصر50 ،24 ،22 ،20 ،19

مالطة21

معمل الزجاج89

معرض باريس الدولي ،112 ،42 ،36 ،28

113

المعهد العلوي25

مكتب البرق81

المكتبة الوطنية بباريس116 ،122 ،40

مكة19

موزي "غروفان" 62

ميناء "بورسموث" (Portsmouth) ،85 ،80

91 ،96 ،101

ن

النمسا22

نهر حيحون19

نيسابور 19

هـ

هولندة22

همذان19

الهند 19

و

واترلو(Waterloo) 116 ،102

ي

يثرب9

اليونان9

المحتــوى

مقدّمة 2

I – الفصل الأوّل (تمهيدي) حول المدنية والرّحلة والرحّالة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر 4

* مقدّمة الفصل: 5

المبحث الأوّل: حول المدنيّة (مفهومها، خصائصها ومقوّماتها) 6

المبحث الثاني: الرّحلة والآخر 15

المبحث الثالث: الرحّالة في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر (محمّد بن الخوجة وأبو الجمال الفاسي نموذجا): 21

* خاتمة الفصل: 28

II– الفصل الثاني: خصائص المدنيّة في " باريز" 29

* مقدّمة الفصل: 30

المبحث الأوّل: الخصائص العلميّة والعمرانيّة والاقتصاديّة: 32

المبحث الثاني: السمّات السياسيّة 44

المبحث الثالث: الملامح الاجتماعيّة 48

* خاتمة الفصل: 57

III– الفصل الثالث: خصائص المدنيّة في " اللّندريز " 59

* مقدّمة الفصل: 60

المبحث الأوّل: الخصائص العلميّة.....63

المبحث الثاني: السّمات السياسيّة 75

المبحث الثالث: الملامح الاجتماعيّة والثقافيّة.....79

* خاتمة الفصل: 85

V-الفصل الرّابع: الائتلاف والاختلاف في صورة باريز واللّندريز ومواطن الطرافة والتطرّف في الرّحلتين.87

* مقدّمة الفصل: 88

المبحث الأوّل: مواطن الائتلاف 90

المبحث الثاني: مواطن الاختلاف 96

المبحث الثالث: مواطن الطرافة والتطرّف في الرّحلتين.....108

* خاتمة الفصل: 119

خاتمة البحث 121

قائمة المصادر والمراجع 125

الفهـارس.....130

فهرس الآيات القرآنية 131

فهرس الأعلام 132

فهرس الأماكن.....135

المحتوى.....138

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الإستراتيجية والسياسية والإقتصادية
D.A.C